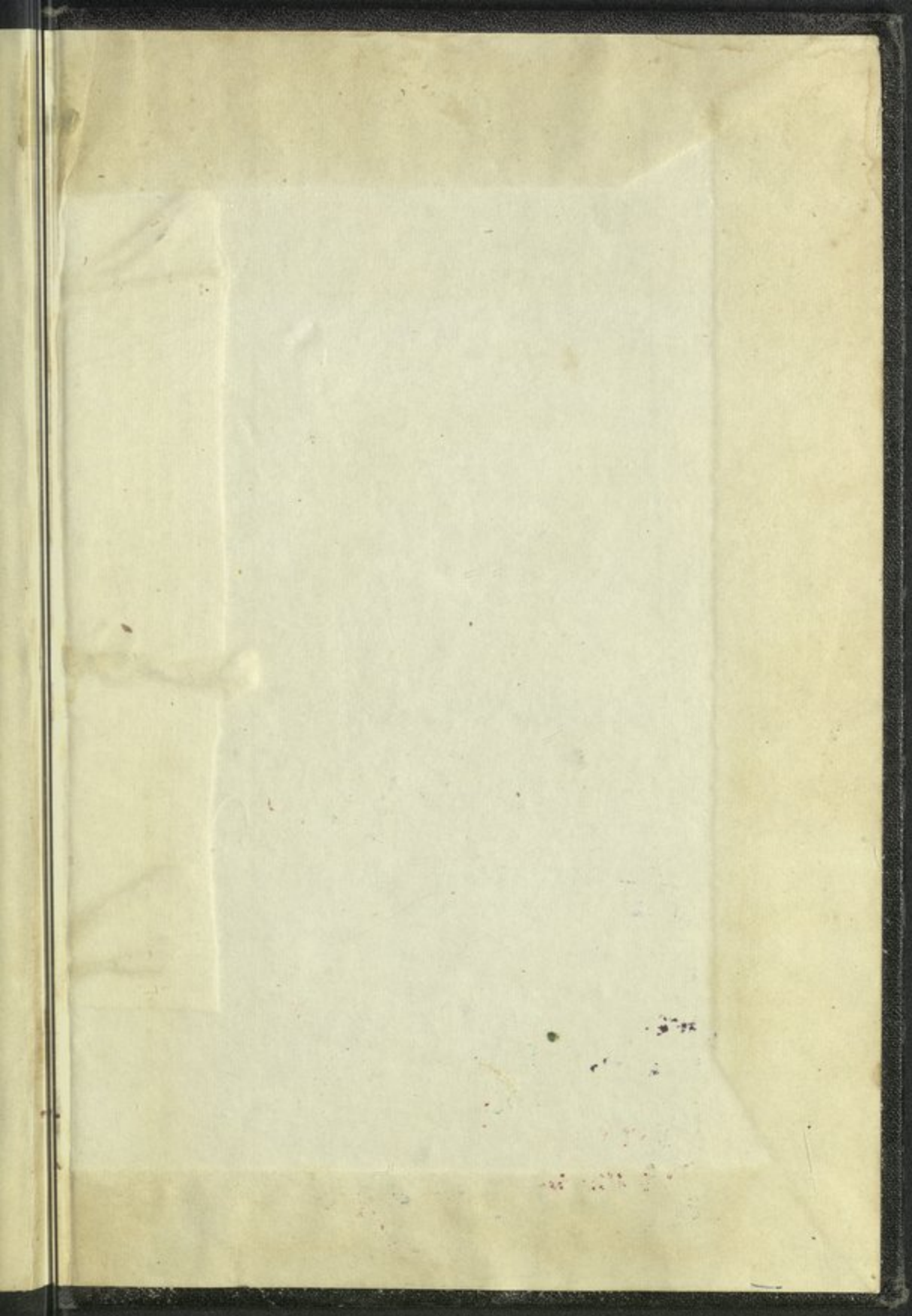




J. Lib.

Handwritten text in Arabic script, likely a library stamp or administrative note, located in the upper right corner of the page.

1897

تاريخ مصر السنية

١٣٣٩

في الأزمنة الحديثة

تأليف

محمد فقيمت

استاذ التاريخ بمدرسة المعلمين السلطانية

(والحاصل على درجة العالمية ودرجة الامتياز من الطبقة الاولى
في التاريخ الحديث وعلى منحة البحث العلمى من جامعة لفربول)

الجزء الاول

من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٤١ ميلاديه

الطبعة الاولى

الثنى ٢٥

28505

جميع حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة للمؤلف

مكتبة جامعة القاهرة

هذه نسخة
من نسخة
الكتاب
والتي
تحتفظ
بها
المكتبة
الوطنية
بمصر
الجلد
الاول



صفحة
٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أقدم كتابي الى قراء التاريخ وأنا شاعر بأني بعيد عن الغرض الذي كنت ارمي اليه . ولكنني وجدت الاحجام عن نشر ما تهيأ لدي لفائدة أبناء وطني ، لمجرد الاعتقاد بأن ذلك دون ما أبنى من الكمال ، ضرباً من الجلود العلي لا يتفق مع سنة النشوء والترقي في العلوم الحديثة ، التي يتوارثها العلماء ناقصة فلا يلبثون ان يورثوها غيرهم وافية بقدر المستطاع ، اذ العصمة والكمال لله وحده

لذلك أقدمت على نشر البحائي التي يرجع البدء فيها الى سنة ١٩١٤ أيام أن كنت أوصل الدراسة في إنجلترا في مكتبة «التحف البريطاني» ودار «سجلات الحكومة» بلندره . ولقد قصدت الى أن يكون بحثي مستمداً من أصوله الرسمية ومن المصادر الموثوق بها حتى يحوز الصفة العلمية التي تحتمها الجامعات الأوربية أولاً وحتى يتسنى لمصري مثلي يفهم الروح المصرية أن يضع كتاباً مستقلاً في الموضوع بحيث لا يكون جل اهتمامه فيه على ما يكتبه العلماء الاوربيون بل على المصادر التي يأخذ عنها هؤلاء العلماء رأساً .

وما أكثر وأعظم ما يعثر عليه الباحث المنقب من أصول ومادة في تاريخ مصر الحديث ، فسجلات وزارة الخارجية بلندره — ناهيك بما في العواصم الاخرى حافلة بمجلدات مكدسة بعضها فوق بعض حاوية لجميع انواع الرسائل الرسمية والخاصة والسرية والتقارير والجرائد وغير ذلك مما يتطلب عدة سنوات للفحص عنه فحسباً دقيقاً . ولقد انتهزت فرصة تعييني طالباً للبحث العلمي في لندره باتفاق جامعة لفربول مع وزارة المعارف المصرية فقضيت عام ١٩١٦ في درس الوثائق الهامة الخاصة بحالة مصر في عهد محمد علي . ثم حضرت مصر وواصلت بحثي في المكتبة السلطانية واستوفيت ما كان ناقصاً وخاصة في الجزء الاول من الكتاب

وسيرى القارىء اننى توخيت فى كتابى أسلوبا سهلا وطريقة علمية غايتها
 الوحدة التاريخية واتجاه السياسة العامة وربط الاسباب بالمسببات واغفال
 التفاصيل المملة وابداء النقد على حسب الحقائق المقررة لا على حسب ماتليه
 العواطف — وهنا الفرق كل الفرق بين المؤرخ الذى يجب ان يكتب ويبحث
 لاجل الحقيقة وبين السياسى الذى يكتب ويجادل ارضاء لعواطفه الخاصة
 وغاية رجائى أن يفى الكتاب بحاجة المتعلمين الى كتاب فى التاريخ على
 الطرق العلمية الحديثة وان يتقدم العاملون للبحث والكتابة العلمية فى موضوعاتهم
 التاريخيه وأن يتكرم أولو الفضل بمواظتى بما يعين لهم من الآراء ووجوه
 الاصلاح التاريخية فى الكتاب

وانى أقدم قبل الختام بشكر حضرة صديقى الاستاذ عبد الحميد أفندى
 حسن على تكريمه بالاشتراك معى فى مراجعة مسودات الكتاب وعلى ما اسداه
 الى من نافع الاقتراحات . كذلك أسدى الشكر لحضرات : الاستاذ عبد الرحيم
 بك محمد عثمان والاستاذ محمد أفندى احمد حسونه واخى سيد أفندى احمد خليل
 و خليل بك صادق صاحب مطبعة الشعب على ما قدمه حضراتهم لى من المساعدات .
 والله أسأل أن يوفقنى الى اتمام الجزئين الباقيين من الكتاب وان يوفقنا جميعا
 الى خدمة بلادنا العزيزة بالصدق والاخلاص

محمد رفعت

القاهرة فى أول رمضان سنة ١٣٣٩ الموافق ٩ مايو سنة ١٩٢٠

فهرس الكتاب

١ الفصل الاول — الحملة الفرنسية في مصر

(يوليه ١٧٩٨ — سبتمبر ١٨٠١)

حالة مصر قبل الحملة . أثر استكشاف طريق (الرأس) . درس مشروع الحملة . أسباب الحملة . قيام الحملة وأغراضها . ظهور المسألة المصرية . سير الحملة . تدمير اسطول نابليون . خطة نابليون في مصر . ثورة المصريين على نابليون . تحرك الباب العالي ضد الحملة الفرنسية . حرج الحالة في فرنسا . حملة نابليون في سوريا . تقهقر نابليون من سوريا وعودته الى فرنسا . صعوبة مركز « كليبر » بعد نابليون . انتصار « كليبر » ثم مقتله . تدخل إنجلترا وارسالها الحملة الانجليزية العثمانية . سوء تدبير القائد « مينو » . انتصار الحلفاء وانهمزام الفرنسيين . نتائج الحملة الفرنسية . تأسيس « المجمع العلمي المصرى »

١٩ الفصل الثانى — تنازع البقاء في مصر بعد الحملة

انتشار الفوضى في البلاد . تلخيص خطة إنجلترا بعد الحملة . المماليك يستنجدون بنابليون . انتصار المماليك على الاتراك . خطة محمد على المبدئية . ثورة الجنود على الوالى . اتفاق محمد على مع المماليك . تغلب محمد على على المماليك . احتراس محمد على . تولية خورشيد باشا . نداء الشعب بتولية محمد على . مصاعب محمد على . محاولة نقل محمد على من مصر . موت البرديسى والأفنى . وصول الحملة الانجليزية بقيادة « فريزر » انهمزام الحملة عند رشيد . موقف محمد على . المماليك لا يتحركون لمساعدة إنجلترا . عقد الصلح وجلاء الانجليز عن مصر .

٣٣ الفصل الثالث — نهضة محمد على

خصائص القرن التاسع عشر . محمد على ونابليون . ضعف الباب العالي . منشأ الوهابيين . تجهيز محمد على للحملة . تحفز المماليك . الفتك بالمماليك .

مكيدة المالك في نظر التاريخ • خروج الحملة الى بلاد العرب • انتصار طوسون
أولاً ثم انهزامة • حضور محمد على الى ميدان القتال • انتصار محمد على وعودته •
عودة طوسون الى مصر • مشاكل محمد على • قيام ابراهيم لمقاتلة الوهابيين •
نتائج حرب الوهابيين وقيمتها • تكوين الجيش المصري • المحاولة الاولى • المحاولة
الثانية وجهود الكولونل « سيف » • استخدام السودانيين في الجيش • استخدام
المصريين • أثر تكوين الجيش في المصريين • حملة السودان • انتصار الحملة • سير
الحملة • قيمة الحملة

٥٧ الفصل الرابع — اصلاحات محمد على الداخلية

نظام الاراضى في مصر • نظام الالتزام • اراضى الوقف • خطة محمد على
الزراعية والعقارية • فوائد هذه الخطة • الاحتكارات • الضرائب • العناية
بالتجارة • مناضلة البرتغال • طريق التجارة البرى • لوازم التجارة • تكوين
الاسطول الجديد • حاجات الجيوش • العناية بالتعليم • الاصلاحات الحكومية •
مشروع الاستقلال الاقتصادى • نقد المشروع • مشروع القناطر الخيرية • نظرة
في أعمال محمد على • المجال واسع للناقد • الحكم النهائى •

٧٦ الفصل الخامس — ظهور المسألة الشرقية واستقلال اليونان

حالة الدولة العثمانية • الثورات الداخلية • خطة القيصر نابليون في الشرق •
المسألة الشرقية بعد سقوط نابليون • خطة روسيا • حالة اليونانيين العامة •
حالتهم التجارية • حالتهم الادبية • تكوين جمعية الاخوان • قيام الثورة
وأغراضها • فشل الثورة في البلقان • تبادل الفطائع من الجانبين • عجز السلطان
عن قمع الثورة • طلب المساعدة من محمد على • حركات الحملة المصرية • خطة
كاننج • خطة النمسا وفرنسا • عطف الشعوب الاوربية على اليونانيين • خطة
القيصر نقولا الاول • معاهدة لندن سنة ١٨٣٧ • موقف الحلفاء وواقعة نوارين •
أثر الواقعة • خطة محمد على بعد الواقعة • تحسين مركز مصر الدولى • الحرب
الروسية التركية سنة ١٨٢٨ • امتناع محمد على عن مساعدة السلطان • الرقيق
اليونانى وشدة ابراهيم

أثر انفصال أملاك الدولة . حذر محمد علي . مراجعة محمد علي لخطته . خلق السلطان محمود الثاني . محمد علي ووالى عكا . فكرة ضم الشام لمصر . قيام الحملة الشامية . سقوط عكا وسير الحملة . خطة السلطان وانهزام جيوشه . انحياز الرأي العام لابراهيم . الاستعداد لموقعة قونية . السعى فى عقد معاهدة بين تركيا وانجلترا . طلب المساعدة من روسيا . حضور المندوب الروسى . وقوف ابراهيم عند كوتاهيه . نزول المدد الروسى بالسفوف . خطة الدول . ارسال معتمدين سياسيين لمحمد علي . البارون روسين سفير فرنسا . تمسك محمد علي بمطالبه . مساعى الصلح . حرج مركز السلطان . نتيجة الصلح وتفوق نفوذ روسيا . عقد معاهدة هنكارسكسى . احتجاج انجلترا وفرنسا . اتفاق النمسا والروسيا . نيات القيصر نيقولا

صاح كوتاهية هدنة مسلحة . معاكسة انجلترا لروسيا . قيام سوريا وتحرك الباب العالى . روسيا وانجلترا لا يعضدان تركيا . اتحاد الثورة ومشروع محمد علي . اعتماد تركيا على انجلترا . مساعى محمد علي لكسب رضا انجلترا . ارتباك محمد علي المالى بسبب مركزه السياسى . محمد علي يطلب استقلال مصر وسوريا . جواب الدول على ذلك . رغبة السلطان فى الحرب . مقدره بنسبى السفير الانجليزى . الحرب الشامية الثانية . اتفاق انجلترا وفرنسا ضد روسيا . اقتراحات الدول بشأن الحالة . مساعى فرنسا لايقاف الحرب . نكبات الباب العالى . قلق الدول وعداء بالمرستون لمحمد علي . خطة روسيا . اقتراح فرنسا . تقديم المذكرة المشتركة . أثر تقديم المذكرة المشتركة

ظهور بالمرستون . خطة بالمرستون . بالمرستون ومحمد علي . ارتباط فرنسا بمحمد علي . غلبة فرنسا السياسية . خطة روسيا . ظهور الخلاف بين انجلترا

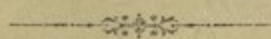
وفرنسا . انتهز الروسيا فرصة الخلاف بين الحكومتين . رسالة البارون برنوف الى انجلترا . معارضة الحكومة الانجليزية . السعى في كسب فرنسا بجانب انجلترا . رفض تيير للشروط المقدمة . مندوبو الدول . مساعي محمد علي لدى الديوان العالي . عودة برنوف واشترائه الروسيا مع انجلترا . خطة المنيو تيير . مندوبو الدول للعمل مع انجلترا

الفصل التاسع — الازمة السياسية في سنة ١٨٤٠ ١٥٣

اسراع بالمرستون في عقد المعاهدة . انتهز فرصة الثورة في الشام . المعارضون لبالمرستون تهديد بالمرستون الوزارة بالاستقالة . ثورة الافكار في فرنسا . عقد معاهدة لندره يوليه سنة ١٨٤٠ . نقد المعاهدة . موقف فرنسا ازاء المعاهدة . مسؤولية جيزو وتيير . خطة الحكومة الفرنسية بعد المعاهدة . وثوق بالمرستون في النجاح . قيام الثورة في سوريا من عمل القسطنطينية . استعداد محمد علي لاستقبال المعاهدة . رد محمد علي على المعاهدة ومعتمدى الدول . قيام الحرب بين محمد علي والدول . تقدم الحلفاء على السواحل . الازمة السياسية في أوروبا . تعضيد فرنسا لمحمد علي . فشل الحركة في فرنسا . نيات تيير . مهمة شارلس نابيير . اتفاهه مع حكومة محمد علي . موافقة بالمرستون على مشروع الاتفاق

١٧٣ الفصل العاشر — خاتمة المرحلة الاولى

معاكسة بنسبني لمحمد علي . ارسال فرمان . محمد علي يطلب تعديله والدول تؤيده . تلخيص ختامى



ملحق « ا » مشروع الجمعية الامم في سنة ١٨٤٠ - صحيفة ١٧٨

» « ب » مصادر الكتاب ١٨٥

» « ج » أسماء أهم الاعلام الاوربية الواردة في الكتاب ١٨٧

صور الكتاب

محمد علي . القلعة عند دخول الحملة . نابليون . القناطر الخيرية . ابراهيم باشا . بوغوص بك يوسف . اللورد بالمرستون . الخريطة

الفصل الأول

الحملة الفرنسية في مصر

(يوليه ١٧٩٨ — سبتمبر ١٨٠١)

وصلت مصر في القرون المعروفة في التاريخ بالمصور الوسطى وهي حالة مصر قبل
التي تنتهي بانتهاء القرن الخامس عشر إلى درجة عظيمة من الثروة والرقى ^{الحملة}
في جميع شؤونها حين كانت أوروبا في ذلك الوقت في حالة جهل وجمود
عظيمين . وكان أصحاب الأمر في مصر حينذاك سلاطين دولة المماليك
البحرية والشراكة الذين تركوا بالقاهرة آثاراً بديعة من نماذج الصناعة
العربية تدل على ما كان لهم من وفرة المال وعظيم الجاه . وما ذلك إلا لأن
موارد ثروتهم لم تكن مقصورة على ما كانت تنتجه أرض مصر من
المحصولات الزراعية بل كانت خزائهم تفيض بأموال الأجانب من تجار
«البندقية» و«جنوة» الذين كانوا ينقلون متاجرهم من الشرق إلى أوروبا ويدفعون
عنها ضرائب ونفقات مختلفة كانت سبباً في إثراء الحكومة والأهالي معاً .
وكان المماليك هم القابضين على طريق التجارة بين الشرق وأوروبا : طريق
نهر الفرات وحلب واسكندرونه ، وطريق البحر الأحمر والسويس
والاسكندرية ، فضمن المماليك بذلك فوقانهم في شرق البحر الأبيض المتوسط .
ولسكن سرعان ما تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور في الوقت
الذي بدأت فيه حركة النهضة الحديثة في أوروبا في أواخر القرن الخامس
عشر وأخذ القوم ينبذون الأفكار والأنظمة القديمة التي انتشرت

فيها أيام العصور الوسطى وقفت حركة الرقي في مصر وبدأت تخطو خطوات
سريعة إلى الوراء كانت نتيجتها التعثر في ظلام العصور الوسطى مدة ثلاثة
قرون آخر. وما ذلك إلا لتحول طريق التجارة بين أوروبا والشرق إلى
طريق رأس الرجاء الصالح الذي استكشفه «فاسكوديه جاما» في سنة ١٤٩٨ بعد
أن استكشف «كولمب» طريق الدنيا الجديدة. فحدث هذان الاستكشافان
انقلاباً ذا شأن في عالم التجارة كان له أسوأ أثر في تجارة البحر الأبيض المتوسط
وموانيه ودوله، إذ حرمت مصر من مرور تجارة الشرق التي كانت تملأ
خزائنها فضة وذهباً فأخذت تضعف تدريجاً حتى أصبحت إيالة عثمانية
في عهد سليم الأول (١٥١٧) يحكمها الأتراك العثمانيون بالاسم ولا يهمهم
منها إلا إرسال الجزية سنوياً ويتصرف في أراضيها وأهلها وأموالها
فئة المماليك «البيكوات» الذين أتوا إلى مصر عبيداً فما لبثوا أن انقلبوا سادة
واستعبدوا فيها كل شيء، واتصلوا بالفلاح مباشرة فاضطهدوه وعملوا على
جمع الثروة لأنفسهم ولم يكثر ثروا بغيرهم وقوى سلطانهم لعدم بقاء الولاة
العثمانيين طويلاً في مناصبهم ولعدم معرفة هؤلاء بالأهالي مما جعل لرئيس
المماليك بالقاهرة المعروف «بشيخ البلد» نفوذاً يفوق كثيراً نفوذ الوالي
وأصبح المماليك يعزلون الولاة أو يقرعونهم كما يشاءون.

أثر استكشاف
طريق (الرأس)

ولما تحولت تجارة الشرق عن طريق مصر فقدت مصر أسباب
الاتصال بالعالم الأجنبي واكتفت بمحصولاتها ومصنوعاتها فلم تنتج إلا
بقدر حاجات أهلها ولم تستهلك إلا مقدار ما تنتجه وعلى ذلك كانت
الحكومة دائماً في حاجة إلى المال تجنيه من التجار الأجانب والوطنيين
الذين يجرءون على إحراز الثروة وكثيراً ما كان يشتد العوز في البلاد

كانت الحال كذلك حينما أراد نابليون الخروج بحملته الشهيرة إلى مصر

بعد أن وقع الهزيمة بأعداء الثورة الفرنسية في إيطاليا وألمانيا وعقد

أول صلح مشرف للثورة ورجلها مع أمبراطور النمسا في «كامبوفورميو»

(١٧٩٧) . وما هي الا نظرة في هذا الصلح حتى تتجلى سياسة نابليون

وأماله في الشرق ، فانه زيادة على أخذ فرنسا الأراضي المنخفضة النمساوية

وحمايتها الجمهوريات الصغيرة التي كونها نابليون في إيطاليا أصر نابليون على أن

يكون لفرنسا جزائر «الأيونيان» وأهمها «كورفو» و«زانتى» التي كانت تابعة

للبنديقية معتقداً أن هذه ستكون محطات تجارية ذات شأن في طريق

فرنسا إلى الشرق . وبعد هذا الصلح لم يبق أمام فرنسا الا انجلترا ولما

كان من المتعذر الاشتباك معها براً أو بحراً درس نابليون مشروع منازلتها

في الشرق وانكب على سجلات وزارة الخارجية فعثر فيها على أكثر من

مشروع يقضى باستحواذ فرنسا على مصر . وترجع العلاقات بين فرنسا

ومصر إلى حملة الملك لويس التاسع المعروف «بسان لويس» في الحرب

الصليبية (١٢٤٨ - ١٢٥٢) وهي التي انتهت بهزيمة لويس عند المنصورة .

ثم تقوّت العلاقات عندما وضع الملك فرنسيس الأول مبادئ الامتيازات

مطبوعة
جوتريه
استأجرها
سنة ١٩٨٩

الاجنبية بتعاقد مع السلطان سليمان القانوني في سنة ١٥٣٥ فنال الفرنسيون منذ ذلك الوقت في أملاك الدولة العثمانية مركزا خاصا ممتازا على غيرهم من الأجانب الذين أخذوا يتشبهون بهم ويعقدون مع تركيا معاهدات امتيازات مشابهة لامتيازات فرنسا. ومن المشروعات التي وجدها نابليون مشروع قدمه «لينتز» للويس الرابع عشر في سنة ١٦٧٢ يقترح عليه اعداد حملة على مصر بدلا من محاربة هولنده في بلادها ميينا أن هذا هو السبيل الوحيد لهزيمة هولنده التي كان لها مستعمرات في الهند الشرقية. ولما كان غرض لويس هو السيادة في أوربا أهمل مشروع «لينتز» وزج بنفسه في حروب أوربية طاحنة

أسباب الحملة

قرأ نابليون كل هذه الأوراق وغيرها وما كتبه «مجالون» ممثل حكومة فرنسا بالاسكندرية إلى حكومته يشكو معاملة مراد بك و ابراهيم بك تارة وتارة أخرى يجذ لحكومته فكرة إرسال حملة إلى مصر ويبين سهولة إخضاع البلاد وما يمكن أن تعود به على فرنسا من وافر الخير وعظيم القوة فافتنع نابليون بأن من المستطاع تنفيذ الفكرة وأن نجاحه سيكون الخطوة التمهيدية لهزيمة إنجلترا في الشرق حيث مستعمراتها وتجارها الهامة وأنه إذا أضيفت مصر إلى دائرة نفوذ فرنسا في ايطاليا وجزر «الأيونيان» لا يلبث أن يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية. هذا إلى ما كان يدور في خلد نابليون من واسع الآمال مقتفيا خطوات الاسكندر و«يوليوس قيصر» وما كان يعتقد من أن الشرق مهد عظماء الرجال وأن الساعة لم تحن بعد للقبض على ناصية الأمور في فرنسا. وكل هذه الأسباب جعلته يلح على «حكومة الإدارة» لأصدار

أوامرها بأعداد الحملة .

ولم يكن من صالح الحكومة في ذلك الوقت إرسال خيرة جنودها
واكفأ قوادها خارج فرنسا ولذلك ظلت «حكومة الإدارة» تعارض المشروع
مدة طويلة إلى أن أقنعها نابليون وعززه «نابيرند» أحد أعضاء الحكومة .
فصدر الأمر في أبريل سنة ١٧٩٨ واحتفظ به نابليون في السر لئلا يصل
أمره إلى البحرية الإنجليزية فتعرقل مساعيه

وبينما كانت فرنسا قائمة على قدم وساق استعداداً للحملة لا يعرف قيام الحملة
حقيقة أمرها إلا أشخاص معدودون كان نابليون يتظاهر بعمل استطلاعات وأغراضها
على سواحل «نورمانديا» ليوهم الحكومة الإنجليزية ويشتغلها عن أمر حملته .
وحقيقة استولى القلق على نفوس الإنجليز في السواحل الجنوبية فجمعوا
رجالهم استعداداً للحرب وصدرت الأوامر إلى الأسطول بالتيقظ ومراقبة
حركات الأساطيل الفرنسية ووصل إلى علم أمير البحر «نلسون» خبر إعداد
الحملة ولكنه لم يعلم وجهتها فوقف الأسطول الإنجليزي أمام بوغاز «جبل
طارق» عند ميناء «قادس» استعداداً للطوارئ .

وأخيراً في مايو سنة ١٧٩٨ كانت قد تمت معدات الحملة من رجال
وضباط ومؤن وذخائر وخيول وعمد وآلات وعلماء ومترجمين مفاربة
ومالطيين واجتمع كل ذلك في ثلاث موان «طولون وسفيتا فوكيا . وجنوه»
وفي ١٩ مايو أفلتت الحملة من طولون وبلغ عددها ٣٢ ألف نفس تحملها
٣٠٠ سفينة وثقالة وكان نابليون هو القائد العام ومعه من مشهورى
الضباط «ديزيه وكليبر وكفارلى ومينو ومسينا ومورا» وكان قائد الأسطول
أمير البحر «ده بروي» ومن مشهورى العلماء «منج وبرتوليه وفورييه وكنتي»

إذ لم تقتصر أغراض الحكومة الفرنسية من هذه الحملة على الاستحواذ على مصر وتهديد طريق الهند بل كان من أغراض الحملة درس الحالة الاقتصادية والطبيعية والتاريخية في مصر درساً وافياً يساعد على تكوين مستعمرة جديدة لفرنسا تعوض عليها ما فقدته من المستعمرات في القرن الثامن عشر، ولهذا الغرض جاء هؤلاء الاخصائيون المختلفون البالغ عددهم مائة أو أكثر للقيام ببحث أحوال مصر

وليس هذا بغريب من حكومة الإدارة لأن فرنسا كانت قد أخذت على عاتقها منذ قيام الثورة تنوير الشعوب وتحريرها من ربقة العبودية والجهل وإدخال مبادئ الثورة من حيث المساواة والتسامح الديني وإشراك الشعب في الحكومة ولو كان مركز فرنسا في البلاد التي تريد نشر دعوتها فيها غير شرعي

ظهور المسألة
المصرية

ومن يوم ١٩ مايو الذي خرجت فيه الحملة الفرنسية من ميناء طولون قاصدة مصر ولدت «المسألة المصرية» وأخذت صبغتها السياسية فوراً لانه إذا كان الاستحواذ على الهند يعد مغنماً اقتصادياً هاماً فإن الاستيلاء على مصر منذ أن حلت بأرضها جنود نابليون أصبح من المسائل السياسية الدولية الأولى التي ما فتئت تشغل بال الدول إلى الآن

وما كانت الدول لترتبك بشأن مصر بسبب خصب أرضها أو جودة هوائها أو سوقها التجارية بل هناك أشياء خاصة تتنازع من أجلها الدول وهي المواصلات المختلفة والموقع الحربي والنفوذ السياسي فيها. لأن مركز مصر في شرق البحر الأبيض المتوسط بين القارات الثلاث مع قربها لأوروبا وسيطرتها على طريق الشرق وسهولة تهديدها لفلسطين والشام من الوجهة

الحرية جعل لها شأنًا دوليًا زاده أهمية فتح قناة السويس وكشف منابع النيل في النصف الأخير من القرن التاسع عشر . هذا سبب اهتمام الدول وخاصة إنجلترا بأمر مصر لأنها تريد صيانة تجارتها وعلاقاتها مع الهند من أن يعيث بها أجنبي يثبت مركزه بمصر . ولكن فرنسا وحدها هي الأولى التي اخترقت بصدق نظرها الحجب السميكة التي أخفت مركز مصر عن أنظار باقي الدول في ذلك الوقت وهي التي عملت على أخذ العالم على غرة بالاستحواذ عليها . وهذا يبين إلى أي درجة وصل انحطاط مصر وخمول ذكرها في تلك العصور حتى ان العالم لم يعد يذكر لها وجوداً ذا منفعة .

لم تلق الحملة الفرنسية إلا مقاومة ضعيفة بمصر بعد افلاتها من رقابة نلسون بكل مشقة وجهد وتزولها بالاسكندرية في أول يولييه . وبعد الاستيلاء عليها سارت الحملة بطريق الصحراء غرب فرع رشيد وقاسى الجنود أهوالاً شديدة بسبب شدة العطش والحر وقابلها مراد بك ومعه بعض المماليك والأعراب عند (شبراخيت) فانهزم المماليك وتقهقروا إلى (امبابه) وهناك تكسرت هجمات فرسان المماليك أمام صفوف جنود نابليون المتراصة وقذائف مدافعه . ولم تدم هذه الواقعة المعروفة بواقعة الأهرام (٢١ يولييه) الا ثلاث ساعات زالت سلطة المماليك على أثرها . إذ أخذ «ديزيه» يتعقب مراد بك ومن معه جنوباً إلى اسوان وسار نابليون يطارده ابراهيم بك إلى الصالحية ومنها هرب البك إلى الشام حيث بدأ يحرض القوم ضد الفرنسيين وما كاد نابليون يبدأ في تنظيم الأحوال حتى ظهر خطر دائم هدد تدمير اسطول نابليون بقاء الفرنسيين في مصر مع أنه لم يكن خطراً جديداً أو غير منتظر . ذلك أن أمير البحر نلسون لما تأكد نهائياً من وجود الفرنسيين بمصر عاد إليهم

في أول أغسطس والتقى بالأسطول الفرنسي في خليج أبي قير فدمره عن آخره وقتل أمير البحر الفرنسي «ده بروي» وهو على ظهر أكبر سفن أسطوله «الشرق» وهي تحترق. ووصلت الأخبار إلى نابليون فذعر وخاطب ضباطه وهم في ولية عقب انتصارهم في الصالحية قائلا «الافاق تهجوا ولتنشرح صدوركم ولكن عليكم أن تعتادوا جو هذا الأقليم فأننا أصبحنا ولا مراكب لدينا تنقلنا إلى أوروبا». والحقيقة أن الحملة الفرنسية بمصر بعد هذه الواقعة أصبح مقضياً عليها لا محالة إذ صار الفرنسيون في مصر كأنهم محصورون في مدينة مضيق عليها ومصيرها إلى التسليم آجلاً أو عاجلاً.

خطبة نابليون لذلك رأى نابليون ضرورة العمل كأن فرنسا ستبقى في مصر إلى أجل غير مسمى فأخذ ينظم فروع الإدارة ودعا المشايخ الوطنيين للاستشارة في الشؤون الوطنية لمعرفةهم بالأهالي ولتأثيرهم فيهم وكون الشرطة وعين حكماً عسكريين في الأقاليم وأخذ الفرنسيون يسوون المسائل المالية وبدءوا بمصادرة أملاك الممالك وفرضوا الضرائب ووزعوها على الجميع وجمعوها بنظام فالبث أن عاد الأمن في البلاد وفتحت الناس متاجرها واستأنس الناس بالفرنسيين واطمأنوا إليهم ونشطت حركة العمل في البلد وأنشئت في القاهرة محال تجارية وقهاوى ومطاعم ومصانع وأذيع التنبيه بوجوب الانارة والنظافة ونظم «المجمع العلمي» وبدأ كل يعمل في دائرته الخاصة وأراد نابليون أن يستميل إليه الرأي العام بظهوره مظهر المحترم للديانة الإسلامية وصاحب شريعته فوزع المنشورات بين الناس بأنه مثلهم مسلم يؤمن بالله ويعترف برسالة نبيه وأظهر اهتماماً زائداً بالاحتفالات الدينية. غير أن العامة لم تنخدع مطلقاً وعرفوا مبالغته هذه خداعاً منه ورياء

وكانت من أسباب القيام ضده. ثم وجههم الى تحصين المدينة خوفاً من قيام الأهلالي أو هجوم الأعداء فوضع المهندسون مشروعا يقضى بخلع ابواب الحارات وهدم بعض الأحياء الفقيرة في الحسينية وبعض المساجد والمنائر مما كان يقف في طريق التحصين وإقامة الاستحكامات، وأخذ يضم الى جيشه بعض أفراد الأفرنج الذين كانوا بمصر وبعض المسيحيين الشرقيين.

ولكن ما لبث ان قام سكان القاهرة بثورة في ٢٢ أكتوبر ضد تصرفات الفرنسيين، وأسباب هذه الثورة ظاهرة كهدم بعض الأماكن والتشديد في جمع الضرائب بنظام وإساءة الفرنسيين إلى أسر المالك وقتلهم كثيرين بتهمة الخيانة ومن هؤلاء «السيد محمد كريم» حاكم الاسكندرية. ومن الأسباب ظهور البدع الجديدة وتهتك النساء في الشوارع وانحطاط الاداب وسوء معاملة نابليون لبعض العلماء الذين أبوا وضع شعار الثورة الفرنسية على صدورهم. وأهم من كل ذلك تواتر الأشاعات بأن السلطان يعد جيشاً عظيماً لطردهم الفرنسيين من مصر وكان «ابراهيم بك» يرسل المنشورات بذلك الى القاهرة

وقد أخذ الفرنسيون بغتة ولم يستعدوا مطلقاً لمقابلة هذه الثورة، فقتل عدد كبير منهم القائد «ديبوي» حاكم القاهرة و«سالكسكي» رئيس اركان حرب نابليون. ولكن نهض نابليون في الحال واتخذ الاحتياط اللازم فوضع المدافع على ربي المقطم، وهدد مرا كز الثورة القوية في الأزهر وقسم الحسينية وما زال بهم حتى وقع الرعب في صدور الناس وفرغت جعاب أهل الحسينية، فقام العلماء وطلبوا الأمان من نابليون. ولكن نابليون فقد كل ثقة في العلماء وتأكد أنهم المحرضون على الثورة فاستعمل

الشدة والضرامة المتناهية وارتكب إثماً لا يزال مقروناً باسمه إلى اليوم في مصر، ذلك أن جنوده وخبوله دخلت الأزهر فانتبهكوا حرمة وأساءوا استعماله . وبدلاً من أحماد نار الثورة وإزالة سخط الناس أضاف نابليون بذلك وقوداً جديداً لا بد أن يشتعل يوماً ما مادام الأتراك والإنجليز على الأبواب .

تحرك الباب ولقد كان من نتائج واقعة «أبي قير» البحرية وتدمير الأسطول الفرنسي أن ^{العالى ضد} سهل على إنجلترا حمل تركيا على إعلان الحرب ضد فرنسا وإعداد حملة لطرد الحملة الفرنسية الفرنسيين من مصر، وكانت الحكومة الفرنسية قد أخذت حذرهما من أول الامر فارسلت «نالييرند» إلى القسطنطينية عقب خروج الحملة ليؤكد للباب العالي حسن نيات فرنسا نحو السلطان وإن الغرض من إرسال الحملة ليس إلا تأديب المماليك وتخليص الباب العالي من حكمهم في مصر . ولكن السلطان ارتاب في عمل فرنسا وبدأت الحكومة الإنجليزية من جهة أخرى تحرك الباب العالي ضد فرنسا وتنصح تركيا بإعلان الحرب عليها ، فلما سمعت بواقعة أبي قير تشجعت وأعلنت الحرب على فرنسا في سبتمبر سنة ١٧٩٨ وتحالفت مع إنجلترا والروسيا ضد فرنسا . ولما كانت السيادة البحرية للأسطول الإنجليزي تمكن الحلفاء من أخذ جزيرة «مالطه» وجزائر «الأيونان» بمعاونة الأسطول الروسي ، وأعد الباب العالي جيشين أحدهما في جزيرة «رودس» لتحمله السفن الإنجليزية إلى ساحل أبي قير والثاني ينحرف على مصر من طريق البر بقيادة والى «عكا» احمد باشا الجزائر خرج الحالة في فرنسا وكانت الحكومة الفرنسية تريد إرسال المدد لنابليون بأية طريقة، ولكن حال دون ذلك تألب الدول عليها مرة ثانية متشجعة بغياب

نابليون وبهزيمة أسطوله في أبي قير وعداء السلطان له ، فشبت نار الحرب في أوروبا وشغلت فرنسا عن نابليون . أما هو فبدأ بالهجوم في الشرق لما علم بوصول الجيش العثماني على الحدود الشرقية ، مفضلاً كماداته خطة الهجوم . ولا يبعد أن يكون قد فكر وقتئذ في تنفيذ مشروعه الشرقي العظيم الذي لو تم لا يمكنه أن يصل إلى باريس عن طريق القسطنطينية واثينا .

سارت حملة نابليون وتبلغ (١٢٠٠٠) جندي قاصدة سوريا في حملة نابليون فبراير سنة ١٧٩٩ بعد أن قبض على ناصية الأمور بمصر وترك عدداً قليلاً من الجند في حاميات القاهرة والأسكندرية ورشيد ودمياط . ودخل الفرنسيون « العريش » ثم « غزة » و « يافا » وهناسامت حاميتها وعددها (٤٠٠) جندي للضابط الفرنسي فأمنهم على حياتهم ، ولكن نابليون ضاق بهم ذرعاً ، ولما لم يكن لديه زاد يكفيهم أوسفن تحملهم إلى مصر خاف أنه إذا تركهم وشأنهم لا يلبثون أن يحملوا السلاح ضده فلم يجد مناصاً من قتلهم جملة واحدة وتحمل أمام التاريخ إثم هذا العمل الفظيع . وعلى أثر ذلك فشى الطاعون بين جنوده ثم سار نحو « عكا » فحاصرها وكان واليها أحمد باشا الجزار جندياً شهماً فأحسن تحصين الميناء بمساعدة مهندس فرنسي من الحزب الملكي كان على سفينة حربية انجليزية بقيادة « السير سدن إسمث » . واجتهد نابليون مراراً في الهجوم فلم يقو على أحداث أي تأثير ولكنه تمكن من هزيمة الجيش التركي الذي أرسل لأمداد الحامية في واقعة « تل طابور » (أبريل سنة ١٧٩٩) . واستمر الحصار إلى مايو فهجم نابليون آخر هجمة ودخلت جنوده المدينة ولكنهم وجدوا بيوتها قلاعاً وشوارعها محصنة بالخنادق والمتاريس ، فقرر نابليون العودة إلى مصر فوصلها بعد متاعب هائلة بسبب شدة الحرارة

وتفشى الطاعون وكثرة المرضى .

تقهقر نابليون وبعد أن فقد ثلث رجاله وصل القاهرة في ١٤ يونيه فوجدها من سوريا في حالة اضطراب غير عادي ، وعلى الرغم من تظاهره بالانتصار وعودته إلى فرنسا وإقامة الاحتفالات قد أثر ارتداد نابليون من أمام عكا في سمعة الفرنسيين كثيراً وحقر من قدرهم ، فزحف مراد بك من الجنوب ونزل الأتراك بأبي قير . عند ذلك التقى نابليون بالملك فبرز مهم ثم قصد إلى أبي قير فارتد العثمانيون إلى البحر أمام الجنود الفرنسية ولكن تدخل الأسطول الأنجليزى فتقهقر الفرنسيون وتعبهم العثمانيون إلى أن قطع عليهم الفرنسيون خط الرجعة فانكسر الجيش العثماني وقضى عليه في واقعة « أبي قير البرية » (أغسطس سنة ١٧٩٩) . وبعد أن حسن نابليون سمعته قليلا بهذا الانتصار فكر جدياً في مغادرة ميدان الشرق لأخفافه فيه وخشية أن يضيع مستقبله إذا بقي بمصر ، وكان قد علم بما يجري من الأحوال في أوروبا وبانهزام فرنسا أمام أعدائها وفقدائها الأراضى المنخفضة وإيطاليا وكانت قدوصلته دعوة من الحكومة بالحضور فصمم على مغادرة مصر وأسرّ الأمر إلى أمير البحر « غانتوم » وسافر سرّاً في (٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩) على سفينة حربية ومعه ثلاثة من ضباطه وترك القيادة « لسكبير » ووصل فرنسا بعد شهرين .

صعوبة مركز
« سكبير » بعد
نابليون
ولما علم رؤساء الحملة بسفر نابليون امتلأت قلوبهم يأساً وتبدد كل أمل في نجاح بقائهم بمصر ، وكان استياء « سكبير » عظيماً لخرج مركز الحملة في مصر بسبب احتياجها إلى أشياء كثيرة لا سبيل إلى وجودها بالشرق ، ولا انحطاط قواها الأدبية على أثر تقهقرها من سوريا ، ولوجود الأتراك

على أبواب مصر من الشرق ، ولثورة الأفكار في داخل البلاد وتحينهم أول فرصة للقيام بالثورة ضد الفرنسيين . وقد أثرت هذه الأحوال في «كليب» فكتب مذكرة إلى حكومته وصف فيها حالة اليأس والقنوط التي وصلت إليها الحملة في مصر ، وفتح باب المفاوضات مع السير «سدني إسْمِث» بقصد جلاء فرنسا عن مصر واتفقا على الهدنة أولاً ، وتعهد السير سدني إسْمِث «بالنيابة عن تركيا بأن تنقل الحملة إلى فرنسا على سفن انجليزية على حساب تركيا» (اتفاق العريش يناير سنة ١٨٠٠) ولكن كان مركز «السير سدني إسْمِث» غير معترف به رسمياً وكانت الحكومة الانجليزية واللورد «كيث» القائد العام الانجليزي لقوات البحر الأبيض المتوسط ضد عقد الاتفاق لوقوع خطاب «كليب» الذي أرسله إلى حكومته في أيديهم ، ومنه عرف الانجليز حقيقة الحال في مصر فكتب «اللورد كيث» إلى «كليب» يقول بضرورة تسليم الجيش الفرنسي كأسرى حرب ، وعلى ذلك انقطعت المفاوضات .

ورأى «كليب» أن الثورة من ورائه والعدو أمامه فجمع جيشه وبعث فيهم روح الحماسة وحصن القاهرة وقابل أربعين ألفاً من الأتراك عند المطرية يقودهم الصدر الأعظم يوسف باشا ضياء بعشرة آلاف جندي فهزمهم شر هزيمة في واقعة «عين شمس» (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) . وكان قد دخل جزء من الجيش العثماني القاهرة وساعد على تأجيج نيران الثورة وحصار من بقى داخل المدينة من الفرنسيين فزحف كليب إلى القاهرة واصطاح هو ومراد بك بأن يترك له الصعيد وحاصر القاهرة حصاراً دام شهراً ، وأخيراً خضعت القاهرة فقبض على الأتراك وأرسلهم إلى سوريا ، وفرض غرامة كبيرة على البلاد وبدأ بتقوية مركز الحملة فزاد في عدد جيشه وفتح

انتصار
«كليب» ثم
مقتله

المصانع ووطد الأمن . وبينما هو يفتح عهداً جديداً للحملة إذ فاجأه القدر فقتل في (١٢ يونيه سنة ١٨٠٠) وخلفه القائد « مينو » وكان أضعف خلف لسلفيه المشهورين .

تدخل انجلترا
وارسالها للحملة
الانجليزية
العثمانية
وكانت حكومة انجلترا ما فتئت تتحين الفرص لأنزال حملة على مصر لتساعد السلطان على طرد الفرنسيين ، فلما قتل « كليبر » وخلفه « مينو » تحققت أن الفرصة قد سحبت لضعفه العسكري وعدم ثقة الجنود الفرنسية به لميله للبقاء بمصر واستمرارها في حين أن الجزء الأعظم من الجيش كان يريد العودة إلى فرنسا . وربما كان ميله للبقاء راجعاً إلى تزوجه بمسامة وإعلان اعتناقه للأسلام . فأسرعت انجلترا وصممت على بذل أعظم جهد لطرد الفرنسيين قبل أن تفوت الفرصة فأرسلت قوة برية على أسطول عظيم للنزول بأبي قير وعلى رأسها « السير رالف أبركرمبي » وأوعزت إلى السلطان بأرسال قوة برية عن طريق الشام وقوة تنقل على سفن شراعية إلى أبي قير للاشتراك مع الحملة الانجليزية ، وكلفت حكومة الهند إرسال حملة من سبعة آلاف هندي للاشتراك في طرد الفرنسيين من جنوب مصر عن طريق « القصير وقنا » .

سوء تدبير
القائد (مينو)
فنزلت الحملة الانجليزية عند أبي قير ، ولو كان على رأس الحملة الفرنسية القائد (مينو) « نابليون » أو « كليبر » لجمع كل قواته وقصد النقطة المهددة وبدد الأعداء . أما « مينو » فوزع قواته ولم يعزز قوة حاكم الإسكندرية خوفاً من هجوم الأتراك من الشرق وفاته أن الجيش العثماني سيعمل بالأشتراك مع الحملة الانجليزية فلا يتحرك إلا وفق حركاتها . فنزل الانجليز إلى البر من غير صعوبة ولما وصل « مينو » لمقابلة العدو انهزم في واقعة « كانوب » قرب

رجال يصاحون شؤونها استعانت بضباط فرنسيين في تنظيم جيوشها ،
وبمهندسين فرنسيين في تنظيم ريفها وطرقها ، وبأطباء فرنسيين وأساتذة
ومشرعين فرنسيين

وبدأ الفرنسيون يزدون في عدد من بقى منهم بعد ذهاب الحملة
فأسسوا جالية كبيرة صناعية وتجارية وأصبحت الصلة التي تربط فرنسا
بمصر صلة أشبه بالصلة التي تربط الأستاذ بتلميذه . وهذا يفسر كثرة
الأموال التي دفعها الفرنسيون في القروض وفي إنشاء قناة السويس ، وظلت
فرنسا مدة قرن تقريباً حافظة نفوذها الأجنبي إلى أن جاء الاتفاق الفرنسي
الإنجليزي سنة ١٩٠٤ فذهب بهذه الميزة .

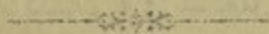
وإن أثر تركتة الحملة في مصر هو ما خلفه العلماء الذين جاءوا مع
نابليون وكونوا في مصر «المجمع العلمي المصري» المعروف لمساعدة نابليون
في تأسيس مستعمرة فرنسية على قواعد ثابتة ودعائم راسخة ، فعهد اليهم
نابليون وكليبر من بعده بالبحث في أحوال مصر المختلفة فقاموا بأبحاث
خالدة وبخاصة فيما يتعلق بأحوال البلاد الطبية والتاريخية والجغرافية . وإلى
هذه الجماعة يرجع الفضل في درس مشروع وصل البحر الأبيض بالأحمر
درساً هندسياً بهمة «لاير» الذي كتب تقريراً فنياً في الموضوع كان
موضع إعجاب واستفادة «دلسبس» في المستقبل على الرغم من خطأه في
توهم ارتفاع سطح البحر الأحمر عن سطح البحر الأبيض مما أدى إلى
تعطيل إنشاء قناة السويس .

كذلك قام المعهد العلمي بوضع خريطة جغرافية صحيحة عن مصر
وبدرس تاريخ مصر القديم والتنقيب عن الآثار القديمة التي أجادوا في

وصفها ورسمها .

ولما جاءت الحملة الى فرنسا أمرت حكومة القنصلية فطبعت جميع أبحاث العلماء في مجلدات عنوانها « وصف مصر » وهي أوثق المصادر التي نستمد منها تاريخ مصر الطبيعي وأحوالها عند دخول الفرنسيين . أما « حجر رشيد » فقد كشفه ضابط فرنسي اسمه « بوشار » ولكنه استولى عليه الانجليز أثناء حملتهم الاولى ، وهو الآن في متحف لندره .

وفي سنة ١٨٢٢ انبرى « شامبليون » الفرنسي لحل الغاز اللغة المصرية القديمة المنقوشة على الحجر مستعيناً باللغتين الديموطيقية واليونانية المنقوشتين على الحجر . والحملة يرجع الفضل في إقامة الصنائع والمعامل وتنظيم الطرق وانشاء المطاحن للغلال والمستشفيات والحدائق والمنتزهات والعناية بالرسم والنقش والتصوير وانشاء المكاتب وطبع الجرائد . ولهم فضل كبير في تأديب عرب الصحراء الذين كانوا يغيرون على القرى وفي تحصين القاهرة وساحل مصر الشمالى وغير ذلك من الإصلاحات التي وان لم تكمل إذ ذاك قد كونت النواة التي تجمعت حولها اصلاحات محمد علي العظمى في المستقبل



3

الفصل الثاني

تنازع البقاء في مصر بعد الحملة

لما رحل الفرنسيون عن مصر بقي بها ثلاث قوات مختلفة : أولاً العثمانيون ويمثلهم يوسف باشا بالقاهرة و حسين باشا القبطان بالاسكندرية. ثانياً الجيش الانجليزي تحت رئاسة أمير البحر « لورد كيث » وكان الجيش معسكراً في إنيابه وفي الاسكندرية . ثالثاً المماليك الذين ساعدوا العثمانيين والانجليز في الوقائع الأخيرة . وكان المماليك هم الحزب الأقوى بسبب معرفتهم للبلاد وخوف الأهاليين منهم وتعودهم طاعتهم على الرغم عما نالهم من العطب بسبب قلة عددهم على أثر الحروب الأخيرة وعدم سماح السلطان لهم بحلب ممالك جديدة إلى مصر ، وقد دعاهم ذلك إلى تكميل عددهم بضم بعض الأعراب إلى صفوفهم . لذلك لما رحل الفرنسيون عاد امراء المماليك إلى طرقهم الأولى في الحكم بالسطو على القرى واهلاك الحرث والنسل أينما حلوا .

وكان الجنود العثمانيون كذلك يكثر من التعدي على الأشخاص والسطو على محال التجارة وعلى البيوت ، وحجبتهم في ذلك كله أنهم خلصوا البلاد من « الكفرة » الذين ساموا الناس العذاب واتهكوا حرمة بيوتهم وعلى ذلك كان حقاً على المصريين أن يسمحوا لأولئك المجاهدين بشئ ، مما سمحوا به للأجانب . وكانت الجنود لا تجد لها عملاً إلا سدا لك هذا المسلك

انتشار الفوضى في البلاد

الوعر وذلك لتأخر صرف رواتبهم بسبب إفلاس خزانة الوالى وعدم قدرة
 الأهالى على الدفع بسبب ما حل بهم فى السنوات الأخيرة من العطل
 والغرامات، وبسبب قلة الزرع والحصد فى السنوات الأخيرة. ولو أن الحال
 وقفت عند ذلك لرضى المصريون بالأنزواء فى بيوتهم كما اعتادوا من قبل
 وقنعوا بالشئ اليسير. ولكن مما زاد الحالة حرجاً انشقاق الممالك بعضهم
 على بعض من جهة وانقسام عرى الجنود العثمانية من جهة أخرى، فكانت
 الحروب بين الجماعات والأفراد ناشبة فى البلد فى كل شارع وفى كل وقت
 مما أدى إلى إغلاق الحوانيت ومحال التجارة وتملك الفرع من النفوس
 والحقيقة أن المدة من يونيه سنة ١٨٠١ ويونيه سنة ١٨٠٥ لم تكن
 إلا فترة اضطراب وارتباك كانت مصر فى أثنائها فى حالة فوضى ليس
 لها مثيل فى التاريخ إذ انحطت فيها البلاد إلى الحضيض من كل وجهة.
 تعاقب عليها فى هذه المدة سبعة أو ثمانية حكام قتل منهم اثنان وطرده الباقون
 بعد أن سجنوا، وفى هذه الفترة كاتب بعض الممالك حكومة فرنسا طالين
 حمايتها واتفق آخرون على طلب حماية إنجلترا. وقد نزل فى هذه المدة بمصر
 كثير من مختلف الجنود: ارناؤد وانكشارية ودلاة من الشام فساموا
 الناس سوء العذاب ولما لم يجد الحكام نقوداً حاضرة عمدوا إلى أخذها
 قسراً، فقتلوا من النصارى واليهود والممالك عدداً عظيماً بقصد الاستيلاء
 على ثروتهم. كل ذلك أثار امتعاض عامة المصريين وسخطهم إلى درجة جعلتهم
 يتحينون الفرص للتخلص من هذه الفئات الطاغية.

والحقيقة أنه لم يفتن حقيقة الحال إلا شخص واحد هو محمد على،
 فلا تركيا أمكنها أن تستفيع بمركزها بعد خروج الفرنسيين، ولا إنجلترا،

ولا المالك أنفسهم . أما فرنسا فيظهر أنها نفذت إلى قلب محمد علي وعرفت أغراضه لفعضدته منذ الساعة الأولى . وأما إنجلترا فأنها عجزت عن اكتناه حقيقة الحال لأنها وطنت نفسها على أن يكون لها حق احتلال أو حماية السواحل الشمالية لمصر بعد خروج فرنسا . وذلك أما باستمرار المحالفة مع تركيا إن فاقت تركيا غيرها في مصر ، أو باتفاقها مع المالك إذا لم تتمكن تركيا من ذلك .

ولكنها أخفقت في الحالتين ، فان فرنسا عقب خروج الحملة بدأت تلخيص
مفاوضات الصلح مع تركيا وتم ذلك في سنة ١٨٠٢ بفضل « سبستيانى » خطة إنجلترا
بعدها الحملة
سفير نابليون في القسطنطينية بالرغم من العراقيل التي وضعتها إنجلترا . ثم عقد صلح « أميان » سنة ١٨٠٢ بين إنجلترا وفرنسا ، وبه نزل كل جانب عما احتله في هذه الأثناء وتحتم على أساطيل إنجلترا وجنودها الخروج من مصر وتم ذلك في مارس سنة ١٨٠٣

وبعد ذلك أستعد الأنجليز لتنفيذ سياستهم بالطريقة الثانية وهي طريقة الاتفاق مع المالك . وذلك أولاً بمساعدتهم ضد العثمانيين في كل حروبهم ، وثانياً بدعوة محمد الألفى بك الكبير إلى إنجلترا حيث أكرموا وقدموا له الهدايا واففقوا معه على أن تسعى الحكومة الانجليزية لدى الباب العالى ليعفو عن المالك ويترك لهم السلطة في مصر برياسته . وإذا ما تم له ذلك ترك إدارة الاسكندرية والسواحل في أيدي إنجلترا . ولكن هذه السياسة أيضاً لم تصادف نجاحاً . وذلك لأن عثمان بك البرديسى و ابراهيم بك زعماء المالك كانوا بالاتحاد مع محمد علي ينافسان الألفى فتمكنوا من قهره . ولما طاش سبهم الانجليز سعوا لدى الباب العالى بأن يصدر أمره

بطرده الألبانيين من مصر ومعهم رئيسهم محمد علي والم لم يتم ذلك كشفت
انجلترا القناع وأرسلت حملة القائد «فريزر» في سنة ١٨٠٦ الى مصر كما
سيجيء بعد .

المماليك
ومحاولة
الفتك بهم

أما المماليك تلك الفئة الطاغية التي هي كأسرة «البوربون» في فرنسا
لم تتعلم شيئاً من محنها ولم تنس شيئاً من ماضيها ، فأنهم كانوا يمتنون
أنفسهم بعد خروج الفرنسيين بأن ينالوا مركزهم القديم في البلاد ويعيشوا
عيشة البذخ والتنعيم بالسطوع على أهلها . ولكن هناك عوامل كانت من أقوى
الأسباب على زوال قوتهم وهي انقسامهم وكره الأهلالي لهم ورغبة السلطان
في الخلاص منهم . ولقد أبدى الباب العالي في أول الأمر رغبته في أن
يتمكن ممثلو سلطته من الأيقاع بالمماليك ، وتنفيذاً لهذا دعا حسين باشا
القبطان في الاسكندرية «الطمبورجي بك» خاف مراد بك لزيارته بأبي قير
هو وأتباعه وأرسل يوسف ضيا باشا في القاهرة إلى ابراهيم بك وأتباعه
دعوة أخرى ، وقد قتل عدد منهم في أبي قير في عرض البحر ولكن
تدخل القائد «هتشنسون» وخلص الباقيين . وكذلك في القاهرة تدخل
القائد الانجليزي «رمزي» وخلصهم من فتك العثمانيين بهم

المماليك
يستجدون أنفسهم على محاربتهم حتى النهاية . وخلف الطمبورجي «عثمان بك البرديسي»
بنابليون

بعد ذلك لم يأمن المماليك البقاء في القاهرة مع العثمانيين ، ووطنوا
وهو من أقوى زعماء المماليك وأحسنهم سياسة فبدأوا يشكون إلى نابليون
حالمهم وكتبوا اليه يقولون انه هو الذي أوصلهم إلى حالة البؤس والضعف
التي هم فيها ، ويرجون أن يساعدهم في إعادتهم إلى سلطانهم الأول
ويسمحون له مقابل تدخله بأي امتيازات يرضاها ، غير أن نابليون كان

قد شغل عن مصر بمطامع أخرى فلم يأبه بصرخة المماليك وسرعان ما قامت الحرب بينهم وبين الاتراك

وكان محمد باشا خسرو أول وال عثمانى عين بعد خروج الحملة قد أرسل جيشا لمحاربة المماليك فانهزم عند بنى سويف وانتشر المماليك في الوجه البحرى وتحصنوا عند دمنهور واتصلوا بالانجليز الذين ماقتوا بعضدوهم وخاصة بعد اتفاق نابليون وتركيا. فانتصر البرديس انتصاراً عظيماً عند دمنهور في نوفمبر سنة ١٨٠٢، وكان جيش محمد على على مقربة من الواقعة ولكنه لم يتحرك للمساعدة. ولما علم خسرو بذلك طلبه لمقابلتة ليلاً فاجابه محمد على انه سيحضر نهراً ومعه جنوده

هذا تفسير سياسة محمد على الأولى التى أوصلته الى مركز الحاكم فى مصر، وذلك انه رأى تفاهة الأغراض التى يقاتل من أجلها الطرفان. فلوالى كان يريد اخضاع المماليك ليجعل مصر تحت سيطرة الباب العالى ويرسل منها كل سنة من المال اكثر ما يستطيع إرساله ليقى فى منصبه. والمماليك من جهة أخرى كانوا يريدون أن تكون مصر لأفئدتهم نعمون بخيراتهما ويسومون أهلها صنوف العذاب، وفى كلتا الحالتين خراب مصر واضمحلالها وانحطاطها. لذلك عول محمد على على أن لا يساعد فى تقوية حزب دون آخر، وصمم على أن لا يعمل إلا لما فيه نفعه الشخصى. وكان قد دبر فى نفسه أن يتفجع بمركز مصر وخصب أرضها وما فطر عليه أهلها من الولاء والسكينة فيبنى لمصر ولنفسه مركزاً عالياً ومجداً مؤثلاً. فلماذا إذن لا يترك محمد على هذه الفئات تتطاحن حتى تسنح له الفرصة، وفى أثناء ذلك يمكنه بدهائه وحزمه وعقله وبعد نظره أن يعد العدة لنفسه؟ هذا ما عول عليه

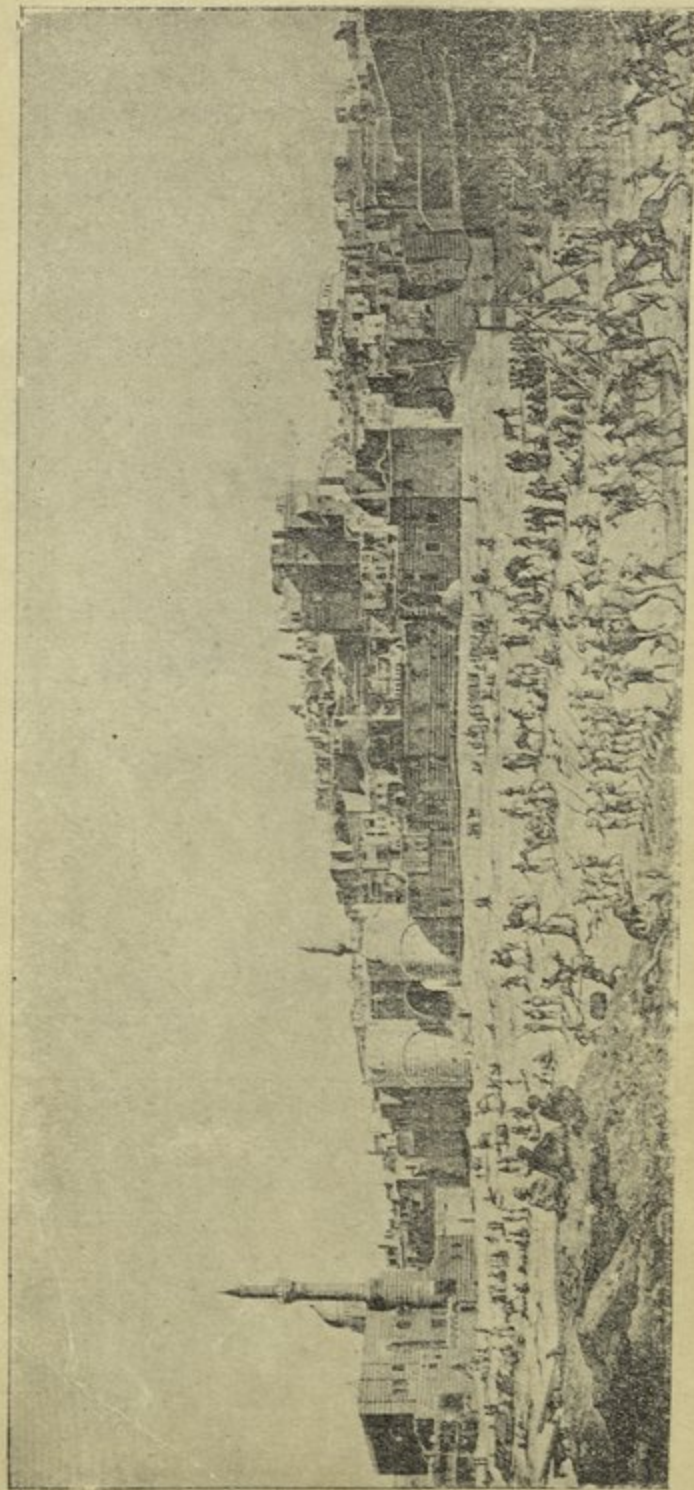
محمد على وهو الانتفاع بما يستحق من فرص والسعى لتنفيذ أغراضه
الشخصية أو المصرية

ثورة الجنود على الوالى أما المالىك فما كان أسوأ حظهم : لأنهم بعد انتصارهم فى دمنهور

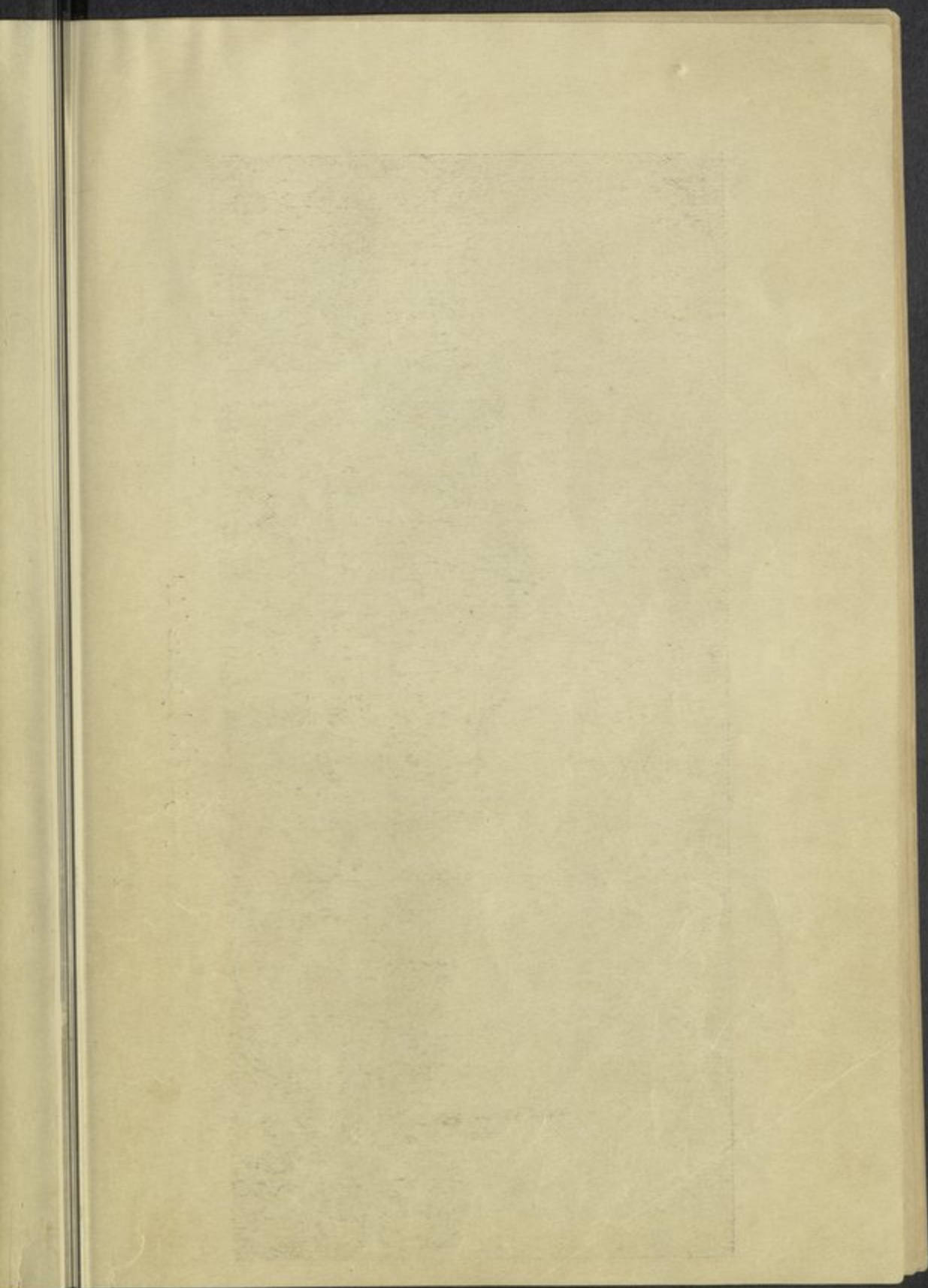
ذلك الانتصار الباهر بفضل البرديسى صدرت الأوامر بخلا الانكياز
عن مصر ومعهم الأتقى . وكان المالىك يعتمدون على مساعدة الانجائز
فلما رحلوا لم يأمنوا على أنفسهم فى إقليم البحيرة ، إذ كان حسين باشا قد
عين خورشيد باشا حاكماً على الاسكندرية فصاروا مهددين من خلفهم
بعد أن كانوا فى أمان . لذلك رحلوا إلى الصعيد وحاصروا المدينة وعاثوا
فساداً ونهبوا وهم سائرون . فأرسل اليهم خسرو الجنود ولكن هؤلاء
أبوا المسير حتى يعطوا رواتبهم المتأخرة . ولما لم يجابوا إلى طلباتهم تجمهروا
فصوب عليهم خسرو المدافع ، غير أن احمد باشا طاهر رئيس الحركة قاد
الأرتوود وهزم خسرو ففر هذا إلى دمياط وعين طاهر باشا والياً
مؤقتاً حتى يصدر الامر بتوليته . ولكن قامت قيامة الأنكشارية
وكانوا فى القاهرة مع قائدهم احمد باشا والى المدينة فطلبوا رواتبهم أيضاً
وقامت الحرب بينهم وبين الأرتوود فدخل اثنان من الأنكشارية وقتلوا
« طاهراً » وتولى احمد باشا الحكم وأرسل يستميل محمد على الذى أصبح
بعد موت « طاهر » قائد الأرتوود وكان عددهم نحواً من ٤٠٠٠

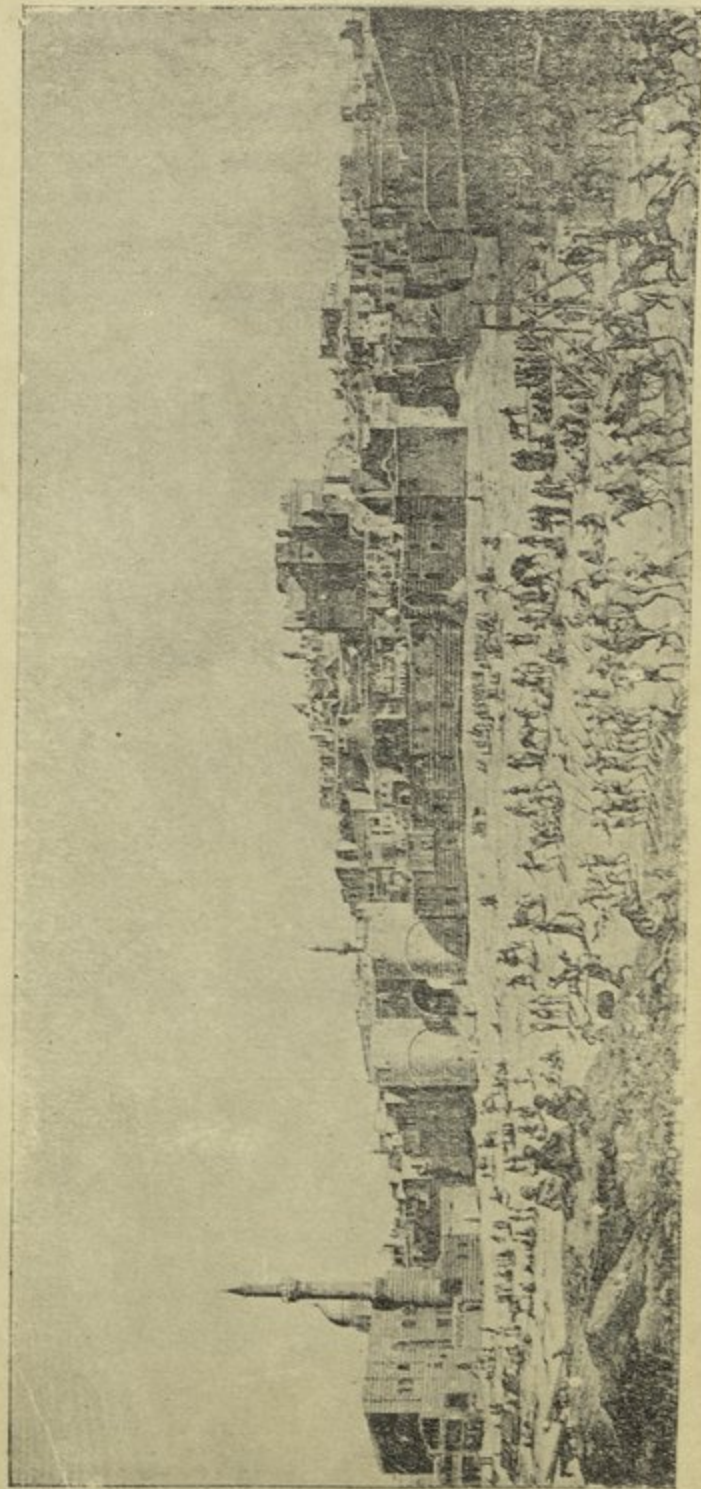
اتفاق محمد على ولكن محمد على لم يجبه إلى طلبه بل دعا عثمان بك البرديسى و ابراهيم
مع المالىك بك خضرا ، ودخل المالىك القاهرة بعد الاتفاق مع محمد على ، وتسلموا

مقاييد الأعمال و طردوا الأنكشارية و احمد باشا أصبح الأمر بأيديهم ،
ولكن كان كل شئ ، يعمل بإشارة محمد على ، فتقرب اليه الأعيان والمالىك



القلعة عند دخول الحملة الفرنسية





القلمة عند دخول الحملة الفرنسية

وا

مح

ال

ال

لي

ا

و

ال

ا

ت

ي

ع

و

ا

و

ا

و

ا

و

ا

و

والمشايخ. وسار البرديسي وقبض على خسرو واعتقله في القلعة. وبدأ محمد على والبرديسي يتحبيان الى الناس ففتحوا مخازن الغلال ووزعوا الصدقات على الفقراء. كل هذا والوالى الجديد على باشا الجزائرلى أو الطرابلسى بالاسكندرية يخشى الحضور الى القاهرة، ويكتب الممالك ليتفق معهم. وأخيراً سار إلى القاهرة ومعه عدد عظيم من الجنود ففطن الممالك لغرضه وترصدوه في الطريق واجبروه على الرجوع الى سوريا وقتلوه في الطريق. وبعد ذلك حضر الألفى الكبير من انجلترا نخشى البرديسي ومحمد على عاقبة اتفاه مع الحكومة الانجليزية. وكانت مصالحة الممالك تقضى عليهم إذ ذاك بالاتحاد، ولكن البرديسي كان واثقاً وثوقاً تاماً من محمد على فلم يهتم بذلك وعمل على تشتيت قوى الألفى الذى لم يسعه إلا الاختفاء

بعد ذلك قامت ضجة الالبانيين أو الأرمن وودوا طلبوا رواتبهم فاحالهم تغاب محمد على محمد على على الممالك إذ كان تاركا كل شىء في أيديهم ظاهرياً، ففرض البرديسي على الممالك ضرائب جديدة وأرسل رساله لجمعها فذعر الناس وقاموا صاخبين وسخط العلماء والمشايخ على تصرفات الممالك وثار الجنود عليهم. عند ذلك خاف محمد على أن يكيد له الممالك كما يكيد هو لهم فلم يجد مناصاً من كشف الحجاب واظهار نياته. فأرسل في مارس سنة ١٨٠٤ جنوداً لحصار البرديسي في منزله وآخرين لحصار ابراهيم بك، فما تنفس الصبح إلا والممالك قد رحلوا عن القاهرة، وبذلك تخلص محمد على من مشاركة الممالك له. ولم يبق بينه وبين غرضه النهائى إلا خطوة واحدة وهي تسلم مقاليد الحكم في يده

احتراس
محمد علي

ولكن ذلك الباشا الحذر رأى أن الفرصة غير سانحة . فأملت عليه سياسته الدقيقة أن يترث ، فعمد الى القلعة وفك أسر خسرو باشا . وبعمله هذا برهن أمام الشعب المصري انه لم تكن له أغراض شخصية من فعلته وانه انما قام بعمله خدمة المصاحبة المصرية . وأظهر كذلك ولاءه للسلطان وعدم تأمره مع المماليك على الباب العالي . وبذلك حسن محمد علي مركزه في نظر الباب العالي وفي نظر الأمة المصرية التي تعلمت أن توليه عطفها واحترامها

تولية

خورشيد باشا

ولكن حيلة محمد علي لم تنجح ، لأن أقرباء طاهر باشا ثاروا على خسرو وأزروه في قارب إلى رشيد ومنها الى القسطنطينية . واستعمل محمد علي الدهاء والصبر مرة ثانية فعين خورشيد باشا حاكم الاسكندرية واليا . فوصل خورشيد واشتبك محمد علي في وقائع ضد المماليك وأخذ يطارد في الصعيد ، وفي أثناء ذلك بلغه أن خورشيد استقدم جنداً من الشام يعرفون « بالدلاة » ليعاونوه ضد الارنوود ، ففقه محمد علي لغرض خورشيد وعاد إلى القاهرة . وكان « الدلاة » قد انتشروا في البلاد وفي المدينة يعيشون فساداً ، وأراد خورشيد طرد الالبانيين ومعهم محمد علي ولكن هؤلاء أبوا ، وأخيراً وصل الأمر بتولية محمد علي ولاية « جده » فابى محمد علي أولاً وامتنع عن الدخول في القلعة فنزل الوالى إلى بيت صديق لمحمد علي واليسه شاربات الحكم ، وعاد محمد علي إلى منزله نائراً الذهب في طريقه

نداء الشعب

بتولية

محمد علي

وبعد ذلك بثلاثة أيام كانت الجنود « الدلاة » قد أتت مخازى استنفزت غضب العلماء والأهالى فقام المشايخ والعلماء وتقابات الصنائع

في مايو ١٨٠٥ برياسة «السيد عمر مكرم» وساروا في موكب عظيم إلى منزل محمد علي وطلبوا عزل خورشيد باشا، فسألهم محمد علي عن يريدون توليته بدله، فقالوا أنهم يريدونه هو. وساروا نحو القلعة فابى خورشيد النزول وقال انه معين من قبل السلطان بخطة الشريف فلا ينزل عن كرسيه بأمر «الفلاحين» واستمر محصوراً في القلعة حتى حضر مرسوم السلطان بتولية محمد علي حكم مصر في يوايه سنة ١٨٠٥، فاذعن خورشيد للأمر.

وصل محمد علي إلى غرضه الأساسي ولكنه وجد نفسه في مركز لا يقل خطورة عن مركز سابقه. فكان أمامه المماليك في الصعيد يهددونه ويبدلون كل شيء في سبيل طرده من مصر، فلم يكتفوا بالكتابة إلى خورشيد باشا يعلمونه باستعدادهم لتعزيده ضد محمد علي، بل سعوا سعياً متواصلاً لدى ممثل انجلترا يطلبون مساعدة الحكومة الإنجليزية وحض السلطان على استدعاء محمد علي واعادتهم إلى مراكزهم. كذلك كانت أمامه مشكلة دفع رواتب جنوده المتأخرة. فكان احتياج محمد علي للمال عظيماً لمقاتلة المماليك ولإعطاء الجنود مرتباتهم. غير انه اتبع في ذلك سياسة حكيمة وهي انه اظهر لأصحابه من المشايخ والعلماء ضرورة جمع المال منعاً لتألب الجنود واستعداداً لهزيمة المماليك أعداء المصريين، وبفضل هذا الاتفاق في الغرض حصل محمد علي على الأموال اللازمة من غير أن يعرض نفسه لكره الشعب.

أما من جهة المماليك فقد استعملت الحكومة الإنجليزية سياسة الضغط على حكومة القسطنطينية حتى أرسلت عفواً عن المماليك وأسطولا عظيماً يحمل موسى باشا والياً جديداً على مصر ومرسوماً بنقل محمد علي

محاولة نقل
محمد علي
من مصر

إلى ولاية سالونيك. فتظاهر محمد على بالقبول ولكنه حرك المشايخ والعلماء
فكتبوا التماساً للسلطان ولقبطان الأسطول. وظل الأتلي يكتب ويرسل
الهدايا والقبطان يشدد على محمد على وجنوده بالخروج من مصر. إلى أن
دعا القبطان أمراء المماليك إليه وانتظر فلم يحضر أحد. وما لبث أن رأى
بناقب بصيرته ما عليه المماليك من تفرق الكلمة والشقاق إذ أبى البرديسي
أن يشترك مع الأتلي في الاستنجد بأنجلترا. فنزل القبطان عن رأيه
الأول وكتب يؤيد محمد على فأرسل محمد على الهدايا إلى السلطان مع
ابنه إبراهيم وكتب خطاباً يتعهد فيه بكل ما يطلبه الباب العالي فيدفع
٤٠٠٠ كيس « في كل كيس خمسة جنيهات مجيدة » كل سنة زيادة على
قيامه بالحج ونفقته. وثبت محمد على في ولاية مصر في نوفمبر سنة ١٨٠٦
وبتثبيته انقضى حكم تركيا لمصر مباشرة وأصبح أمر مصر بيد محمد على
غير أن الأتلي لم يقلع عن سياسة المناوأة فأرسل يستنجد بالحكومة
الإنجليزية التي وعدته في هذه المرة بأرسال حملة إنجليزية مكونة من
٦٠٠٠ جندي تعمل بالاشتراك مع المماليك. فظل الأتلي يترقب وصولها
عند دمنهور، ومحمد على يرسل ضده قوة بعد أخرى فكانت تنهزم في كل
مرة. وأخيراً مات البرديسي في نوفمبر سنة ١٨٠٦ ففرح محمد على كثيراً
وما لبث أن تضاعف سروره بموت الأتلي في يناير سنة ١٨٠٧، وأيقن أن
مصر قد أصبحت له فأخذ محمد على ينظر في إصلاح الأحوال في مصر
وصول الحملة وجمع من المال ما أمكنه جمعه من الأقباط والعلماء والتجار.

٤٠٠٠
جنيه

موت
البرديسي
والأتلي

ولم يكد محمد على يشرع في الإصلاح حتى دهمه خطر جديد وهو
« فرير » بلا شك أول صدمة قوية واجهته في أوائل حكمه. وذلك انه لما أعيت
الانجليزية بقيادة

انجلترا الحيل في تثبيت نفوذها في مصر بواسطة المالك عمدت إلى استعمال القوة، فأرسلت حملة بحرية ضد تركيا في سنة ١٨٠٧ بقيادة أمير البحر «دكورت» لترغم تركيا على التخلي عن مخالفتها مع نابليون وعلى الانضمام مع روسيا وانجلترا ضده. فلما لم تدعن لذلك أعلنت عليها روسيا الحرب ووقفت العمارة الانجليزية بالدرديل وأخذت الحكومة العثمانية تستعد للدفاع بفضل تعضيد «سبستيانى» سفير نابليون في القسطنطينية، فأعلنت تركيا الحرب وأقامت الاستحكامات ونصبت المدافع ودبت الحراسة في قلوب السكان فتطوع اشبان آلافا في خدمة الأسطول الجديد. فلما رأى الانجليز ما عليه البوغازات من المناعة انقلبوا على اعقابهم وباءت الحملة بالفشل بعد أن أصابها بعض العطب اثناء هروبها في مارس سنة ١٨٠٧ ولم ترض انجلترا أن تظهر بمظهر الفشل فأرسلت حملة بقيادة «فريزر» انهزام الحملة أمام الاسكندرية في ١٧ مارس سنة ١٨٠٧، وهذه هي الحملة التي كان قد ^{عند رشيد} وعد بها الأتقي من جانب الحكومة الانجليزية، ولو كان حيا لكان للحملة شأن غير شأنها. وأراد الانجليز أن يتشبهوا بالفرنسيين فرسوا عند الاسكندرية وسامت المدينة من غير مقاومة تذكر، ثم احتلت الحملة رشيد بسهولة فظن الانجليز انهم في «نزهة حربية»، وكان الوقت صيفا فانتشروا في رشيد وألقوا أسلحتهم وتفيثوا الظلال نائمين ناعمين. وانهم لس كذلك إذا بحاكم المدينة قد أمر فأطلقت عليهم النيران من النوافذ ومن فوق الجدران فبادت الفرقة جميعها وأرسلت الأسرى ورءوس القتلى للقاهرة تأييداً لخبر الانتصار.

موقف

وقد وصل خبر الحملة إلى محمد على وهو بأسير يحوط يحارب المالك محمد على

ويطاردهم، فخاف جانب الانجليز وتلكأ أولاً ولكن مالبت أن اتخذ الأبهة
 للسفر وترك العلماء يقومون بعقد الصباح ويحيييون الممالك إلى كل مطالبهم
 على شرط انهم يحاربون العدو المهاجم، وأخذ محمد علي يعد العدة للمقاومة
 ويبدى همته المعهودة فشرع ينظم قواته بمشورة صديقه «دروقي» ممثل
 فرنسا الذي ما فتى من أول ظهور محمد علي يرشده إلى الطريق الحكيم
 والسياسة الرشيدة التي تمكنه من الظهور على أعدائه. فدرّب الجنود على
 طرق الحرب الحديثة وبنى الاستحكامات، وفي اثناء ذلك كان «فريزر»
 قد أرسل قوة كبيرة إلى رشيد على رأسها القائد «أستوارت» لينتقم لما
 أصابه من الهزيمة الأولى فلم تفلح وتقهقرت إلى الاسكندرية خوفاً من
 أن يصيبها ما أصاب سابقتها. ورأى «فريزر» انه ليس من الحزم أن
 يعرض جيشه لهزيمة بخائية فقطع سد بحيرة مريوط وأحيطت الاسكندرية
 بالماء الملح كما فعل «هاتشنسون» في حملة سنة ١٨٠١. وظل بالاسكندرية
 ينتظر مفاوضات ممالك الألفي الذين انتخبوا شاهين بك رئيساً لهم

وكان المنتظر أن يخبر «فريزر» الممالك ويدعوهم إلى الوفاء بعهودهم القديمة
 وهي القيام بالثورة في الداخل ليقع محمد علي بين نارين، ولو كان الألفي باقياً
 لتفاقم الخراب ولتعدر عليه توجيه عناية ضد العدو المهاجم من الخارج.
 ولكن ماذا كان ينتظر من الممالك الذين ترددوا والانجليز منتصرون،
 يقومون الآن والانجليز منهزمون؟ أثر الممالك في هذه المرة المصالحة
 القومية والمالية على الفائدة الشخصية وأخلدوا إلى السكينة بفضل اقناع
 العلماء لهم بأن قيامهم مع الانجليز مجلبة للشر وفيه خروج عن الدين، وعلى
 الخصوص أن الانجليز قوم متمسكون بشعائهم الدينية وليسوا كالفرنسيين

الممالك
 لا يتحركون
 لمساعدة
 انجلترا

لا يعرف لهم دين .

وبعد أن أمن محمد على جانب المالك واستألمهم اليه زالت هواجسه عقد الصلح وخافوه وخرج على رأس جيشه لمقابلة الانجليز ، فعجل هؤلاء بفتح الانجائز ومفاوضات الصلح فتم ذلك بتبادل الأسرى ، ورفض محمد على قبول فدية عن أسرى الانجليز فترك بذلك أثراً حسناً في نفوسهم لاسيما وأنه أحسن معاملة الأسرى وعنى بالجرحى منهم فاحضر الأطباء والمرضى لمدادوتهم والسهر على راحتهم . فأكسبه كل ذلك رضا الحكومة الانجليزية عنه . ولم يكن ليعرف هذه الأساليب الحديثة لولا ارشاد « دروقي » له . وقد أقلمت العمارة الانجليزية على عجل في سبتمبر سنة ١٨٠٧ بسبب عقد صلح « تيلست » بين روسيا و نابليون إذ أصبحت إنجلترا بعد ذلك *Tilsit* بغير دها أمام نابليون .

بذلك تغلب محمد على على اعظم خطر تهدده إلى ذلك الوقت في حياته الجديدة ، وزاد حبه في قلوب المصريين فأصبح في نظرهم بطل مصر وحامي دمارها ووصل اسم محمد على لأول مرة إلى مسامع أوروبا وصار بذلك من عوامل السياسة في العالم الخارجي . اما الباب العالي فدارى حسده وانعم على محمد على بحكومة السواحل المصرية وقد كانت إلى ذلك الوقت تحت حكم السلطان مباشرة وفي دائرة نفوذ القبطان باشا ولما انتهى محمد على من أمر الانجليز التفت إلى تنظيم الأحوال ، فكان من أول اعماله أنه سلم مقاليد المصالح المصرية لأشخاص اكفاء من ذوى قرباه او من بلده « قوله » مثل محمد بك الدفتر دار وحسن باشا الأرثوودى . ثم ارسل فجاءته أسرته واولاده ، وعينهم في المناصب العالية

واعتمد عليهم فنجح نجاحا عظيما . واستمر محمد علي للنهية ينق بأولاده

والدرجته واحفاده ويولهم عطفه واهتمامه فحاط بذلك ملكه بسياس من الأمانة

وتبادل المحبة إلى درجة غير معهودة ، ولم يصب ملكه لشيء من منافسات

الأسر التي هي آفة دول الشرق . ولما اصلحت الأمور بحسن تدبيره

مالت إليه قلوب المصريين ، وقبلوا دفع الضرائب المنظمة لما رأوه من ثمرة

الإصلاح وخاصة في وسائل الدفاع عن القطر ، إذ أمر بتحسين السواحل

عند دمياط ورشيد وبنى قير والاسكندرية والسويس ، وأصبحت الأمور

لأول مرة في أيدي حكومة قوية مصالحة

الفصل الثالث

فخضة محل على^(١)

خصائص
ولد القرن التاسع عشر والثورة الفرنسية تتمخض عن نابليون ابنها القرن التاسع عشر
الحقيقي الذي البت أن سوى حسابها وأخذ أمرها بيده وواصل السعي وهو أحد أفراد الشعب حتى تسنم مركزا ظهر به على الذين توارثوا تالد ملكهم عن ملوك متوجة تستمد عظمتها وأحكامها من لدن الله تعالى. هنا بلغت الثورة الفرنسية المتجسمة في شخص نابليون سمت النجاح فنفذ نورها الى قلوب الشعوب في كل صقع ووصل أثرها الى أعماق النفوس من حيث تدري ولا تدري ، حتى اذا ما تألبت الرؤوس المتوجة على نابليون وتمكنت في النهاية من أسره وكسر جنده وانظمت له انباجت الحقيقة

(١) ولد محمد علي في ميناء «قوله» بالباينا (وهي الآن تابعة لليونان) في سنة ١١٨٢ هجرية (سنة ١٧٦٩ افرنجية) وقد ولد في نفس هذه السنة «نابليون بونابرت» «وولنجتون» وكانت هذه المصادفة موضع فخر محمد علي على الدوام. كان الابن الوحيد الذي عاش لأبيه ابراهيم اغا رئيس حرس المدينة فأغدق عليه النعمة ومات أبواه ولم يخلفا له شيئا فكفله عمه طوسون ومات فأواه الشوريجي حاكم البلد ورباه مع ولده وزوجه من إحدى قريباته، واشتغل محمد علي بالتجارة وتعرف بفرنسي اسمه الميسو «ليون» وقد أرسلته حكومة الباب العالي ضابطا على فرقة «قوله» التي سارت لمحاربة الفرنسيين بمصر في سنة ١٨٠١ وأعجب به رؤساء الجيش عند الرحمانية فغاز رتبة «قائد» ثم بقي بمصر بعد خروج الحملة مع الجنود الالبانية وقام لخدمه خسرو باشا وأنعم عليه برتبة «رئيس فيلق» .

وبقيت روح الثورة عاملة بين الأمم التي استتضات بهديها على الرغم من
مصادرة الملوك لها في حلفهم المقدس وغيره. وما كان في مقدور حكومات
أوروبا أن تسلط على نفوس الناس أو تطفىء نور العرفان أو تمحو حقائق
التاريخ من صدور مستوعبيها، لذلك سرعان ما قامت الثورات في العالم
المتمددين وسرعان ما تشخص نابليون الملك في غيره من الأفراد — وزراء
وجنود ما جرت في عروق آبائهم أو أجدادهم قطرة من دماء الملوك من
قبل واسكنهم وصلوا الى ما وصلوا اليه من سلطان أو ملك بمحض جهادهم
ونبوغهم. مثل هؤلاء «برنادوت» في السويد و«مورا» في إيطاليا و«كابودستريا»
في اليونان «ولوين نابليون» في فرنسا «ومحمد علي» في مصر.

محمد علي
ونابليون
فلولا الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر ما وطىء محمد
على أرض مصر، والحملة الفرنسية من بنات أفكار الثورة قامت بها الثورة
في شخص نابليون، فلما اضطر الى الرجوع الى فرنسا ولحقته الحملة الفرنسية
بأكملها بعد أن فتحت عهداً جديداً لمصر ظهر محمد علي على مسرح السياسة
بمصر يريد تنفيذ سياسة نابليون في الشرق بكل حذافيرها. ولقد نجح
محمد علي حيث أخفق نابليون، فقد ساد الشرق بطريقه: طريق البحر
الاحمر وطريق نهر الفرات، وجمع العالم العربي تحت لوائه وكون دولة تمتد
من جزيرة «كريت» غرباً الى «خليج العجم» شرقاً ومن «جبال طوروس»
شمالاً الى بلاد «سنار» جنوباً، وحاصرت جنوده حصن «عكا» فالتفت أن
سقطت في يده وانتصر على جيوش السلطان في مواقع عدة. كان محمد علي
على أثرها قاب قوسين أو أدنى من عرش الخلافة

نعم نال محمد علي من لدن الدول ما نال نابليون نفسه فقد تحداها حتى تحالفت عليه في آخر الأمر وأرغمته على الخضوع ولكن نظر محمد علي إلى الظروف المحيطة به بعين الحكمة والحذر فأبدل اخفاقه نصراً وثبت لنفسه بموافقة الدول عرشاً لا يزال يتوارثه نسله إلى الآن ، أما نابليون فقد خسر بأخفاقه في «واترلو» كل شيء . ليست الموازنة بين نابليون ومحمد علي ضرباً من المبالغة أو المغالطة ، فأوجه الشبه بينهما كثيرة على الرغم من اختلاف أحوالهما اختلافاً بيننا - والمطلع على المستندات الرسمية السياسية التي دارت بين ممثلي الدول ومحمد علي أثناء أزمة سنة ١٨٤٠ يرى أن كثيراً من سياسة ذلك العصر وهم ينصحون أو يهددون محمد علي لم يترددوا في الإشارة إلى العواقب الوخيمة التي قد تعود عليه كما عادت على نابليون من قبل من جراء مخالفته للدول . أما السحر الشخصي الذي كان لأسم نابليون على محمد علي فقد كان عظيماً حتى جعله يدرس تاريخ نابليون درساً وافياً من أوثق الكتب الفرنسية ، وظل نابليون القدوة والمثل الأعلى الذي اختاره محمد علي لنفسه طول حياته وبقى للنهاية ينتفع بخدمات رجال نابليون والذين اضطهدتهم الحكومة الفرنسية عقب عودة الملكية فولوا وجوههم شطر مصر ومصلحتها العظيم

وكما أن نابليون بونابرت الإيطالي جاء فرنسا وهو جندي وما لبث أن أصبح ملكاً مطلقاً بإرادة الشعب الفرنسي ، كذلك جاء محمد علي الألباني إلى مصر وما هي إلا خمس سنوات حتى أصبح صاحب الأمر بإرادة الشعب المصري فمحمد علي مصري مهما قيل انه الباني أو تركي كما أن نابليون فرنسي مهما قيل انه «قورسقي» أو إيطالي . لم يدخل محمد علي مصر فاتحاً ولم

يملكها بحد السيف انما حقه مستمد من أهل مصر الذين نادوا به حاكما
وأجبروا الباب العالي على الموافقة . لقد كان يوم ٥ صفر سنة ١٢٢٠
(مايو سنة ١٨٠٥) بمصر من الأيام التاريخية المشهودة ففيه وضعت مصر
بيدها الحجر الأساسي لحريتها اذ تمثلت طوائف مصر المختلفة من علماء
ومشايخ وصناع وتجار وساروا في شوارع القاهرة إلى منزل محمد علي
بهيئة مظاهرة وطنية عظمى منادين بسقوط « العثماني » ومعلنين رغبتهم
في تولية محمد علي . وعلى ذلك يكون محمد علي لفظة الشعب المصري
وكلته الفاصلة في موضوع الحكم في مصر

منذ ذلك التاريخ أصبح محمد علي بطل مصر الفذ وما زال يعمل على
أحياء وتقوية مصر زراعيا وحربيا وصناعيا وتجاريا حتى أصبحت في ربع
قرن بفضل جهوده المهرقولة أول دولة في الشرق كله وثالث دولة بحرية
في البحر الأبيض المتوسط بعد إنجلترا وفرنسا . ولم يكن ليتيسر له ذلك
لولا غريزة « التاجر » التي كانت تحرك قواه النفسية والتي قادته الى هذا
النجاح المنقطع النظير .

« حرب الوهايين »

لم يشأ الباب العالي أن يترك محمد علي بمصر هادى البال يعمل على
تقويتها واصلاحها على الرغم مما بذله في تخليص مصر من المفسدين والأعداء .
خلالما رحلت الحملة الانجليزية أتت المكاتبات اليه بضرورة الاستعداد
لمقاتلة الوهايين . وكانت داخلية بلاد الدولة في حالة من الفوضى شديدة
والحكومة عاجزة عن صيانة البلاد من الخراب وسبب ذلك رغبة

ضعف الباب
العالي

السلطان سليم الثالث في إدخال النظام الحديث في الجندية في سنة ١٨٠٨،
فقام العلماء وساعدوا الأنكشارية على الثورة فحربوا ودمروا واسبندوا
بالأحكام بعد أن عزلوا السلطان سليم وولوا السلطان مصطفى الرابع،
ثم ما لبث أن انتصر أعداء الأنكشارية وعزلوا السلطان مصطفى ثم
قتلوه بعد بضعة أشهر وولوا السلطان محمود الثاني، وكان شاباً حازماً فصالح
الأنكشارية وترقب الفرص للقضاء عليهم. ولكن هذه الحوادث تركت
الجيش في حالة سيئة من الضعف، فلما رأى السلطان أن قوة الوهابين
أخذت تستفحل وان جنوده تنهزم في كل مرة كتب إلى محمد علي ليجهز
حملة على الوهابين (١٨٠٩) وكانوا قد استولوا على الحرمين وقطعوا طريق
الحج وهدموا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ودانت لهم العرب بأكملها.
ظهر في أوائل القرن الثامن عشر رجل في بلاد «نجد» اسمه محمد بن
عبد الوهاب من علماء الحنابلة وكان يظهر شذوذاً في كثير من المسائل
الدينية ومخالفة للسنة وأئمة الدين. وخلاصة مذهبه أن التوسل لله بالنبي
شرك وإن زيارة قبر النبي وقبور الأنبياء جميعهم والأولياء شرك. ومن
دعوته التقشف وعدم التزين بالحرير والذهب وهدم المزارات وقباب
الأولياء لأنها من مظاهر الوثنية، ومنع الناس من التدخين والمسكرات.
ومن دعوته أيضاً التمسك بالقرآن الكريم. ولما ذاع أمره دعاه محمد بن
سعود أمير «الدرعية» إلى المكث في بلاده فدخلها محمد بن عبد
الوهاب في سنة ١٧٤٦ وقد وعده بن سعود بحمايته ممن يناوئه، فنشر دعوته
وأخذ نفوذه السياسي يزداد بانضمام بن سعود إليه، فكتب مشايخ القبائل
ودعاهم إلى مذهبه والآن قاتلهم برجال «الدرعية» جهادا في سبيل الحق فأذعن

١٨٠٩

منشأ

الوهابيين

له كثير وحضروا اليه في الدرعية حتى زاد عدد أنصاره زيادة يخشى منها. ثم تزوج بن سعود بابنة محمد بن عبد الوهاب فولدت عبد العزيز الذي خلف أباه سنة ١٧٦٥ وكان شجاعا فدانت له شبه جزيرة العرب، وكانت الدولة إذ ذاك مشغولة بمشاكلها الخارجية في أوروبا وفي مصر. ومات في ١٨٠٢ وخلفه ابنه سعود فهدد الدولة في العراق والشام وهزم جنودها وفتح مكة والمدينة واستولى على ما فيها من التحف، ونشر دعوته بهمة وكتب إلى السلطان سليم يأمره بعدم إرسال المحمل السنوي إلى البقاع المقدسة بالزمر والطبول قائلا أن ذلك ليس من الدين في شيء. هذه كانت الحال لما وصل إلى محمد علي في سنة ١٨٠٩ أمر تجهيز الحملة

لتجهيز محمد علي
للحملة
ولما وصل الأمر بذلك محمد علي جهده في تجريد العسكر وتجهيز المؤن والذخائر، ولما كان على يقين من أن السفر بطريق البر إلى بلاد العرب صعب للغاية يهلك فيه كثير من الجند ودواب النقل صمم على أن يتخذ طريق البحر الأحمر إلى ينبع وجده. ولم يضعف هذا العزم حين لم يجد سفناً له لنقل الجند بل أصدر أوامره إلى سائر جهات القطر المصري بجمع الخشب وما يلزم لأنشاء خمسة عشر سفينة كبيرة وطلب إلى الاستانة إرسال الخشب كذلك. ولما تم قطع اشجار النبق والتوت احضرت إلى ساحل بولاق حيث انشأ هناك دار صناعة مكونة من معامل مختلفة اجتمع فيها التجارون والشارون والحدادون وغيرهم. وبعد اعداد اجزاء السفينة كانت تحمل على الجمال إلى السويس وهناك يضم الصناع اجزاءها ويهيئونها للنزول إلى البحر، وانجز عمل اربع سفن كبيرة من النوع المعروف «بالأبريق» واحد عشر من النوع المعروف

«بالشونة». وسافر محمد على بنفسه الى السويس ليباشر العمل بهمة المعهودة
 وكان الجيش المراد نقله يبلغ ٢٠٠٠ من الفرسان يسرون عن طريق القصير
 و ٦٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من المدفعية يسرون بحراً بطريق السويس.
 وفي اثناء اشتغال محمد على ورجاله في تجهيز الحملة كان المماليك يمتنون تحفز المماليك
 أنفسهم بقرب القضاء على سلطان محمد على في مصر. وكان محمد على قد
 صالح مماليك الالفي وأقطع شاهين بك الجزيرة والفيوم وأسكنه قصر فخماً
 بالجزيرة، فجاء المماليك من الصعيد وخيموا بالجزيرة وبلغ محمد على وهو
 بالسويس خبر استعدادهم للحرب فوصل القاهرة بسرعة خوفاً من ترابص
 المماليك به في الطريق ونزل اليهم هو وابنه طوسون وبعض جنوده، وكان
 شاهين الالفي قد انضم الى ابراهيم وحنث في تعهده لمحمد على فأخذ محمد
 على يستميل اليه بعض أمراء المماليك فانحاز اليه كثيرون وما زال محمد
 على وابنه طوسون يستميلانهم حتى انحاز اليه اكثرهم وانهزم الباقون
 وتشتتوا في الصعيد.

ولما عاد محمد على الى مصر ومعه أمراء المماليك الذين تغلب عليهم
 بليته ومهارته السياسية، رأى أن المسألة بينه وبينهم أصبحت مسألة حياة
 أو موت وأنه يستحيل عليه أن يأمن جانب المماليك ما داموا يعيشون
 فوق أرض مصر وتحت سماءها. فصمم على أن يغدر بهم لإراحة لنفسه ولمصر
 من شر هذه الطائفة الباغية فدبر لهم مكيدة القاعة الشهيرة في أول مارس
 سنة ١٨١١. وكان قد دعا الأمراء والأعيان بملايسهم الرسمية للاحتفال
 بتقليد ابنه طوسون رياسة الحملة فجاءوا الى القاعة وقابلهم محمد على بلطف
 وترحاب، ثم سار الموكب وخرج بعض الجنود والمشايخ والأعيان وبينما

أمراء المماليك ساءرون في الطريق الجبلى إلى «باب العزب» أقفلت الأبواب وأطلقت النيران من كل صوب على صفوف المماليك المحصورين بين الأسوار في ذلك الطريق الضيق فقصدهم النيران واستمر الضرب حتى فنوا أجمعهم إلا اثنين. ثم سرى الخبر إلى الخارج فقتل عدد عظيم في القاهرة وفي الأقاليم بأمر الباشا.

مكيدة
المماليك في
نظر التاريخ
وكانت هذه الحادثة في يوم الجمعة واستمر التقتيل إلى يوم السبت فخرج محمد على وابنه طوسون وأوقفا النهب والسلب والقتل وأخذ محمد على أبناء المماليك وأدخلهم في خدمته وأجرى الأرزاق على نسائهم وزوجهن لضباط جيشه وأتباعه، وقتل من المماليك في هذه المكيدة نحو ألف منهم أربع مائة من الأمراء والباقيون من الأتباع. وبذلك قضى محمد على في يوم وليلة على طائفة طالما أراد الباب العالي القضاء عليها فأعياء الأمر. قضى محمد على عليهم ولكن لا في ميادين الحرب حيث يجتنى الشرف ويبرد القتل. قضى عليهم خلسة وغدراً وهم في ضيافته لا فرق بين مجرم منهم وبرى، خلف في تاريخه نقطة سوداء إذا بررت وجودها الضرورات السياسية فلا يمكن أن تمحو عارها أبداً. ولكن يجب قبل الحكم - الذي لا سبيل للعواطف إليه - أن نفهم الزمن والحوال والبيئة التي كان يعيش فيها محمد على ونذكر سوابق الطائفة المجنى عليها فلا نحكم عليه بمقتضى تقاليد الأمم الراقية

١٨٨

لقد أعيأ أمر المماليك محمد على إلى درجة لم تدع له مجالاً للتريث فما كانت الحروب تفنيهم ولا المعاهدات تربطهم ولا الوفاق يستميلهم ولا المعروف يأسرهم. بل كلما هزمهم محمد على وشتت شملهم عادوا فرفعوا

رؤسهم وتجمعوا صفوفًا ضده متحينين الفرصة للقضاء عليه . وباليتمهم مع ذلك كانوا متصامين بالبلاد صلة تعود عليها بفائدة حيوية بل كانت مصالح الممالك الحقيقية متنافرة مع مصالحة البلاد والاهالي . وكأنهم في مصر حكومة داخل حكومة أخرى تتعارض اغراضها في كل شيء .

رأى محمد على أن مصر لا يمكنها أن تخطو خطوة واحدة في سبيل الرقي والأصلاح إلا إذا أمنت كل خطر من جانب هذه الطائفة التي لم يكن لها أثر في مصر إلا الخراب والدمار والحروب والمجاعات ، ورأى أنه عما قريب سيرسل جنده وقواده الى بلاد العرب ضد الوهابيين وأنه سيصبح من غير جيش قوى يستند عليه ويرهب الممالك به فاذا تألب الممالك ضده ربما عجز عن قهرهم وضاعت جهوده سدى . ورأى أيضاً أن الحكمة السياسية تقضى بأن تسوى الحكومة مشاكلها الداخلية قبل أن تقوم لأي حرب أجنبية خوفاً من أن ينال العدو منها في الخارج . وان الفظائع الهائلة التي ارتكبت في عهد حكم الأرهاب بفرنسا في وقت الثورة لم يكن لها مبرر الا تهديد العدو لحدود فرنسا من الخارج . لهذه الأسباب دبر محمد على مكيدته ضد قوم لوبقوا في مرا كزهم لقضوا على عدد من الأشخاص بقدر ما سفاك محمد على من قطرات دمائهم (١) .

ولما خلاص محمد على من شر الممالك أصدر أمره لتسيير الحملة ضد الوهابيين بقيادة ابنه طوسون وكان قد فاوز الشريف غالب في « ينبع » الى بلاد واتفق معه بشأن محاربة الوهابيين فنزلت الحملة في « ينبع » وقابلها السكان بالفرح ، وكان طوسون في ذلك الوقت شاباً يناهز الثامنة عشرة من عمره

(١) راجع تقرير دكتور بورنج : أوراق برلمانية مجلد نمرة ٢١ سنة ١٨٤٠

شجاعاً مقداماً فاعتمد على قوة جنوده وفوقاتهم في العدد والأساحة وسار
تواً إلى المدينة فتقابل مع جموع الوهابيين عند بلدة « بدر » الشهيرة بانتصار
النبي صلى الله عليه وسلم فانكسر الوهابيون أولاً، ولكنهم عادوا وحصنوا
أماكنهم وأقاموا المتاريس وأظهروا شجاعة وشدة بأس عظيمين، فتقهقر
طوسون إلى « ينبع » بعد أن فقد عدداً عظيماً من جنوده. وقد ساعد على
هذه الخسائر أن الجنود المصرية كانت تحارب في ميدان وعرة المسالك
كثير المكامن، فكان من المتعذر معرفة طرق المسير فيه وأدى ذلك إلى
هلاك الكثيرين. زد على ذلك عدم صداقة العرب للمصريين وترفع طوسون
عن استمالهم مما جعلهم يفتكون بالجنود المصرية أينما رأوهم

ولما علم محمد على بهزيمة المصريين أسرع فأرسل المدد فخرج طوسون
ثانياً قاصداً « المدينة » وكان قد استمال إليه القبائل القاطنة بينها وبين « ينبع » فلم
يلق معارضة، وحاصر « المدينة » ولم يستعمل المدافع احتراماً للحجرة النبوية،
وأخيراً أحدث ثغرة في السور وخلص « المدينة » من الوهابيين ثم قصد إلى
« جده » فاستولى عليها وتابع السير إلى « مكة » ففرت منها حامية الوهابيين
ودخلها طوسون وطير خبر هذه الانتصارات إلى القاهرة والقسطنطينية
ففرح والده كثيراً، ثم احتلت الجنود المصرية « الطائف » من غير مقاومة أيضاً
فاغتاز سعود من هذا التقدم وخاف عاقبة ذلك، وكان قد تحصن في الداخل
فخرج هو وجميع جيوشه بعد أن نظمها، وبدأ يناوش الجنود المصرية حتى
قابلهم في واقعة « تربة » شرق الطائف فكسروهم واستولى على عدة تقط
حصينة، وكان طوسون في المدينة فكتب لوالده بأرسال المدد.

فحضر محمد على بنفسه مع المدد عن طريق السويس ومعه عابدين بك

انتصار
طوسون
أولاً ثم
انهزامة

حضور محمد
على إلى ميدان
القتال

أحد ضباطه وأول ما عمله هو القبض على الشريف غالب لشكوك كانت تحوم حوله لأنه ترك المدينة ومكة تقع في أيدي الوهابيين من أول الأمر وبقي هو في جدة، وكان مذنباً بين المصريين والوهابيين يتقرب ليرى أيهما يفوز بالنصر ليتبعه فأرسلوه إلى مصر عن طريق القصير ثم أرسل ابنه طوسون ليستولى على «تربة» وأرسل عابدين بك ليتتبع الوهابيين الذين يهاجمون القوافل، ولكن معرفة العرب بمفاوز الجبال جعلتهم يفلتون وأصبح عابدين في حالة حرجة إذ كان العرب يكمنون له ولجنوده في الطريق فرجع إلى «الطائف»

كذلك لم يقو طوسون على أخذ «تربة» فتقهقر إلى «الطائف» وأخيراً انتصار
خرج محمد علي من «المدينة» وقصد «الطائف» ومعه قليل من الجنود، فلما علم
الوهابيون بقدومه فروا من وجهه وأخذ محمد علي يدبر خطة يقضي بها على
الوهابيين، وكان زعيمهم سعود قد مات سنة ١٨١٤ وخلفه عبد الله وكان
قائداً ضعيفاً هزم محمد علي الوهابيين عند «تربة» وكان لا تنتصاره هذا أثر
عظيم إذ انضم إليه كثيرون فلم يبق أمامه إلا «الدرعية». ولكنه علم في ذلك
الوقت بهروب نابليون من جزيرة «البا» واضطراب العالم على أثر ذلك
وجاءه خبر تمرد أحد ضباطه المدعول طيف باشا فأسرع بالعودة إلى مصر
فوصلها عن طريق القصير في ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ وهو اليوم الذي انهزم
فيه نابليون في موقعة «واترلو»

أما طوسون فإنه احتل الدرعية وأرسل عبد الله يطلب الصلح فعقد
معه طوسون صلحاً جعله وقفاً على مصادقة محمد علي. ولكن عبد الله لم يلب طوسون إلى
يذعن لكل الشروط التي جاءت فيه فهدده محمد علي بأنه إن لم يقبل أرسل مصر

اليه جيشاً جراراً يخرب بلاده ثم وصلت إلى طوسون أخبار مبالغ فيها عن
خرج مركز والده بنصر فغادر بلاد العرب لنجدة والده وترك مسألة
الوهابيين معلقة.

أما «لطيف باشا» فكان قد أرسله محمد علي لينبغ الباب العالي خبر
فتح مكة والمدينة، فلما عاد إلى مصر فكر في اغتصاب ولاية مصر من
محمد علي بمساعدة بعض رجال الباب العالي، فلما علم نائب محمد علي أو «الكتخدا»
بعزمه حاصره في بيته ودعا مجلساً مخصوصاً حكم عليه بالاعدام في ١٨١٣
أثناء غياب محمد علي. وعلى أثر عودة محمد علي قام الجند ضد محاولة إدخال
النظام الجديد. وهذا ما حدا بطوسون إلى الحضور إلى مصر حيث
استقبل استقبالاً فخماً، ولكنه مات بالطاعون بقصره قرب رشيد وهو
في مقتبل عمره (١٨١٦). وكان محبوباً عند الجند والأهالي على السواء،
وكان يفضل أبوهُ علي باقي إخوته حتى علي إبراهيم أكبر أولاده لأنه كان
يرى في طوسون صورة مصغرة من نفسه فحزن عليه حزناً شديداً.

أما الوهابيون ففرحوا بموت طوسون وظنوا أن مشروع الحملة قد
فشل، ولكن محمد علي عين ابنه إبراهيم لقيادة حملة جديدة، فسافر إبراهيم
الوهابيين في سبتمبر سنة ١٨١٦ ووصل ينبع قاصداً المدينة المنورة. ولما علم عبد الله
بن سعود بقدوم إبراهيم جمع أربعين ألف مقاتل، ولكن كانت أسلحتهم
من الطراز القديمة وجل اعتمادهم على السيوف والرماح والبنادق ذوات
الفتائل فلم يقووا على الوقوف أمام نيران المصريين المتواصلة، فانهزمت
طلائع جيش عبد الله وتحصن في «عنز» . أما إبراهيم فحاصر «الرس»
وتغلب عليها وعلى «عنز» وأخيراً حاصر «الدرعية» في أبريل سنة ١٨١٨

قيام إبراهيم

لمقاتلة

حتى سلمت في سبتمبر التالي . ثم عمل على تدميرها . وأرسل عبد الله إلى القاهرة في نوفمبر ١٨١٨ ونزل عند اسماعيل بن محمد علي ولما قابله الباشا في قصره بشبرا وقف له وأجلسه بجواره وبادره قائلا « ما هذه المطاولة ؟ فقال ان الحرب سجال . قال وكيف وجدت ولدى ابراهيم . قال ما قصر وبذل المهمة . وقد فعلنا نحن فعلته حتى كان ما قدره الله . قال سأشفع فيك عند الخليفة إن شاء الله . قال ما قدر سوف يكون » ثم أرسل إلى القسطنطينية فاعدم فيها . وعاد ابراهيم بعد أن أخضع العرب عن طريق القصير في سنة ١٨١٩ فازدانت له البلاد سبعة أيام بلياليها .

لا شك في أن هذه الحروب التي قام بها محمد علي بناء على أمر السلطان نتاج حرب استنفدت كثيراً من ثروة مصر في وقت لم تقو فيه على دفع مرتبات الوهابيين الجنود فما بالك بالأفناق على الحروب . فليس بعجيب إذن ان يلجأ محمد وقيمتها على الى استعمال الشدة المتناهية في جمع الأموال ، وليس أدل على شدته من فعلته مع « المعلم غالى » رئيس حسابات الحكومة فقدا متجن وكيل الباشا حساباته فوجد عجزاً يبلغ ٦٠٠٠ كيس فامر به بدفعها حالا . ووشى به جماعة من منافسية الأقباط وقالوا بل ان العجز ٣٠٠٠٠ كيس فتشدد « كتحدا » في عقابه وأخيراً أخلى سبيله بشفاعه طيب محمد علي بعد دفع ١٤٠٠٠ كيس مثل هذه الأعمال لم يكن يلجأ إليها محمد علي لولا شدة حاجته الى المعدات الحربية والبحرية التي كان يقتضيها حرب طال ست سنوات في بلاد بعيدة وعرة غير مأمونة الجانب لا تنبت إلا القتاد والشوك ، في حين لم يلق محمد علي من السلطان ولا من وزرائه ولا من أى ناحية أخرى

سوى مصر معونة مالية فقط. هنا يتساءل الإنسان لماذا زج محمد على بنفسه في مشروع مثل هذا غرمه أكثر من غنمه؟ الجواب على ذلك سهل لمن يعرف حدة نظر محمد على السياسي فإنه قد اتخذ من هذه المسألة مبرراً له في تكوين قوة برية وعسكرية ما كان ليوفق لأنشائها لولا قيامه بحملته على الوهابيين.

ومن حسن طالعہ ان كانت حملة الوهابية برية بحرية فكما تطلبت جيشاً كذلك تطلبت أسطولاً، ولا ننسى أن الحملة قد قضت على عدد عظيم من الجنود الألبانيين الذين وقفوا حجرة عثرة أمام محمد على في سبيل اصلاح الجيش على النسق الفرنسي، فقد تمكن بعد انتهاء الحملة من الشروع في الإصلاح. أما نتيجة الحملة فلا شك في أن انتصار محمد على قد جعل العالم الاسلامي يلجج بذكره وحمده لأنه هو الذي امن حجاج بيت الله وخدم الاسلام والملة خدمة قصرت عن انجازها هم السلاطين والولاة.

لذلك بدأ الناس في الشرق يعرفون لمحمد على قدره ويخصونه بالمهابة والاحترام والثقة وخاصة بعد أن أصبح ابنه حاكماً على بلاد العرب والمتصرف في مكة والمدينة. أما السلطان فلم يسعه بالطبع إلا الاعتراف لمحمد على وولده ابراهيم بجميل الصنع فارسل لهما الهدايا ومنح ابراهيم لقب الوزارة. ولكن السلطان كان على الرغم من ذلك يحسد محمد على على انتصاره في ميدان أخفق هو فيه.

ثم ما لبث محمد على أن نجح في عمل آخر أخفق فيه السلطان أيضاً ألا وهو انشاء جيش على النظام الفرنسي الحديث.

« تكوين الجيش المصرى »

وما دام التاريخ يحفظ بين سطوره ابطال الحروب ويخصهم بالاجلال والأعظام وما دامت الجيوش دليل قوة الأمم وعنوان بأسها وأداة رفعتها، فسوف نرى الناس فى كل آن ومكان يعجبون ابطال الحروب « كرمسيس » « والاسكندر » « وقيصر » « ونايليون » « ومحمد على » . واذا كانت الجيوش النظامية فى الممالك قد ساعدت الملوك والأمم على الرقى فانها فى مصر قد كان لها الفضل فى إدخال كل معالم المدنية فى البلاد.

ولقد رأى محمد على منذ أن كان يقاتل الفرنسيين فى « الرحمانية » فضل النظم الحربية الحديثه وعرف قيمتها عند مساعدة « دروقى » له أثناء حملة « فريزر » على مصر سنة ١٨٠٧ ، فصمم محمد على على أن يسمى فى إدخال النظام الجديد متى سنحت فرصة لذلك.

المحاولة

والأول ما فكر جدياً فى ذلك كان فى يونيه سنة ١٨١٥ اذ قضى مدة فى اقناع قواد جنوده بأفضلية الطرق الأوروبية ولكن لما يأت ذلك بثمرة نفذ مشروعه على غير رغبة الجنود بدأ بتمرين احدى الفرق وكان على رأسها ولده اسماعيل فتحزب الجنود والقواد واففقوا على الغدر بمحمد على . ولكن نعى اليه خبر الدسياسة بواسطة عابدين بك فاحتاط لنفسه ، ولما طاش سهم المتآمرين انقضوا على البلد وانتشروا للسلب والنهب كما دت بهم ، ولكن محمد على فطن لاغراضهم الحقيقية فأوصل الاساحة لتجار خان الخليلي « والفحامين » فقاوموا الجنود ولم تمس هذه الاحياء بسوء . أما الغوردية والسكرية النخ فنهبت متاجرها . ولما رأى محمد على هذه المقاومة استمال الجنود اليه فوزع عليهم الرواتب والأقوات وترك مشروع تدريبهم على النظام الأوروبى منتظراً

فرصة أخرى . وسلك محمد على مسلكاً جديداً ينطوى على العدل والحكمة ،
ذلك بأنه في صبيحة اليوم التالى للنهب دعا السيد محمد المحروقي رئيس تجار
العاصمة وأمره بأعداد قوائم بأسماء التجار وتقدير خسائرهم فوزع محمد على
عليهم عوض هذه الخسائر وبلغت بضعة الآف من الجنيهات صرفت بعد
أداء اليمين الشرعية فاطمان الناس واستبشروا بهذا العصر الجديد

وأما معارضة الجنود الألبانية للإصلاح فلم يجد محمد على صعوبة
عظيمة في التغلب عليها لأنه بعد أن استمالهم أرسلهم إلى ميادين الحرب
في بلاد العرب وفي سنار . وبذلك تخلص من جزء عظيم منهم . ولو كان
محمد على اتكل على الألبانيين لحرمه السلطان تجنيد جنوده من بلادهم
كما حرم على المالك شراء الرقيق من « جورجيا » وأوربا فكان من
حسن طالع محمد على أن الألبانيين قاوموا النظام الجديد ولم يقبلوه لأنهم
لو قبلوه لكونوا نواة الجيش الجديد لمحمد على ولقلاوا آماله في النجاح .

ولما عاد إبراهيم من حرب الوهابيين منتصباً فكر محمد على في إنشاء
وجهود النظام العسكري الجديد وصادف عزمه هذا حضور « الكولنيل سيف »
المعروف بسليمان باشا إلى القاهرة فعهد إليه محمد على في مهمة تكوين الجيش
الجديد . وكان « سيف » قد ترقى من جندي صغير في خدمة الجيش الفرنسي
مدة الأمبراطورية الأولى إلى أن أصبح في سنة ١٨١٥ « ياوراً » أو أميناً
للمشير « ناي » ، ولما انهزم نابليون في « واترلو » إشتغل « سيف » بالتجارة
ثم قدم إلى محمد على بخطاب توصية جميل فاخبره محمد على فوجد منه
أخلص واكفاً خادماً له في جيشه الجديد واليه يرجع الفضل الأكبر في رفع
ذكر مصر في عهد محمد على :

المحاولة الثانية

وجهود

الكولونل

« سيف »

ولما بدأ « سيف » في القاهرة بتدريب بعض أولاد المماليك الذين كانوا في خدمة محمد علي ومعهم إبراهيم ليكون مثلاً حسناً للطاعة والاستفادة بدأت تظهر علامات التذمر وأخذ العلماء يغرون الشبان بعدم الانصياع لتعاليم الفرنجة، فرأى محمد علي أن خير طريقة لتلافي الفتنة وتنفيذ أغراضه هي أن يرسل « سيف » ومعه أربعائة أو أكثر من أولاد المماليك إلى اسوان فيدربهم هناك بعيدين عن الدسائس والقبال والقييل . وكان معظم هؤلاء المماليك من الشبان النابهين اختارهم محمد علي ليكونوا بعد أن يتخرجوا نواة الجيش الجديد، فاشتغل « سيف » بتعليمهم ثلاث سنوات باثناً نفوسهم روح الاخلاق العسكرية الشريفة ضارباً لهم الأمثال دائماً بسيرة نابليون وسير قواده

وقد وجد « سيف » صعوبة في أول الأمر في تعويدهم الصمت أثناء الحركات والرزانة، فنقم منه بعضهم وصمموا على قتله فجمعهم في الصباح وانتهرهم قائلاً : ان الشرف العسكري يأتي أن يعمد الجندي إلى طرق النذالة والجبن وإذا أراد احدهم الانتقام فأمامه المبارزة والقتال . وصوب عليه بعضهم بنادقهم في حادثة أخرى فأخطأوه فاعمل فيهم السوط لأنهم لم يصيبوا الرمي وأمرهم بتعمير البنادق وتصويبها نحوه ووقف أمامهم ثابت الجأش فبهتوا عاراً وخجلاً ورموا بنادقهم وتقدموا إليه صارخين باكين يدلبون العفو . فعفا عنهم باسماء ، وبعدها لم يقع منهم ما يخل بالنظام العسكري وامتثلوا أوامر رئيسهم وأحبوه حباً جماً ثم ما لبث « سيف » أن اعتنق الديانة الإسلامية ظاهرياً إذ الحقيقة انه كان من الذين لا يهتمون بأمر الدين فزاد الأخلاص والولاء بينه وبين عساكره ولم تمض

سنوات ثلاث حتى صار عوا احسن الجنود الأوروبية نظماً، ماوشجاعة وأقداماً.

كذلك تمكن « سيف » من الرقي السريع حتى وصل إلى أرقى مراتب الجيش

ولما وجد الضباط الأكفاء فكر محمد على في جمع الجنود ، ولم

استخدام السودانيين يشاء أن يكون بينهم أتراك أو البانيون لئلا يحرضوهم على الفتنة ، فعمد

في الجيش إلى السودانيين — وكان قد أرسل حملته إلى السودان — وجمع منهم

ثلاثين ألفاً وأتى بهم إلى « بنى عدى » قرب منفالوط ووكل أمرهم إلى

الضباط الذين تخرجوا في أسوان فبدؤوا بتدريبهم في سنة ١٨٢٣ وما

انتهت سنة ١٨٢٤ إلا وكانوا قد تدربوا على التمرينات العسكرية اللازمة

فاستعان بهم محمد على وأرسل منهم فرقا إلى بلاد العرب وأخرى إلى

السودان وأرسل الباقي إلى حرب « الموره »

ولسكن النتيجة لم تكن سارة أبداً ، لأن أبناء السودان لم يألفوا

المعيشة الشاقة بعيدين عن أوطانهم ولم تقو أجسامهم الهزيلة على احتمال

المصريين البرودة فرض منهم عدد عظيم وأخيراً بدت له فكرة تكوين جيش

من جنود مصرية . وظهر في أول الأمر أن هذه المحاولة مملوءة خطراً ،

وأبان له بعض أتباعه والمقربين أنه أن الزراعة في البلاد لا بد أن تتأثر

من عواقب التجنيد ، وإن التجنيد بين قوم لم يألفوا الجندية منذ زمن

بعيد سيكون أمراً مكروهاً جداً الكراهية لا يمكن أن يثمر بشيء

وأى نفع كان يرجي من قوم كانت مهمة من يحكمهم منذ الأزمان

الغابرة أن يلصقهم بالأرض وفلاحهم يرهقهم بالضرائب فيحرقون

ويزرعون ليقووا على دفع هذه الضرائب ، وهكذا كانت قواهم دائماً

منهوكة في الزراعة التي هي منبع ثروة الأهالي وسبب مذلتهم في آن

واحد . غير ان محمد علي لم يأبه لهذه الاعتراضات ونفذ مشروعه فقامت بعض حركات عداوية في الأقاليم ضده وأخذ الفلاح النشيط يهاجر إلى بلاد العرب وبلاد الشام تهرباً من نظام الجندية . غير ان المصريين ما لبثوا أن رحبوا بالنظام الجديد ايما ترحيب بعد ما وجدوه فيه من تأنيق في ملبس الجندي وسعة عيشة ومكافأة المجتهد منهم وانهزلة الجندي بين غيره من الناس . ثم لما زادت أعمال الجيش أدخل محمد علي في خدمته غير سليمان بك من ضباط الفرنسيين فعاونوه على فتح مدارس حربية على النظام الفرنسي ففتحت مدرسة « المشاة » بمياط ومدرسة « الموسيقى » بالقلعة ومدرسة « الفرسان » بالجيزة ومدرسة « المدفعية » في طره ، فتعلم الطلبة فيها اللغات والرياضة والرسم والهندسة والحركات العسكرية حتى صار عوا احسن جيوش اوربا بشهادة اكبر الضباط الأجانب ، وكان اصلاح الجيش سبب الاهتمام بأمر التعليم والصناعة والصحة في البلاد . وسنعود إلى ذلك في محله .

أما مصر فجنت من وراء الجيش فوائد أدبية ووطنية لا تقدر . أثر تكوين فالجيش كان عنوان وحدتها إذ القبطى والمسلم فيه سواء ، وأوجد في الجيش في البلاد روحاً نظامية قوية كانت مفقودة منذ قرون ، وقد آمن البلاد من المصريين مصائب الفئات الظالمة الفوضوية التي كانت تعيش في الأرض فساداً . ولا ننسى الروح الوطنية التي تولدت على أثر تكوين الجيش إذ أخذ المصريون يتنافسون في مضمار النبوغ وودبت في قلوبهم روح الثقة والفخر : الثقة بقوة أبنائهم وجنودهم والفخر بكفاءتهم وانتصاراتهم ، ومن ذا الذي يمكنه أن يخلص في الزود عن بلاده وفي محاربة عدوها ويحرص الحرص

كله على حريتها واستقلالها أكثر من أبناء البلاد أنفسهم الذين أظهروا من خلائق الصبر واحتمال المشاق ما جعلهم من أحسن الجنود .

يألها من فكرة علوية أتت بوافر الخير على مصر ، فإن انتظام الفلاح في سلك الجندية بعد ان عاش قروناً طويلة مستعبداً في كسر يته اخرجه من حالة الذل والجبن والمسكنة التي كان فيها وعلمه دروساً جديدة في النظام واداء الواجب . علمه الشرف الحقيقي والتنافس في سبيله . علمه ان يضحي بنفسه في ميادين القتال من اجل مصر ومليكها واستقلالها . وكان محمد على يقضى معظم وقته ملازماً للجيش الجديد ويشارك في رحلاته وتدريبه وتمريته . ولقد قصَّ محمد على مرة على معتمد انجلترا ما شاهده من بوادر الرقي الأدبي في جيشه الجديد فقال « جرح ذراع احد الجنود جرحاً بالغاً اثناء التمرين العسكري بسبب اهمال الجندي الواقف خلفه فلما طلب اليه الضابط ان يخرج من الصف ليضمده جرحه ابى وقال الآن وقد اصبحت جندياً فانا اليوم غيرى بالأمس ، ومادامت تجرى في عروقي نقطة دم واحدة سأبقى في مكاني حتى انتهى من واجب اليوم »

هذه الروح الجديدة تفسر الانتصارات الباهرة التي صادفها الجيش المصري الجديد في ميادين القتال سواء أكان في أوربا أم في أفريقيا أم في آسيا . واستمر محمد على يعنى بالجيش عناية خاصة ، إذ اصبحت في نظره مسألة حيوية في الدرجة الأولى من الأهمية ، لأنه علم أن اعتماده على حسن نيات الباب العالي نحوه امر محفوف بالخطر وانه مهما قدم للباب العالي من الخدمات فلن يرحمه السلطان إذا ضعفت قوته أو قلت شوكرته يوماً ما

« حملة السودان »

ماذا يعمل محمد على وقد عاد إليه جنوده الألبانيون منتصرين من بلاد العرب؟ أيسمح لهم بالأقامة بالقاهرة فيعيدوا عهد الثورات والنهب والسلب ويشغلوه عن اصلاحاته وربما وقفوا أمام مشروع النظام الجديد موقفهم في سنة ١٨١٥؟ لا شك في أن حسن السياسة كان يئلى عليه أن يرسل هؤلاء الأرنؤؤد إلى ميدان جديد فيستريح من مشاغباتهم ويقلل من عددهم. ففكر في تجهيز حملة السودان ليطارد بقايا المالك الذين استوطنوا اقليمه ونقله ونصبوا انفسهم فيه حكاماً وكان الناس يتحدثون في ذلك الوقت ومحمد على يعتقد أيضاً أن في السودان مناجم غنية بالذهب والمعادن النفيسة، فظن الألبانيون ان هناك غنماً عظيماً يجب ألا يفلت من أيديهم فرحبوا بفكرة محمد على.

هذا، وإن حاجة محمد على الى استيراد جنود جديدة لجيشه الجديد جعلته يطمع في فتح الأصقاع المجاورة لمصر كي يتمكن من ادماج شبان تلك البلاد في جيشه. وأراد محمد على من هذه الحملة أن يبسط سلطانه وأسواقه على سواحل البحر الأحمر الغربية بعد أن انتشر نفوذه وتجارته في شبه جزيرة العرب إلى خليج العجم. ولا تنس اهتمام محمد على وعنايته بأمر النيل، فقد كان من اغراض الحملة استكشاف منابع النيل والسير فيه إلى أقصى نقطة ممكنة، ولذلك أرسل محمد على مع الحملة تشبهاً بنابليون علماء فرنسيين ليدوا ابنه اسماعيل قائد الحملة بالمعلومات الجغرافية والخاصة بالتعدين

وبدأ محمد علي في اعداد الحملة في يونيه سنة ١٨٢٠ فجمع ٣٠٠٠ من المشاة و ٢٥٠٠ من الفرسان ومدفعية مركبة من ١٢ مدفعا وعين على رأس الحملة اسماعيل ثالث انجاليه ومعه محمد بك الدفتردار صهره . وكانت هذه أول مهمة حرية ذات شأن عهد فيها إلى اسماعيل . إلا أن واجبه لم يكن من الصعوبة كواجب أخيه طوسون من قبل لأن قبائل السودان كانت همجية لا تعرف استعمال الأسلحة النارية على العكس من العرب الذين كانوا في اتصال ببلاد الهند والعجم فكانت أسلحتهم على ذلك أرقى كثيراً من أسلحة السودانيين .

سير الحملة ولما كانت قبائل السودان من المسلمين السنيين لاشيعة ولا وهاييين أصحب محمد علي الحملة عدداً من العلماء ليبرروا أغراض الحملة في نظر المسلمين وليراقبوا أعمال الجيش حتى لا يخرج الجنود عن الحدود المشروعة في الدين ، واضطر محمد علي إلى اصدار فتوى تحل له فتح هذه البلاد الإسلامية حتى لا يحصل غضاظة أو تدمير بين جنوده المسلمين . وسارت الحملة عن طريق النيل في ٣٠٠٠ قارب ، وأما الفرنسيان فساروا على جانب النيل ووصلت الحملة إلى « دنقلة » فذعر المماليك وفروا إلى أقاصى السودان ، ولم تجتمع لهم قوة بعد ذلك . ثم سارت الحملة جنوباً ولقيت من قبيلة « الشقية » مقاومة عظيمة إذ اجتمع منهم ثلاثون ألفاً على الخيول والهجن وغلت في رؤوسهم روح الحرب فاستماتوا في الدفاع عن أوطانهم ولكنهم انهزموا انهزاما حاسما في « كورتى » ثم سقطت « شندى » « وبربر » . وبعد ذلك سارت الحملة إلى « سنار » فخضعت بدون كبير مقاومة .

وفي سبتمبر سنة ١٨٢١ حضر ابراهيم باشا على رأس حملة كحملة أخيه

اسماعيل باشا . وحضر أيضا محمد بك الدفتردار صهر الباشا على رأس حملة لفتح الكردفان ، فسار ابراهيم في النيل الأبيض الى تلؤل « دنكا » عند مصب نهر سوباط . أما اسماعيل فسار شرقا في النيل الأزرق الى حدود الحبشة ومعه العالم الطبيعي « كيار » الفرنسي ليفتش عن مناجم للذهب فلم ينجح الا قليلا ، وأخيراً عاد اسماعيل الى « سنار » . وكان ابراهيم قد مرض ورجع بعد أن وصلت جنوده الى « دنكا » . ثم كتب اسماعيل يطلب الرجوع إلى مصر بعد أن بقي سنتين في السودان ، ولكنه قبل ان يصل اليه امر الرجوع احرقه الملك « نمر » صاحب « شندى » عقب اهانة له ، خلف صهره الدفتردار الذي فتح الكردفان ان لا بد من قتل ٢٠٠٠٠ وبالفعل نفذ يمينه واكثر في القتل . وفي سنة ١٨٢٤ رجع الدفتردار وعين « رستم بك » حاكما على السودان ومعه جنود نظامية .

ويمكننا ان نقول ان حملة السودان لم تحقق مطامع الباشا إلا قليلا ، لأن الذهب لم يوجد ولأن تجارة القواقل كانت قليلة وتستلزم عناية لا تثمر إلا بعد سنين ، ولأن الجنود السود لم تنفعه في شيء ، بل اضطر إلى ان يستبدل بهم المصريين . ولكن يقابل ذلك ان أصبح البحر الأبيض لبحيرة مصرية ، وضمن محمد على لمصر مراقبة موارد ماء النيل وفتح مجالا واسعا للمصريين للتجارة والاستثمار ، وأسس محمد على مدينة الخرطوم في سنة ١٨٢٢ واتخذها « الدفتردار بك » قاعدة له فوسعها وبنى فيها داراً للصناعة وبنى البيوت وانشأ السفن وأصبحت الخرطوم محطة لتجارة السودان

ومن اشهر الولاة الذين عينهم محمد على في السودان « خورشيد »

باشا الذي قام فيه بأصلاحات جمة . وما فتىء محمد على يرسل البعثات
العالمية للبحث عن المعادن من آن إلى آخر . وفي آخر الأمر سافر هو
بنفسه وهو في سن السبعين في ١٨٣٨ متكبداً مشاق عظيمة ، فأصبح
الادارة ووصل إلى حدود الحبشة وأعلن الغاء تجارة الرقيق لا اعتقاداً
منه بضرورة ذلك بل إرضاءً للدول الأوربية ولكسب مودة إنجلترا .
ولشدة اهتمامه بالاستكشافات الجغرافية ارسل احد ضباطه « اليوزباشي
سليم افندي » على رأس حملة فصار في النيل في ثلاث رحلات مختلفة ، وغاية
ما وصل اليه حدود نهر سوباط عند خط عرض درجة $4\frac{1}{2}$ شمالاً

Revised

الفصل الرابع

اصلاحات محمد علي الداخلية

إن أول واجب يتحتم القيام به على أية حكومة متنورة نصبت نفسها لحكم مصر هو حفظ الأراضي المزروعة. والتي يمكن زرعها من عبث الصحراء المحيطة بالبلاط ولا يتأتى ذلك الا باستتباب الأمن وتنشيط الفلاحة المستديمة وتوافر طرق الري وتوزيع الماء بالطرق التي تكفل سلامة المحصول.

وانا لرى أن الماء والرمل عنصران أولهما مرادف للحياة وثانيهما للهلاك يتنازعان دائماً السيادة في وادي النيل فتمت قبضت على زمام الأمور حكومة ضعيفة ألقيت الرمل قد انتصر على الماء وفاقه، وما هي الا سنوات قليلة حتى يحف الزرع ويقل الحرث والنسل وتكثر المجاعات وتعم الأوبئة والأمراض، وما عهد مصر أيام حكم المماليك ببعيد. قال نابليون «لوبيقى المماليك في مصر عشرين سنة أخرى لفقدت مصر ثلث أراضيها الزراعية». أما محمد علي ففطن الى أهمية الزراعة في مصر وعلى ذلك منحها كل عنايته والتفاته

كانت الأراضي في مصر منذ عصور الفراعنة ملكاً للملك والمملوك نظام الاراضى
ثم الذين كانوا يولونها للاتباع واستمر الحال كذلك مدة الفتح العربي ومدة
سلطين المماليك الى وقت الفتح العثمانى فقرر السلطان سليم الفاتح بعد ان
في مصر

مسح أراضي القطر أن الأرض ملك للسلطان وإن ملاً كما قد أصبحوا
كانهم مستأجرون تعود أملاكهم إلى بيت المال بعد موتهم إلا إذا
اشترى ورثتهم الأرض من جديد بدفع مبلغ يقدر . ولذلك عين
السلطان موظفًا خاصًا باسم « الدفتردار » لتسجيل جميع أراضي
القرى، وفرض على كل فدان من الأرض مساحته ٤٠٠ قسبة مربعة
ضريبة معلومة

غير أنه ما لبث المالك أن أصبحوا هم المتصرفين في كل شيء ولم يكن
« النظام » لموظفي السلطان أقل سيطرة عليهم فعجزت الحكومة عن تحصيل المال
المطلوب ولجأت إلى طريقة « الالتزام » وهذه الطريقة هي أن يتكفل من
يشاء من أكابر البلاد بتحصيل الخراج من الحكومة في بلدة واحدة أو
في عدة بلاد بالمزايدة أو بالاتفاق فيدفع للخرينة مال سنة واحدة معجلاً،
وبعد قرار كبير أمراء مصر أو « شيخ البلاد » كان يعطى للملتزم وثيقة
الالتزام التي تخول له حق التصرف في القرى لأنه كان يحمل محل الحكومة
في السيادة على دائرة الالتزام . وكان الملتزم يتصرف في جباية الأموال
كيف شاء .

وكانت أراضي الملتزم قسمين قسماً يستغله الفلاح ويتوارثه الابن عن
أبيه ويدفع عنه ضريبة وإيجاراً وقسماً يعرف بأرض « الوسية » وهو خاص
بالملتزم يزرعها الفلاح لحساب الملتزم . وكان الالتزام في بداية الأمر يعطى
لمدة محدودة ، ولكن آل الأمر إلى إعطائه لآخر العمر . وإذا مات الملتزم
ورثه في ملك أرضه أبناؤه أو من يوصى لهم . فإذا لم يكن له وارث رجعت
أراضيها إلى بيت المال . وعلى أي حال كان للوارث أو الموصى له أن يطلب

ترخيصاً بالالتزام بعد دفع مبلغ يعين .

وكان المالك يملك جزءاً عظيماً من الأرض والمتمزمون

يقرب من ٦٠٠٠ يملكون جزءاً آخر وأما الباقي فكان موقوفاً على المساجد

والاعمال الخيرية ويعرف بالآوقاف

اراضى

الوقف

وأراضى الوقف هي التي لا يجوز فيها التصرف بالبيع . وكانت معفاة

من الضرائب فزادت زيادة عظيمة في أيام المالك . وسبب ذلك اضطراب

الأمن وخوف اصحاب الأملاك من عبث العابثين بها بعد وفاتهم ووصل

الحال إلى أن خيف أن تصبح أراضى مصر كلها موقوفة فاشتترطت

الحكومة أن لا يتم وقف إلا باقرار الحكومة وأصبحت هذه الاراضى

الواسعة في يد كبار العلماء يستغلونها كما لو كانت املاكهم الخاصة

أما محمد على فقد أحدث انقلاباً هاماً في تملك الأراضى فنقل اليه

خطة محمد على

أولاً حقوق المتمزين ثم الغى الالتزام نهائياً معتمداً على أن الأرض للحاكم

الزراعية

ولكنه منحهم من بيت المال راتباً سنوياً مساوياً تقريباً لقيمة دخلهم

والعقارية

السنوى . وكان قد أخذ منهم قبل ذلك بياناً عن ايراداتهم فقللوا قيمتها

بقدر الامكان . أما أراضى « الوسية » التي ظهر أحقية تملك اصحابها لها

فتركها . وعلى العموم ضم محمد على اراضى « الوسية » بالصعيد لقيام المتمزين

بشورة ضده وترك اراضى « الوسية » بالوجه البحرى لأصحابها . أما أراضى

الآوقاف فإنه احترمها من حيث المبدأ فقط . واما عملياً فإنه عزل العلماء

والمشايخ الذين كانوا نظاراً عليها وعين نفسه ناظراً على كل تلك الاراضى

وأخذ على نفسه تنفيذ الشعائر الدينية التي تتطلبها هذه الآوقاف وعين

للمشايخ رواتب سنوية . أما العقار الموقوف والحدائق فلم يتعرض لها .

محمد على مكان الملتزم وزرع الأطنان على الفلاحين فاعطى كل فلاح
الى خمسة أفدنة وترك لمشايخ القرى قسماً يبلغ $\frac{1}{4}$ من مجموع
القرية وذلك لقيامهم بضيافة عمال الحكومة . وكان الفلاح يزرع
الأرض بصفته مستأجراً ويسقط حقه في فلاحها اذا عجز عن دفع الخراج ،
ورتب لهم محمد على أجوراً من جنس المحصول وأمدم بالآلات والمواشى
والماء للرى . وكان المأمور يحدد المساحات الخاصة بزرع المحصولات المختلفة
وإذا نضج المحصول اشترته منه الحكومة بالثمن الذي تحدده ثم تأخذ
منه قيمة الضريبة وتدفع له الباقي .

فوائد هذه
الخطوة .

ويظهر ان هذا النظام كان الوحيد الذى يمكن أن يؤدي إلى ثروة
اقتصادية في البلد يعتمد عليها الباشا في اصلاحاته العظيمة ، لانه بذلك
تمكن من تحسين طرق الزراعة ومراقبة الفلاح وتزويده بالنصائح اللازمة
وامدادته بالآلات ، وأمكن ادخال المحصولات الجديدة كالنيلة والدخان
والقطن والتيل^(١) . ولو ترك الفلاح وحده مع ما هو معروف عنه من
المحافظة على القديم والكسل والاعتماد على القضاء ، والقدر خسرت الزراعة
شيئاً كثيراً . كذلك لو كان تركه يبيع محصوله لأخفق في السوق ولا يشتره
الاجنبى بثمن بخس . أما محمد على فأمكنه أن يبيع هذه المحصولات في
الاسواق الاوربية فأحرز ربحاً وافراً لولاه ما وصل محمد على ولا وصلت

(١) أدخل محمد على ما لا يقل عن ٣٨٠٠٠ آله لرفع المياه واتخذ من تعدى
الضخراء ١٠٠٠٠٠ فدان في الوجه القبلى أضافها الى الاراضى المزروعة . هذا عدا
ما أقامه من القناطر وحفره من الترع والمصارف وأدخله من الاشجار وخاصة
شجرة التوت لتربية دودة القز . واهتم ابراهيم باشا بإنشاء الجنائن ونشر زراعة
الازهار والقواكه

مصر الى ما وصلت اليه من الرقي في عهده. غير انه يجب ألا ننسى ما جرّه هذا النظام من المصائب على الفلاح فقد كانت الحكومة تقدر المحصول تقديرًا قهريًا بشمن بخس ثم تبيعه له أحيانًا بشمن مرتفع بل ربما تعذر عليه الحصول على قوته في حين أن مخازن الحكومة غاصة بأنواع المحصولات. وكثيراً ما منح محمد علي كبار موظفيه في الجيش والادارة اقطاعات من الارض أصبحت لهم ملكاً خاصاً، وهي التي أطلق عليها «الابعديات» لبعدها عن الاراضي الزراعية المسكونة. ولاحتياجها للاعتناء والأصلاح قبل زراعتها تركت بدون أن تجي منها ضريبة.

هذه السياسة التي اتبعها محمد علي في الزراعة جرت معها نظام الاحتكار الاحتكارات فكما انه صار المزارع الوحيد أصبح التاجر الوحيد ثم الصانع الوحيد أيضاً وتشمل الاحتكارات جميع المحصولات التي كانت تشتريها الحكومة خاصة لنفسها من الفلاح. ولا يشمل هذا كل ما ينتجه الفلاح بل هناك محاصيل تركت للفلاح حرية بيعها. وأهم المحصولات التي احتكرها محمد علي القطن والارز والصمغ والنيله والافيون والسكر

وكان المورد الثالث لثروة محمد علي غير الارض والاحتكار من الضرائب. والضرائب، وأولها ضريبة الارض أو الخراج أو «الميرى» وكان الملتزمون يجمعون هذه الضريبة ويقسمونها ثلاثة أقسام: قسم للسلطان ويسمى «بالميرى» وقسم للكاشف ويعرف «بالكشوفية» وقسم للملتزم ويعرف «بالفائض». وكان الملتزمون يتعسفون في جمع هذه الضريبة وغيرها من الضرائب الاضافية. أما في عهد محمد علي فكانت جميع الاراضي ما عدا «الابعديات» تدفع المال للحكومة ويختلف قدره على حسب جودة الارض

من ٦٠ قرشا الى ٤٠ قرشا الى ٢٤ قرشا الفدان الواحد . ولضمان مالية الحكومة كانت القرى تتضامن في دفع ضرائبها حتى اذا عجزت قرية عن دفع قسطها دفع الباقي عليها جارتها وهكذا .

أما الضريبة المعروفة « بفرضة الروس » فكانت مفروضة على كل فرد مسلم أو قبطي بلغ سنه الثانية عشر، وتختلف بحسب ثروة الرجل فكانت تراوح بين ٥٠٠ قرش و ١٥٠ قرشا في السنة، وكانت الحكومة تجبي غير هذه عوائد المكوس وعوائد على الذبح وعلى السفن الخ^(١)

*
* *

ولما زادت محصولات البلاد غنى بالتجارة وقد وجد في مركز مصر الجغرافي الفد ما شجعه على العمل، وكانت الحالة التجارية في مصر وفي موانئ البحر الأبيض المتوسط على العموم في كساد وهبوط عظيمين بسبب انتقال الحركة التجارية الى موانئ ساحل المحيط الاطلانطيقي التي تتصل بأمريكا وبالشرق الأقصى وأصبحت الحال كذلك منذ أن ساح « فلهكود دجاما » حول رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ فتحوّلت التجارة من مصر ومن البحر

العناية
بالتجارة

(١) ملخص ميزانية تقريره لسنة ١٨٣٣ :

مجموع الإيرادات : ٦٢٧٧٨٧٥٠٠ فرنك

منها ٢٨١٢٥٠٠٠٠ » من ضريبة الخراج

» ١٦٥٠٠٠٠٠ » من احتكارات الحبوب الخ

» ٥٠٠٠٠٠٠٠ » مجموع المصروفات :

منها ١٥٠٠٠٠٠٠ » للقسطنطينية

» ١٥٠٠٠٠٠٠ » للجيش

» ١٠٥٠٠٠٠٠ » للأسطول

(راجع كتاب نظرة عامة في مصر لسكوت بك الجزء الثاني صحيفة ٢٠٨)

الاحمر وانضبت منابع الثروة التى كانت تفيض على مصر من الشرق —
تلك الثروة التى ظهرت آثارها فيما خلفته دولة المماليك الاولى فى مصر من
مختلف الآثار البديعة مما دعا الناس الى القول بأن مصر يومئذ كانت مهد
حكايات ألف ليلة وليلة

وأراد البرتغاليون فى ذلك الوقت ان يحولوا دون استعادة مصر
مركزها التجارى ففكر المستكشف البرتغالى الشهير «البوكرش» فى
مشروع شيطاني يقضى بتحويل مجرى النيل حتى يصب فى البحر الاحمر
لا الابيض المتوسط . وحاولت المماليك فى ذلك الوقت ارجاع مركز بلادهم
التجارى فخاربوا البرتغال فى البحر الاحمر فهزمهم البرتغاليون فى موقعة
«ديو» قرب «بمباي» سنة ١٥٠٩ وظلت مصر بعد ذلك ثلاثة قرون فى عوز
تجارى وتأخر اقتصادى وذلك مما جعل عهد العثمانيين من انكد عصور
التاريخ فى مصر

فلما تمت لمحمد على السيادة البحرية فى البحر الاحمر فكر جديا فى
إعادة طريق التجارة البرى بين الهند والشرق الاقصى وبين أوروبا . فطهر
البحر من لصومه وفتح العرب فى قلوب عرب الصحراء الشرقية فاصبحوا
ولا يجرءون أن يمسوا أحداً أو شيئاً بسوء . ثم أنشأ المواصلات بين مصر
والسويس على ظهور الجمال وشيد المنازل على طول الطريق لراحة السياح ،
ثم رأى ضرورة اتصال اسكندرية بالنيل فحفر أول قناة ذات شأن وهى قناة
المحمودية التى تصل اسكندرية بفرع رشيد وأصبح فى الامكان تسيير
السفن من القاهرة الى الاسكندرية مباشرة وأمر بأخذ المكوس مرة
واحدة فقط لا مرات متعددة كما كان يحصل فى البلاد التى تحت الادارة

العثمانية . وسهل الحركة بإنشاء محطات البريد والرسائل البرقية بين القاهرة
والاسكندرية

ثم لم يمض الا قليل حتى اخترعت البواخر فحدثت انقلابا في عالم
التجارة وظهرت رغبة انجلترا في أن تسهل مواصلاتها بأملها كلها الشاسعة
في الهند وتتبع في ذلك طريقا سريعا آمنا يقرب المسافة ، فلفت أنظار الشركة
الهندية الانجليزية طريق مصر البري فعمدت اليه أولا لنقل حقائب البريد
والمسافرين بفضل مساعي « توماس واجهورن » الذي أرسلته الشركة لدرس
المشروع فرأى من محمد علي أعظم مشجع له . وسارت أول باخرة للبريد
من « بمباي » الى « السويس » ومنها الى الاسكندرية برا ثم من
الاسكندرية الى مرسيليا بحرا ومنها الى انجلترا ، ولم يكن قطع هذا الطريق
يستغرق أكثر من شهر

وأخذت أهمية هذا الطريق تزداد على الرغم من التفكير في إنشاء
طريق آخر يمر بالبصرة والفرات وحلب . غير ان طريق السويس هو
الذي تغلب في النهاية وأخذت أهميته تزداد تدريجيا اذ ما لبثت التجارة
أن تحولت الى هذا الطريق فاضطر محمد علي الى إنشاء مصاحبة مستقلة
خاصة بالطريق البري وعقد اتفاقا تجاريا مع انجلترا تعهد فيه بنقل البريد
الانجليزي مقابل مبلغ خاص تدفعه الخزانة الانجليزية فزادت ثروة مصر
كثيرا بما كان يصرف داخلها من مصروفات نقل ومعيشة ومكوس
ورواتب موظفين . وظلت الفكرة ترقى حتى ختمت بفتح قناة السويس

سنة ١٨٦٩

وهذا المشروع باضافته الى فتوحات محمد علي والمجصولات التي كان

يتجر فيها قد فتح أمامه أبواب التجارة فربح أرباحاً وافرة وأصبح له في معظم الموانئ الشهيرة وكلاء ينظرون في مصالحه التجارية والسياسية. وكان ناظر التجارة والخارجية حاكماً ومتهرجاً أرمنى يدعى بوغوص بك يوسف الذى اخلص في خدمة محمد على اخلاً عظيماً فكان يثق فيه الباشا ويعهد اليه بدقائق مشروعاته السياسية.

لوازم التجارة
الآن أن التجارة لا تقوم إلا على شيئين أساسيين اسطول لحملها وحمايتها واسواق لتصريفها فيها. تلك سنة الامم التجارية من قديم الزمان لا مندوحة عن اتباعها لانها نتيجة طبيعية لمقدمات ثابتة. سار محمد على وفق هذا القياس المنطقي وعمل على الوصول الى هذين الغرضين فبدأ ببناء الاسطول أولاً عند بولاق كما ذكرنا عند الكلام على حملة الوهابيين، ثم لما اتسعت دائرة العمل اصالح النقص الطبيعي في ميناء الاسكندرية فأصبحت محطة تجارة مصر ومهد أسطولها العظيم. ولقد جاء تكوين الاسطول المصرى متأخراً وعلى أثر انتهاء حرب «المورة» التى قضت على أسطوله وجذبه مكون من خليط من السفن التى صنعت في الخارج واشتراها الباشا من «مرسيليه» و«ليفورن» و«تريسته» و«جنوه». فلما عادت الحملة المصرية من «المورة» سنة ١٨٢٧ فكر محمد على في تكوين أسطول من جديد فتم له ذلك بفضل جهود مهندس فرنسى كان صاحب معامل للسفن في «تولون» اسمه «سيريزى» فهو الذى عهد اليه الباشا في انشاء دار صناعة بحرية بالاسكندرية تبلغ مساحتها ٦٠ فدانا بواجهة على البحر يبلغ طولها نصف ميل وبها حوض يسع أكبر السفن وكان محمد على شديد الرغبة في أن يكون له اسطول يغنيه عن شراء

ما يلزمه من السفن من الخارج وأن يتم له ذلك بسرعة فوضع «سيريزى» مشروعه وشيد دار الصناعة البحرية حتى ضارعت الاسكندرية «تولون» وأدهشت كل من رآها من السياح

ثم بدأ «سيريزى» بتمرين البحارة على الاعمال المختلفة الخاصة بالسفن وانشائها وتسييرها. وفي يناير سنة ١٨٣٠ نزلت البحر أول سفينة من الأسطول الجديد. وكان كلما تعلم المصريون عملا من الاعمال استغنى عن العمال الأوربيين فلم يبق منهم الا عدد قليل. ثم جاء بعد «سيريزى» «موجل» المهندس الفرنسى الشهير فانجز أعمالا جديدة وأسس مدرسة الملاحة. وان ظهور الاسطول الجديد ودار الصناعة البحرية فى مدة أربع سنوات لدليل جديد على ما يمكن أن تنجزه النفس الطامحة إلى العلا اذا كان الشعور مصحوبا بالارادة والعمل. قال الدكتور «بورج» فى تقريره انه رأى الاسطول المصرى ورجاله وهو لا يختلف عن أى اسطول آخر الا فى الملبس الرسمى^(١)

ولما تم الاسطول تفرغ محمد على لأيجاد الاسواق اللازمة. ولا يتيسر ذلك الا بالهجوم والفتح، فاعد جيشه لهذا الغرض وبلغ عدده ما يقرب من ٢٠٠٠٠٠ جندي منهم ٤٠٠٠٠ من غير النظاميين وهذا عدد هائل بالنسبة الى مجموع سكان مصر وقتئذ الذى كان يبلغ من ٢٠٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠٠٠

(١) كان الاسطول يتركب من ٣٠ قطعة على كل منها ١٠٠ مدفع أو أكثر و ٧ قطع على كل منها ٦٠ مدفع. و ٣ بواخر. وعدد رجال الاسطول ١٨٠٠٠ منهم ٨٠٠ ضابط

غير ان للجيش مطالب وحاجات لا بد من القيام بها اذا كان الغرض
 من تأليف الجيش وطنياً اقتصادياً . رأى محمد على حاجة الجيش الى مدارس
 مختلفة لتخريج مختلف الضباط والى مستشفيات للمرضى والى معامل
 لتوريد ما يلزم من أسلحة ومؤن وذخيرة والى مصانع لامداد الجيش
 بما يحتاج اليه من أسلحة وملابس وأحذية وأغطية وأدوات مختلفة، ووجد
 في كل ذلك فرصة قد تعود بالنفع المادى والادبى اذا تولى هو تقديم ذلك
 كله فعات همته السماء الى مستوى آماله العظيمة . ورأى الباشا بناقب نظره
 ان الاعتماد على الاجانب لا يمكن أن يؤدى الى قوة حقيقية فاستعان بهم
 ريثما يتعلم الوطنيون العمل ثم استغنى عن الاجانب تدريجاً .

العناية
 بالتعليم

وقد أراد أن يكون للوطنيين كل مزايا الاجانب فأرسل البعثات العالمية
 والصناعية الى أوربا لتلقى فروع العلم والعمل المختلفة، وأرسلت البعثة الاولى في
 ١٨٢٦ وبلغ عدد أعضائها ٤٤ وأصبح ١١٤ في سنة ١٨٣٣ . ولما رجعت البعثات
 أعانت محمد على كثيراً في تأسيس مشروعاته العظيمة وانبرى أفرادها لخدمة
 محمد على في مصالحه المختلفة ولو انه لم يتقيد كثيراً باختصاصاتهم وبترتيبات
 المسيو « جومار » رئيس البعثات في فرنسا وأحد علماء حملة نابليون ، بل
 عين منهم كما اقتضته حاجته مما يدل على بساطته وعدم تثقيفه . واهتم بكل
 درجات التعليم أولى وثانوى وخاص وعال وأسس مدارس على النظام
 الحديث لكل هذه الانواع لأول مرة في البلاد ، وكان يساق اليها الطلبة
 كما يساقون الى الجيش قسراً على الرغم من ترغيب الباشا لهم بايوائه التلاميذ
 واطعامهم وما كان يقدمه لهم من الكسب والرواتب الشهرية . غير ان
 اساس اهتمامه بالتعليم لم يكن الرغبة الخالصة في تعميمه بين الاهالى بل

كانت المدارس في نظره جزءاً من نظام الجندية . وكان الطلبة يعاملون
 معاملة الجنود وادارة المدارس تبع الحربية ، فاهتم محمد علي بالمدارس ما بقيت
 حاجته للجيش فلما قل عدد الجيش بمقتضى «فرمان» سنة ١٨٤١ قل اهتمامه
 بالمدارس كذلك . وعلى كل حال أوجد اهتمامه بالتعليم حركة علمية جديدة
 ونهضت اللغة العربية بعد أن كادت تقتتها العامية فعربت الكتب
 في مختلف العلوم وألغى الاساندة المصريون محاضراتهم بالعربية وأخرجت
 المطبعة الاميرية بيولاقي عدداً عظيماً من المؤلفات العربية وأصدر الباشا
 صحيفة «الوقائع الرسمية» باللغتين العربية والفرنسية . وكانت أنجح مدارس
 الباشا المدارس الخاصة بأسلحة الجيش ومدرسة الطب ومستشفاهها التي
 أنشئت أولاً «بأبي زعبل» ثم نقلت إلى محلها الحالي ، وصرف «كلوت بك»
 جهداً عظيماً في الاهتمام بحالة البلاد الصحية وادخال الإصلاحات وتعليم
 علم الطب مما خلده أحسن الذكر في تاريخ الصحة والطب بمصر . ومن
 أشهر المهتمين بأمر التعليم في مصر «أدغم بك» الذي عين رئيساً لمجلس التعليم
 العالي ومعه نخبة من عظماء رجال العلم في ذلك العصر

الاصلاحات الحكومية
 ١٨١٣ قسم مديريات مصر الى سبعة أقسام على كل قسم منها مدير ، أربعة
 بالوجه البحري وثلاثة بالوجه القبلي وقسم المديريات الى مراكز وكل
 مركز الى اقسام وكل قسم الى قرى وعلى رأس كل مركز مأمور . ولكل
 قسم ناظر وعلى رأس كل قرية شيخ . وكانت وظيفة المأمور مراقبة الزراعة
 وجمع الاموال والمحصولات و «أنفار القرعة» . أما المدير فعليه تنفيذ
 أوامر الباشا ومراقبة الري واعماله . أما القاهرة والاسكندرية ودمياط

ورشيد والسويس فكان يحكم كلا منها حاكم وضابط. وكان يساعد محمد على في القيام بأدارة البلاد مجلس خاص يستشير به في الشؤون الهامة وكون مجالس خاصة لكل إدارة في الحكومة وكان هناك مجالس للحربية والزراعة والمعارف والصحة وفوق كل هذه المجالس مجلس شورى الأمة تجتمع فيه كل رؤساء الإدارات المختلفة والمختصون. ولقد عرف من أول الأمر ان خير طريقة لتحسين الإدارة هي توزيع الأعمال على وزارات مختلفة فاختار لكل وزارة رجالاً كفاءاً يعينه المجلس الخاص، وعلى الرغم من أن هذا النظام لم يصل في عهده إلى حد الكمال لا يغيب عنا أنه إلى محمد على يرجع الفضل في توزيع أعمال الحكومة والعمل بحسن نية وبعزيمة صادقة على التقدم والارتقاء في الإدارة

مشروع

على ان كل تلك الأعمال المدهشة والأصلاحات الهائلة التي قام بها محمد الاستقلال على لتضاءل أمام مشروع خطير اقترحه عليه ممثل السويد المسمى « بكنتي » الاقتصادي الذي ذكر لمحمد على إن أعظم مظهر للاستقلال الحقيقي هو الاستقلال الاقتصادي فكما ان مصر غنية بمحصولاتها الزراعية يجب أن تنتج معاملة كل ما يحتاج اليه محمد على جيشه وأسطوله العظمين وما يحتاج اليه أسواقه وأعماله من المصنوعات بدل أن تظل مصر دائماً محتاجة إلى مصنوعات أوروبا. ولا يخفى أن المذهب الاقتصادي المعمول به في تلك الأزمنة وهو المبدأ المعروف بحماية التجارة والصناعة يقضى بالتقليل من الواردات والاستغناء عن البضائع الأجنبية بقدر الأمكان

وأول ما لفت نظره إلى المصنوعات وجود القطن الغفل (الخام) بكثرة وكان قد أدخل زراعته في الحقول بناء على إشارة المسمى « جيميل »

imp

الفرنسي (١٨٢١) وكانت مصر كذلك تنتج التيل والحرير وصبغة النيلة وأصباغا أخرى تصلح لتجهيز النسيج، فصمم محمد علي على إنشاء المعامل المختلفة غير مكترث بندرة المعادن في البلاد وبعدم ملاءمة الجو المحمل بالغبار الكثير الجفاف. ولم يوقف محمد علي عن مشروعه متى صمم عليه عدم استعداد الأهالي للقيام بالأعمال الصناعية الحديثة ولا عظم المبالغ والتنفقات التي تتطلبها. ولقد لجأ إلى استيراد ما يلزمه من الفحم الحجري والحديد والصناعات الراقية من أوروبا. وكان اعتماده في هذا المشروع على أن العمل في مصر ميسور بأجور رخيصة وأن المواد الغفل (الخام) متوافرة لديه. وعلى ذلك أنشأ المغازل والمعامل والمصانع المختلفة وأصبح جو « بولاق » يدوى بصوت المطارق وأزيز الأنوال^(١) إلى درجة ما ولقد أغنت هذه المصنوعات محمد علي عن مصنوعات أوروبا ولكن كان مقضياً عليها في النتيجة وخاصة بعد أن زال سبب تكوينها وهو الجيش

تقد
المشروع

إذ نقص إلى ١٨٠٠ من سنة ١٨٤١.

واننا إذا قرَّنا مقدار ما كانت تتكلفه مصانعه من النفقات بالفائدة التي كان يجنيها محمد علي رأينا أن مغارمها كانت أكثر من مغائنها وان

(١) كان بمصر ١٤٥١ دولاباً للغزل و ١٢١٥ نولاً و ٢٠٠٠٠ عامل من غزلين ونساجين وخراطين وحدادين وسباكين ونجارين وأخرجت المعامل البقعة والشيت والشاش والأجواخ والطرايش والبنادق والأسلحة المختلفة وقطع العدد الصغيرة. وكانت مغازل القطن تخرج ما يقرب من مليوني قطعة سنوياً وأهم هذه المعامل في بولاق والطرقش وقلوب والمحلة الكبرى الخ. وكانت هناك معامل للبنادق ومسابك الصلب ومعاصر للزيت وكانت هذه المصنوعات توزع في أسواق مصر والخارج

ثمن السلعة في النهاية كان يكون أرخص لو اشترى من الخارج مباشرة، وكان محمد علي على تمام العلم بهذا العجز في إيرادات مصانعه ولكنه استمر للنهية يستخدمها ويعتني بها رغبة منه في تعويد القوم الصناعة وتسيير الآلات الحديثة والظهور بمظهر المستقل وتشبها بنظام فرنسا وانجائهما في ذلك الوقت وهو نظام حماية التجارة والصناعة. ولما كان محمد علي هو المالك الوحيد لهذه المشروعات كانت الخسارة واقعة على خزانة الحكومة. ولو أنها كانت لشركات أهلية لسببت تأثيراً سيئاً عظيماً. وقد فشل مشروعه الصناعي نهائياً لضخامته وغرابتها في مصر ولأن المشروع كان لا يمكن أن يعني عن بضائع أوروبا فالوقوف والآلات اللازمة للصناعة نفسها كانت كلها ترد من أوروبا. ومن أسباب الفشل أيضاً احتياج الزراعة في مصر لكل الأيدي العاملة ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نقول إن قيام بعض الصناعات في مصر كعمل السكر والصابون والزجاج وبعض المنسوجات لازم ويمكن ومفيد تمام الفائدة.

بقي علينا عمل نهائي ختم به محمد علي إصلاحاته وهو تشييد «القناطر الخيرية» وهي أعظم عمل نافع أنشئ في مصر لضبط مياه النيل بأقامة سد عظيم ذي عيون قرب تفرع الدلتا. وأول من اقترح المشروع علماء الحملة الفرنسية أيام وجود نابليون بمصر. ولقد فطن محمد علي لما يمكن أن يأتي به مثل هذا المشروع من جزيل الفائدة إذ ترتفع المياه في الترع على أثر حجز الماء في أحد الفرعين فتروى الأراضي بسهولة، وكان اهتمام محمد علي بالوجه البحري عظيماً جداً لا مكان زراعة القطن في أراضيه. وبعد درس المشروع أصدر في سنة ١٨٣٥ أمره إلى الميسيو «لينان» لتنفيذ هذه الفكرة التي إن نجحت روت آلافاً من

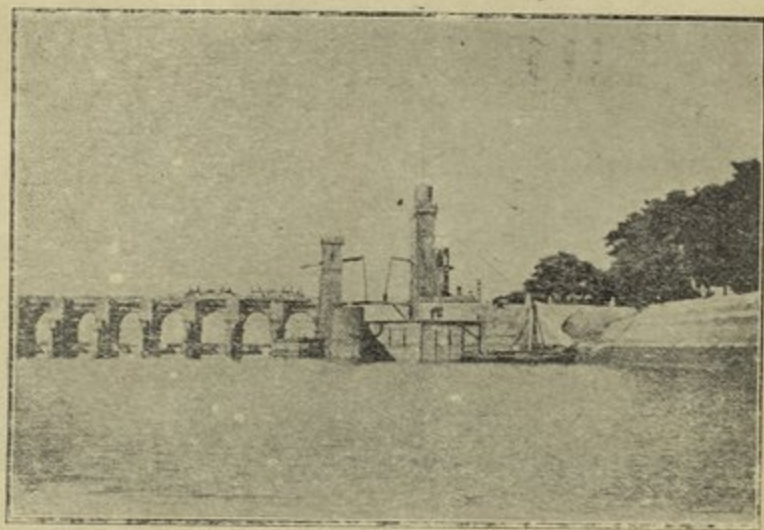
مشروع
القناطر
الخيرية

الأفدنة أوقات « التحاريق » ولقد كلف المشروع محمد علي مبلغاً طائلاً
ولكن مشروعاً كهذا كان يتطلب وقتاً طويلاً لإنجازه لأن مالية
الحكومة كانت لا تسمح بالأنفاق على هذا المشروع دفعة واحدة، ولكن
تسرع محمد علي ورغبته في إنجاز العمل كي يتم في عهده لم يمكننا « لبنان »
من تثبيت أسس البناء بالمتانة اللازمة فاضطر إلى إصلاحه ثانياً. ثم جاء
المسيو « موجل » وواصل العمل في القناطر ولكنها لم تتم في عهد محمد
علي وظلت إلى أواخر أيام سعيد. ومع ذلك فإن ضخامة المشروع وفائدته
الكبرى لما لا يبقى مجالاً للمبالغة. وكفى أن مشروع القناطر هو الذي

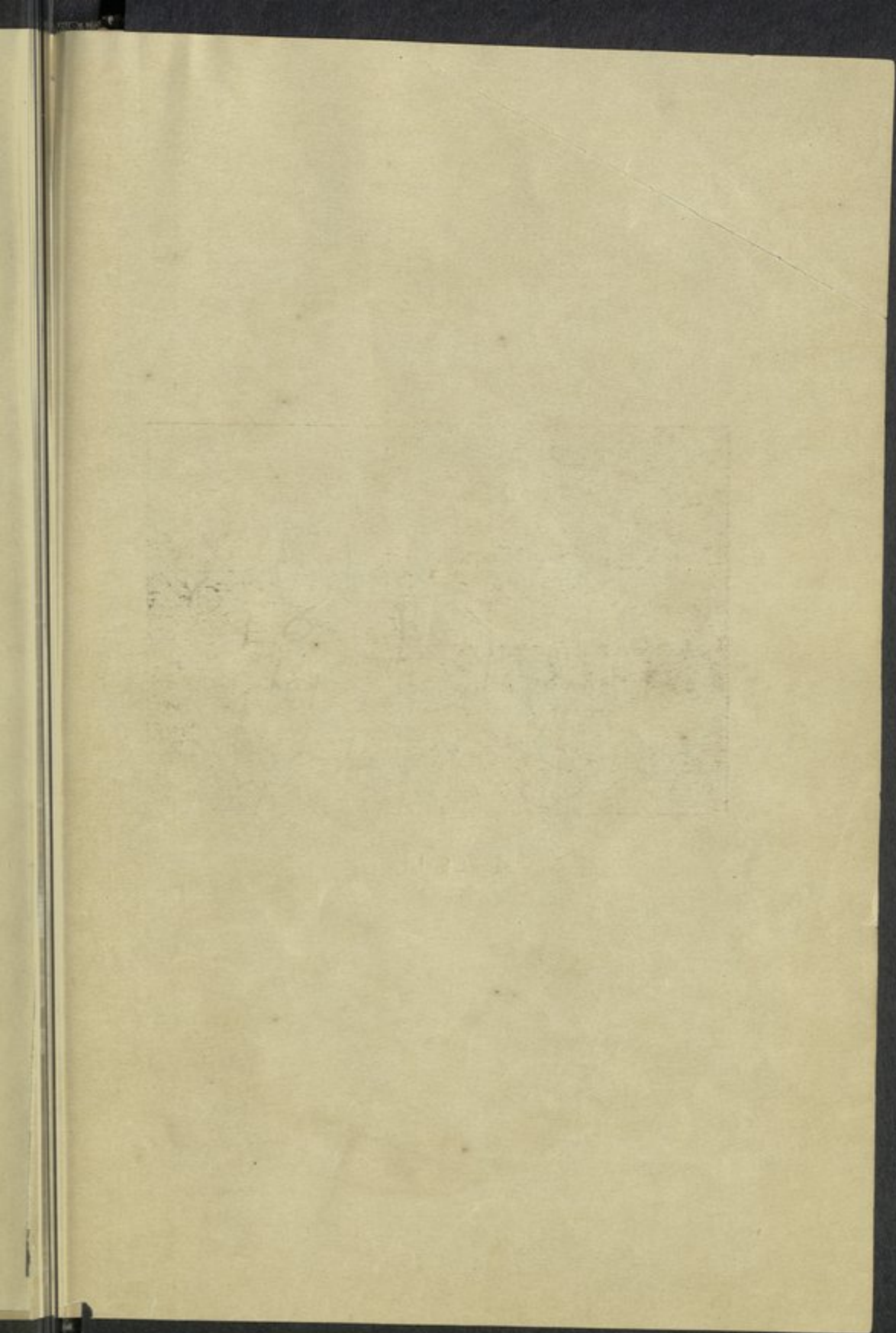
ولد فكرة خزان اسوان الحالي

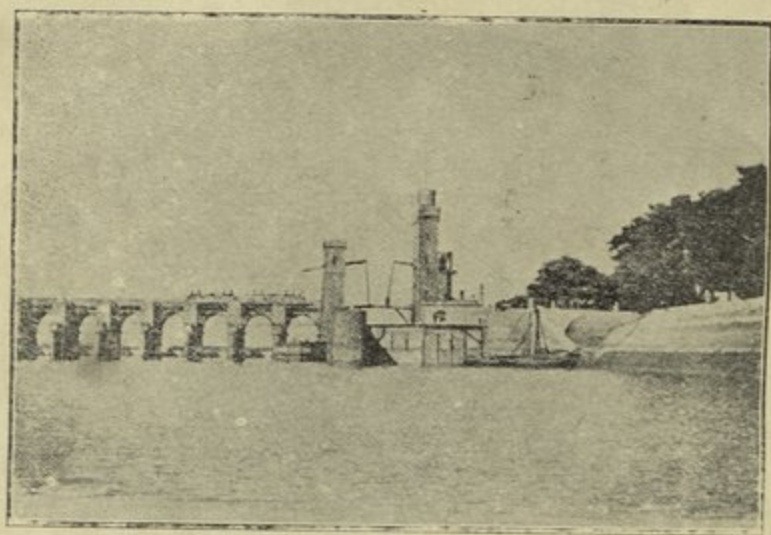
نظرة عامة في
أعمال محمد علي
بذلك أدخل محمد علي طرق التمدين الحديث في مصر بفضل إهتمامه
بالجيش وماحقاته وحاجاته. ولا غرابة في أن يدخل التمدين في بلد على يد الجيش
ففي البلاد الشبيهة بالتمدينة لا يمكن أن يدخل الرقي والإصلاح على أيدي
المجموع ولا يتسنى لغير الحاكم المتنور ذي الهمة العالية أن يرغم شعبه بالقوة
على قبول الإصلاح. ولما كانت القوة أول ما يتطلبه الحاكم المستبد لتأييد
سلطانه ترى أن الجيوش والاساطيل كثيراً ما مهدت السبيل لأصلاحات
عامة قد لا تتفق مع مصالح الجيش ذاته.

وفي مصر كان تكوين جيش نظامي داعياً لأيجاد روح نظامية
سرت في كل طبقات المجتمع فتمتع الاهلون بنعم الأمن على الحياة وعلى
الأملاك، وإن ما قام به محمد علي من جعل الحكومة مركزية قد
أوجد وحدة قومية حكومية بدل البقايا المتنافرة التي كانت من قبل،
وكانت نتيجة إدخال النظام في أعمال الحكومة وجباية أموالها وإهتمامها



القناطر الخيرية





القناطر الخيرية



بوغوص بك يوسف
وزير الخارجية والتجارة
لمحمد علي

بالزراعة والتجارة والصناعة أن زادت إيرادات الحكومة زيادة ظاهرة
أنفقها محمد علي في رفعة شأن مصر وشؤونها الخاصة . وقد كان لمحمد علي
هيبة واحترام في قلوب شعبه ، ومع أنه كان حاكماً مستبداً كان كريماً رءوفاً
يقبل النصائح والاقتراحات التي يبديها له غيره ، وقد تلقى من الفرنسيين
في كل مشروعهاته كل تعظيم ومساعدة وإخلاص وإن اسماء « سيف »
و « سرري » و « كلوت بك » و « لينان » و « موجل » لتبقى على الدوام
تذكراً للمشيئ مصر الحديثة . وإنك ترى على العموم أن تسامح محمد علي
وترحيبه بالأجانب وشغفه الزائد بتعرف كل ما يجد أمامه كان له
أثر عظيم في تكوين شهرته التي طبقت الآفاق لأنه ما من رجل عرفه
وعامله إلا واقتنع بعبقريته ونبوغه وعطف على أمانيه السياسية . ووصل
الحال إلى أن بعض معتمدى الدول وممثلهم كانوا مع حكومة محمد علي
مرتبطين بصلات ودية مادية جعلتهم يهملون مصالح حكوماتهم الخاصة
ولا يجرون على الدفاع عنها أمام مصلحة محمد علي .

وكان محمد علي على علم دقيق بأحوال السياسة في أوربا عارفاً بتاريخ كل
سياسي شهير فيها ، وكان المترجمون يطالعون له كل ما يكتب عن السياسة
ورجالها من أوثق المصادر على الرغم من أنه لم يتعلم القراءة والكتابة إلا متأخراً .
ومن العوامل التي كان لها أحسن وأبعد أثر في حياة محمد علي إخلاص
أبنائه وأسرته له واحترامهم له وتضحياتهم كل شيء في سبيل طاعة رئيسهم
إلا كبر وهنائه . وهناك عامل آخر لولاه ما استطاع محمد علي أن يجمع في
شخصه كل هذه القوة التي ذاع صيتها والتي مكنته من احتلال أكبر
أقاليم السلطان ثروة وأعظمها أهمية له — ذلك أن الباب العالي كان على درجة

عظيمة من الضعف والتفكك الداخلى على الرغم من جهود السلطان محمود
الثانى فى الإصلاح

لقد أسهبنا فى الكلام على أعمال محمد على وما أوجده فى مصر من
خير وإصلاح . غير ان هناك أيضاً مجالا واسعا للنقاد الذى يريد التنقيب المجال واسع
للقائد
عن الجزء المظلم من صفحة محمد على ، فيجد فى استبداد المديرين البعيدين
عن رقابة الباشا ، وفى فقر وانهاك قوى الأهالى بسبب الاحتكارات والتجنيد ،
وفى مقتل المالك وفى تبديد الأموال من غير فائدة على المصانع الجديدة ،
وفى قيام تجارة الرقيق فى السودان تجد فى كل ذلك مجالا للانتقاد لانهاية
له ، ولكن من الظلم أن نحكم على محمد على بحسب مقاييس الغرب ونسب
أعماله بخباياهم فنظام الاحتكار ونظام التجنيد كانا - وهذا مما يؤسف له -
ضروريين على الرغم من ثقل وقعهما على الشعب ، ولم يكن منهما بد لصيانة
مصر ومنعها من الوقوع تحت حكم الأتراك مرة أخرى من أجل ذلك
اضطر محمد على للمال وللجيش وفضل أن تتحمل مصر آلام هذين النظامين
على أن تسود فيها الفوضى . ومع ذلك فان نظام الاحتكار لم يبلغ من أوربا
إلا حديثاً وما من حكومة إلا وانتقدت سياستها بشأن أعدائها السياسيين
أو بشأن جمع جنودها أو توزيع أراضيها وثروتها .

أما تجارة الرقيق فهذا نظام ألفه الناس منذ قرون ولم يكن من السهل
إلغاؤه الا تدريجاً . ولقد أرسل محمد على خطابا الى حاكم السودان فى أول
ديسمبر سنة ١٨٣٧ قال فيه «ليكن معلوما لك ان نظام الرقيق يحط من قدرى
فى نظر العالم المتمدن وخاصة فى نظر الحكومة الانجليزية التى بين حكومتى
وبينها علاقات ودية . وانى لا أريد أن أكسب من تجارة لا تشرفنى وإذا

كان إلغاؤها يتطلب بعض توضيحات فأنا مستعد لتحملها

وفي الختام نرى أننا إذا راعينا الظروف الخاصة التي ظهر فيها محمد على
 وعرفنا عظم الواجب الذي أخذ على عاتقه القيام به وسط تلك الفوضى
 والجهل والظلام والفسائس السائدة بمصر وبتركيا، وجب علينا أن نعد
 نجاحه في حكم مصر وما خلّده من آثار وإصلاحات وما لعبه في العالم
 السياسي الأوربي دليلا على نبوغ محمد على. ولا أدل على عطفه على مصر
 تلك البلاد التي تبناها وأصبحت في نظره كل شيء يستحق الوجود من
 أجله، من تلك العبارة التي فاه بها الدكتور بورنج المندوب الانجليزي :
 «إن بلادكم لم تصل إلى ما وصلت إليه من الرقي الخالي إلا ببجود اجيال
 كثيرة مضت وان الطفرة محال في رقي الأمم وتقدمها. ولكن يمكنني
 ان اقول اني قد مت ببعض الشيء لمصر واصبحت الآن تمتاز عن ممالك
 كثيرة لا في الشرق فحسب بل في الغرب ايضا. نعم يعوزني شيء كثير
 لا زلت اجهله كذلك يعوز شعبي شيء كثير ولذلك تراني الآن مرسلا إلى
 بلادكم « ادم بك » ومعه خمسة عشر شابا ليتعلموا ما تعلمه بلادكم، فعليهم
 ان ينظروا إلى الاشياء بأنفسهم وعليهم ان يمرنوا على العمل بأيديهم وان
 يخبروا مصنوعاتكم جيدا ليعلموا وليكشفوا أسباب سبقتكم ورفيكم، واذا
 ما مضوا زمنا كافيا بين أهل بلادكم عادوا إلى بلادهم وعلموا الشعب »^(١)

(١) تقرير الدكتور بورنج - أوراق برلمانية الجزء ٢١ من سنة ١٨٤٠

الفصل الخامس

ظهور المسألة الشرقية واستقلال اليونان

قامت الدولة العثمانية بالسيف ولا تزال الصفة الحربية عنوانها الى اليوم . فبالسيف فتحت فتوحاتها وبه كسبت مركز خلافة الاسلامية وبفضل ما استولت عليه من الأملاك أصبحت الدولة في صفوف دول أوربا العظمى . غير انه من سوء حظ الدولة أن فتوحاتها كانت غربية عنها في صفات كثيرة فلم يربطها بأملاتها الا روابط ضئيلة فلا دين يجمع بينهما ولا لغة ولا جنسية ولا تقاليد . فأصبحت فتوحاتها على ذلك سريعة الانتلام مهددة في كل وقت بالثورات الداخلية . ولقد تضاعف الخطر الذي كان يهدد الدولة في أملاكها عندما ظهر للعالم أجمع اضمحلالها الحربي وانهازمها امام روسيا في أواخر القرن الثامن عشر .

فلما انحطت الدولة العثمانية من مركزها الحربي وهي الدولة الحربية قبل كل شيء ضاع نفوذها الأدبي ولم تقو على مطالبة رعاياها بالاخلاص الى السكون والطاعة

ولما لم يكن في مقدور السلطان تأييد سلطانه في أملاكه أو مزج هذه الأملاك في جسم الدولة بأية طريقة اكتفى الباب العالي من أملاكه بدخل سنوي يجمعه من تنتهي اليه المساومة من بين الباشاوات ، وبعض أفراد ينتظمون في سلك الجيش أو في البحرية ، ولم يعد يفكر في شيء من

الاصلاحات أو الأ أنظمة اللازمة لحفظ أملاكه وعلى هذا تركت الولايات
 العثمانية في حالة شبه استقلالية يحكمها في الغالب ولاية طغاة
 على انه لغاية القرن الثامن عشر كانت الدولة العثمانية لاتزال ظاهرة
 امام العالم الأجنبي بمظهر القوى الثابت وذلك بفضل انظمتها التي كانت
 تحجبها عن انظار اوروبا حتى لم تعرف عن داخليتها الا قليلا . نعم كان البناء
 قائماً في نهاية القرن الثامن عشر ولكن البنيان كان من صخور نخرة واهية
 البناء توشك أن تنهار اذا ما هبت عليها العاصفة . وسرعان ما هبت العاصفة
 من الغرب فان زوابع الثورة الفرنسية وحروب نابليون التي لفحت أوروبا
 فايقظت أهلها من سبات عميق قد صدمت كذلك سياج الدولة العثمانية
 المفككة العرى فتغلبت الافكار القومية والاستقلالية على شعور رعايا
 السلطان المسيحيين في أوروبا

ومما زاد في خبال الدولة ما كانت عليه الحكومة المركزية من
 الضعف وما كان يتأجج في داخلها من نيران الثورات ومن المذابح والمظالم
 وخاصة بعد ثورة الانكشارية ضد السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٦ في
 القسطنطينية . ولم تكن الثورات مقصورة على عاصمة الخلافة بل كانت
 عامة في جميع أنحاء الدولة . فقام الوهايون في بلاد العرب وأخذوا يمدون
 سلطانهم حتى استولوا على مكة والمدينة . وقام عثمان باشا المعروف «يسبيان
 أوغلو» والى «ودين» فأخضع اقليم بلغاريا وانتصر على جنود السلطان
 واضطره الى تعيينه والياً على هذا الاقليم في سنة ١٨٠٧ . وقام سكان الجبل
 الاسود ضد الباب العالي وانتهى الامر بأن أعلن السلطان عدم تدخله في
 شؤون الجبل . وقام على باشا حاكم «يانينا» الذي أخضع البلاد المجاورة له

الثورات
 الداخلية

حتى أصبح المسيطر على اقليم «ايروس» . وقام «قره جورج» في ١٨٠٤ في بلاد الصرب وعقد جمعية وطنية أعلنت استقلال الصرب الداخلي خارب الصربيون جنود الانكشارية وانتصروا عليهم وأخرجوهم من بلغراد في ١٨٠٦ وأصبح «قره جورج» الحاكم المطلق

خطه القيصر كل هذه الحوادث جعلت الخطب يتفاقم في بلاد تركيا، وجعلت نابليون ونابليون في يأس من مواصلة سياسته الأولى التي بدأها سفيره القائد «سبستيان» والتي كانت تقضى بتقوية الدولة حتى تكون حليفة قوية لفرنسا يعتمد عليها ويستخدمها ضد روسيا وانجلترا . وكانت روسيا لا تفتأ تذكر وصية «بطرس» وخطة «كترينة الثانية» وتحنين الفرص لتحقيق أمنها في احتلال القسطنطينية وسواحل البحر الاسود، ولم تكن الفرصة اكثر ملاءمة منها في سنة ١٨٠٧ . وكان نابليون في ذلك الوقت منتصرا في واقعة «فريدلند» على روسيا وبروسيا فتقابل القيصر والامبراطور نابليون في «تلس» واتفقا بشأن المسألة الشرقية اتفقا سرياً بمقتضاه تشترك فرنسا مع روسيا في تجزئة الدولة العثمانية كما ان روسيا تشترك مع فرنسا في اعلان الحصر البحري على انجلترا . وبدأت فعلا مفاوضات التجزئة ولكن نابليون أصر على أن تبقى القسطنطينية وبلاد الروملى الشرقى تابعتين للدولة العثمانية، وأصر القيصر على أخذ القسطنطينية فلم تأت المفاوضات بنتيجة، هذا الى أن انجلترا كانت بالمرصاد في البحر

وينما كان نابليون يعد العدة ضد انجلترا والدولة، جاءت الاخبار بانكسار جيوشه في اسبانيا وقيام الشعوب ضده في شبه جزيرة الاندلس ثم في النمسا والمانيا . وفي هذه الاثناء قامت الحرب بين روسيا وتركيا سنة

١٨٠٩ واستمرت ثلاث سنوات انتصرت في انشائها الروسية كالمعتاد ،
ولسكن لما رأت روسيا بوادر النزاع بينها وبين نابليون بدأت مفاوضات
الصلح مع تركيا . وعلى الرغم من تدخل نابليون في المسألة والحاحه في
ايقاف مفاوضات الصلح لم يصنع الباب العالي لنصحه . تذكرأ ماعمله نابليون
في «تاست» ومتجاهلا سير السياسة في أوروبا لانه لو لم يعقد الصلح لاضطر
القيصر الى ابقاء جزء عظيم من جيشه في البلقان وما امكنه مقاومة حملة
نابليون الشهيرة في روسيا . ولكن القيصر فطن لهذا فلم يتشدد وعجل
بعقد معاهدة «بخارست» في مايو سنة ١٨١٢ فنزل القيصر عن حماية البغدان
والافلاق وأصبح نهر «البروت» هو الحد الفاصل بين روسيا والدولة
العثمانية

ولم يستتب السلم طويلا بعد سقوط نابليون على الرغم من ادعاء
«مترنخ» بانه وطد السلم في أوروبا ٣٣ سنة اذ الحقيقة ان السلم لم يدم في الشرقية بعد
أوروبا اكثر من ثلاث سنوات، وبعد مؤتمر الدول في «اكس لاشابل»
سنة ١٨١٨ ظهرت دلائل الثورات في المانيا وفي اسبانيا واطاليا واليونان ،
ولم يمنع من احتدام الخلاف بين الدول الا رغبتها الأكيدة في المحافظة
على وحدتهم ليظهروا بمظهر القوى امام فرنسا مهد الثورات
ومن الغريب أن يبدأ الهجوم ضد مبادئ المحالفة المقدسة من نفس
الداعي لها وهو قيصر روسيا اسكندر الأول ذلك الذي لم يستقر على قرار
بشأن سياسته فيما تراه يحبذ الأفكار الدستورية آونة تراه يعضد مشروعات
«مترنخ» آونة أخرى . وكانت سياسة الاسكندر حيال الدولة كسياسة
قيصرة الروس منذ بطرس الأكبر وهي التعجيل بأضعاف الدولة العثمانية

المسألة

الشرقية بعد

سقوط

نابليون

والعمل على اضمحلالها . واذا كان لم يتيسر للاسكندر تحقيق أغراضه في سنة ١٨١٢ . بعد انتصاره الباهر فذلك لأن نابليون كان يعد حملة الشهيرة ضد روسيا . فلما سقطت دولة نابليون واستتب السلام في غرب أوروبا عاد الاسكندر الى مواصلة مشروع القيصرية « كترينة الثانية » ، وكانت أسباب النزاع بين روسيا وتركيا متوافرة بفضل الحقوق التي كسبتها روسيا على رعايا السلطان المسيحيين فقد فسرت معاهدة « كجوك كينارجة » بأن لها حق حماية الرعايا المسيحيين دينياً وسياسياً أينما كانوا ، مع ان نص المعاهدة لا يقضى الا بأن يكون للروسيا حق حماية كنيساتها بالقسطنطينية وغيرها التي من جنسها .

خطة
الروسيا

ولم تكن روسيا تعد نفسها حامية للمسيحيين فحسب بل كانت تعتبر أن الواجب يقضى عليها بتخليص هؤلاء الأقوام من حكم العثمانيين ، وانهز الاسكندر فرصة تفوقه في أوروبا في ١٨١٥ ونظر الى المسألة الشرقية نظرة من يريد حلها ولكن لم يدر بأى الطرق ، لأنه خشى أن تعرض المسألة أمام مؤتمر فيينا فتفقد روسيا إمتيازها الخاص بالدولة . ولقد هال الباب العالي ان يرى قيصر روسيا يقدم وثيقة « المخالفة المقدسة » وفيها ظهرت الدول المسيحية كأنها أسرة واحدة يجب ان تعمل على حسب تعاليم الكتاب المقدس . فظهر لتركيا عزلتها عن باقي ممالك أوروبا فخافت ان يكون المقصود من مثل تلك الوثيقة إثارة حرب صليبية من جديد فكتبت تستفهم من حكومتى لندره وفيينا فاجابتهما بأن تستفهم من القيصر فطمأنهما . ولكن الحقيقة لم تخف عن انظار الباب العالي الذي رأى الخطر يهدده لا حفاظ القيصر بجيش عظيم يبلغ ٦٠٠٠٠٠ جندي ، مع أن الدول

كانت قد نقصت جيوشها إلى النصف منذ سنة ١٨١٦ . ودل القيصر على نيائه ضد الباب العالي بتعزيده للثورة في الصرب وبأيوائه «قره جورج» في سنة ١٨١٣ بعد استعادة السلطان لنفوذه، وبمساعده «ميلوش إبروفتش» الذي نال من الباب العالي حق الاستقلال الداخلي للصرب سنة ١٨١٧ بعد أن قتل «قره جورج» منافسه

كذلك أدخل القيصر في خدمته كثيراً من اليونانيين أمثال «كابودسترياس» و«الأخوين» «إسكندر» وساعد اليونانيين على تأليف جمعية سرية تدعى «بالهتيريا» أي «جمعية الأخوان» التي أخذت تعد العدة للثورة ضد العثمانيين على مثال جمعية «الكر بوناري» في إيطاليا بالنشر والتحريض — كل هذا كان يعمله القيصر علانية . غير أن إنجلترا والنمسا كانتا على حذر وحاربتا سياسة روسيا بقدر ما في وسعهما . لأن النمسا كان لا يسعها أن ترى روسيا تبسط حمايتها على الشعوب الساكنة على سواحل الدانوب قريبا من أملاكها فلم تساعد أهالي البلقان على الثورة ضد الأتراك . وأما بريطانيا فكان من رأى ساستها أن حفظ كيان الدولة العثمانية أمر ضروري لدوام السلم في أوروبا ولمعارضة روسيا في سبيل تقديمها نحو الشرق والبحر الأبيض المتوسط . وسيظهر هذا الخلاف جلياً عند نشوب ثورة اليونانيين

« ثورة اليونانيين »

كان اليونانيون أكثر الأجناس الخاضعة للسلطان عدداً وأقربهم حالة إليه منزلة وكان الباب العالي يخصص بوظائف ومزايا سامية ، وكان فلاحو اليونانيين اليونانيين أسعد حظاً من زملائهم في أوروبا اذ لم يكن نظام رقيق الاراضي العامة

معروف فيها . وكان السلطان يعين ولاية من العثمانيين يدعون الى مشاورتهم في شؤون الادارة اعيان اليونانيين والأتراك، وكان يترك توزيع الضرائب وجبايتها في أيدي سكان كل قرية فكانوا ينتخبون عدداً من بينهم لتقرير الضرائب وتوزيعها على السكان

وكل ما كان يهم الباب العالي هو وصول المال للخزانة والحصول على العدد اللازم من بخارة الجزر اليونانية للاحاقهم بالاسطول العثماني . أما من الوجهة الدينية فكانت سياسة السلطان دائماً في كل فتوحاته ترك كل ملة وشأنها، ولما كان المذهب المسيحي السائد في تركيا أوروبا هو الأرثوذكسي وفق الكنيسة اليونانية، خص الباب العالي اليونانيين بادارة الشؤون الدينية في جميع انحاء الدولة، فكان يعين منهم « بطريقاً » عاماً مقره القسطنطينية، وكانت هذه الوظيفة من اسمى الوظائف في الباب العالي اذ كان للبطريق اليوناني نفوذ على كافة الكنائس المسيحية في الدولة العثمانية ما عدا بلاد الصرب . وكان له حق تعيين الاساقفة ولهؤلا حق عقد محاكم خاصة لمحاكمة المسيحيين، وقد أوصلهم حذقهم في السياسة الى أعلى الوظائف في الدولة العلية فكان لهم أربع وظائف وقفاً عليهم وهي وظيفة « كاتب سر » الباب العالي أو ترجمانه و « كاتب سر » الاسطول وحاكم الافلاق وحاكم البغدان

أما حالتهم التجارية فقد بلغت شأواً بعيداً منذ معاهدة « فينر دجه »
حالتهم التجارية (١٧٧٤) التي بمقتضاها فتحت البحر الاسود للتجارة الروسية، وانتفع اليونانيون بمزايا هذه المعاهدة فآخذوا يصنعون السفن التجارية العظيمة ويسلحونها بدعوى الدفاع ضد غزوات لصوص البحر، فأخذوا يتاجرون مع الممالك البعيدة تحت الراية الروسية أو تحت الراية الانجليزية . وقد زادت

تجارة اليونانيين وسفنهم أثناء حروب نابليون والحصار البحري ، فأصبح اليونانيون ذوى تجارة واسعة في شرق البحر الأبيض المتوسط . ومن دلائل اتساع حركة التجارة اليونانية ظهور ميناء « أودسا » على البحر الأسود في سنة ١٧٩٢ وهجرة اليونانيين إليها بكثرة حتى أصبحت ملجأ لجماعة من أثريائهم

حالتهم
الادبية

كذلك رقت حالة اليونانيين الأدبية فبدءوا يتعلمون في البلاد الأجنبية ويتلقون دروساً جديدة نهت عقولهم وجعلتهم يضمرون التخلص من نير التراث . وظهر من بينهم المصالح الشهير « كوريس » (١٧٨٤ - ١٨٣٢) الذى اليه يرجع الفضل في وضع اللغة اليونانية الحديثة ، فانه رأى أنه لا يكمل الشعور الجنسى بدون رابطة اللغة ورأى أن اللغة اليونانية في ذلك الوقت خليط عقيم من اللغات الأجنبية المجاورة مع أن اللغة اليونانية القديمة كانت من أفضل اللغات فأخذ « كوريس » ينقى اللغة من الغريب السوقي ويستبدل به اليونانى العريق ، وهكذا أخذ يصلح اللغة ويزيد عليها ويدمج القديم في الجديد وأخرج مؤلفات جديدة وأحيا الآداب القديمة فأعاد ذكرى مجد اليونانيين القدماء وجعل لهم لغة ذائعة معروفة

من ذلك يتبين أن اليونانيين قبل الثورة لم يكونوا مستعبدين بل كانوا في الحقيقة شبه مستقلين ، وانهم وصلوا الى درجة عظيمة من الثروة والرقى وخاصة في مركز نهضتهم وهو قسم « الفنار » في القسطنطينية حيث كانت دار البطريق التى نشأ حولها طائفة « الفنارين » المعروفين ، ويليهم في الرقى يونانيو البغدان والافلاق وأودسا

غير ان هذا الرقي كان باعثاً على تحريك الهم ضد سيادة الاجنبي
 وخاصة بعد ما علموه من نجاح الثورة الفرنسية وظهور نابليون الذي
 أصبح مثالا يقتدى به في الثورات التي قامت عقب سقوطه مطالبة
 بالاستقلال . كذلك شجع اليونانيين على القيام بالثورة ما علموه من قيام
 على باشا حاكم « يانية » وغيره في أنحاء الدولة . ولكن المسئول مباشرة عن
 تنظيم حركة الثورة ضد الاتراك هو جمعية « الهتيريا » أو جمعية الاخوان
 وهي جمعية سرية أسست في « أودسا و فيينا » في سنة ١٨١٤ للمعلم اليونانيون بأن
 مؤتمر « فيينا » ساهل البحث في المسألة الشرقية . وأخذت دائرة الجمعية تتسع
 تدريجاً حتى انضم الى صفوفها في غضون ست سنوات كل يوناني
 ذي مكانة

وكانت هذه الجمعية تتاجر باسم قيصر روسيا ووزيره اليوناني
 « كابودسترياس » . ولما اجتمع أعضاء الجمعية لتبادل الآراء في أمر اعلان
 الثورة في ولايات البغدان والأفلاق لقربها من روسيا ، وأعلنوا انهم يريدون
 استقلال أمارات البلقان وطرد العثمانيين خارج أوروبا وتجديد الدولة
 البيزنطية ، كانت الآمال معقودة على أن يكون القيصر عضداً للحركة .
 فلما أرادوا انتخاب رئيس لقيادة الحركة خابروا « كابودسترياس » وزير القيصر
 في الأمور الخارجية فأبى علماً منه برغبة القيصر عن ذلك . فوقع انتخابهم
 على « ابسلنتي » وكان ضابطاً في الجيش الروسي في خدمة القيصر أيضاً ،
 فأعلن الثورة في « ياسي » في ٦ مارس سنة ١٨٢١ ونادى في الأهالي المسيحيين
 بالقيام وأصدر التماساً للقيصر يطلب التعضيد . ولكن آمال « ابسلنتي »
 كان مقضياً عليها من المبدأ . لأن شعوب البلقان كانت حائرة على اليونانيين

تكوين

جمعية

الاخوان

قيام الثورة
واغراضها

وخاصة في رومانيا حيث كانت الديانة « كاثوليكية » ، وعلى ذلك لم يكن من مصلحة الرومانيين والبلغاريين مثلاً أن يساعدوا في تكوين امبراطورية جديدة . لذلك لم تصادف دعوة « الهيريين » قبولاً من الفلاحين في رومانيا كما كانوا ينتظرون .

فشل الثورة

أما القيصر اسكندر الأول فقد جاءه خبر قيام « ايسلنتى » وهو في البلقان في مؤتمر « ليباخ » يتناقش مع الدول بشأن اخضاع الثائرين في « نابلي » واعادة صاحب الحق الشرعى فيها إلى ملكه . وكان اسكندر في تلك الآونة قد غير افكاره السياسية الحرة وتلقى السياسة الرجعية عن أستاذه « مترنخ » وصار له أعظم معين في سياسته ، فما كان ينتظر أن يكون اسكندر عدواً للثورات في غرب أوروبا وعضداً لها في شرقها وقرباً من أملاكه . لذلك لما بلغه خبر قيام « ايسلنتى » بشءٍ للخبر أولاً ولكن مازال به « مترنخ » حتى كتب يستهجن عمل « ايسلنتى » ويبرىء نفسه منه . كذلك أصدر البطريق اليوناني بالقسطنطينية قراراً الحرمان ضد « ايسلنتى » ، وفي الوقت نفسه أرسل السلطان جيشاً لقمع الثورة فعبّر نهر الدانوب وهزم الثوار ففر « ايسلنتى » إلى داخل حدود المجر حيث اعتقل ومات

« قيام الثورة »

هذا ما حصل من اليونانيين في شمال البلقان، ولكن الثورة لم تقتصر تبادل على ذلك بل امتدت الى الجنوب أيضاً أى في شبه جزيرة « المورده » مهد القضاة من اليونانيين الأصليين، فقاموا في ١٨٢٢ وكان القصد من هذه الحركة الخروج الجانبين من نير العثمانيين واعلان استقلال اليونان فقط . ولما شق اليونانيون

عصا الطاعة أتوا بفظائع مروعة ضد العثمانيين وخاصة من كان منهم في داخلية البلاد فلما وصل خبر هذه المذابح إلى مسامع الأتراك ثارت نفوسهم وانتقموا لأنفسهم شر انتقام فأعدم السلطان محمود الثاني البطريق اليوناني في صبيحة عيد الفصح وأعدم غيره من الأساقفة اليونانيين وظل الجانبان يتبادلان ويتنافسان في صب العذاب على رؤوس الأبرياء. ثم استولى الثوار على « تريبولتزا » (١٨٢٢) مقر الحكم ومثلوا بالأتراك شر تمثيل فقابلهم الأتراك بالفتك بسكان جزيرة « شيموس »

عجز السلطان
عن قمع
الثورة

ثم أعد الباب العالي جيشا بقيادة خورشيد باشا الذي كان حاكما على مصر في ١٨٠٤، وبعد أن أخضع على باشا والى « يانية » سار جنوبا ووقف جزء من الجيش امام ميناء « مسولنجى » وسار جيشه مخترقا مضيق « ترمويل » ولكنه أهمل تحصين المرتفعات من ورائه، فلما قابله « كولكترونس » رئيس « الكلفت » أو عصابات اليونان الجبلية وأخذ زعماء الثورة اضطرا الجيش الزاحف إلى التقهقر فوجد اليونانيين محصنين في المرتفعات، فدحر الجيش بأكمله وانتحر خورشيد باشا بعد هذه الهزيمة. كذلك ظهر في البحر ملاحو جزر الارخبيل بقيادة « كناريس » « وميوليس » فهزموا الأتراك واغرقوهم وسفنههم اينما عثروا بهم، وسرعان ما زالت سلطنة الأتراك من الارخبيل، فلما جاء يناير سنة ١٨٢٢ أعلنت اليونان استقلالها برياسة « ماورو كوداتس » « وابسلنتي » ولكن كانت المنافسة بين الوطنيين شديدة فأدى ذلك إلى ضعف الحكومة الوطنية.

ولما لم يكن لدى السلطان جنود لقمع الثورة ولما وجهه شطر محمد علي باشا بأشارة سفير النمسا التي كانت تريد القضاء على الأفكار الثورية

وعدم إعطاء روسيا فرصة للتدخل. وأرسل السلطان لمحمد علي أمراً طلب المساعدة بذلك في ١٦ يناير سنة ١٨٢٤ ووعده بتعيينه حاكماً على «المورة» «وكريد». من محمد علي فصدم محمد علي بالأمر ورحب بفرصة يظهر فيها للعالم قوته البرية والبحرية، ويبرهن مرة ثانية أنه أقدر من السلطان في ميادين القتال. فأرسل قوة إلى كريد أولاً ثم جهاز حملة مكونة من ١٧٠٠٠ جندي سافرت على ١٠٠ نقالة ويصحبها ٦٣ قطعة حربية من السفن التي كانت في حوزته، وقد جعل الرياسة لابنه إبراهيم باشا ورياسة الأسطول لصهره محرم بك.

وذهب الأسطول أولاً إلى جزيرة «رودس» فانضم إلى الأسطول حركات الحملة العثماني وشجعه على الخروج والمخاطرة، واقتحم الأرخييل على الرغم من المصرية تعقب سفن اليونانيين لهم، وكان الأسطول أقوى أسلحتهم ولكن إبراهيم اضطر إلى الالتجاء إلى جزيرة «كريد» وبقي بها مدة أصاح فيها أحواله وانتهاز فرصة منازعات اليونانيين بسبب بأسهم من تعضيد أوربا لهم بعد أن منوا أنفسهم بذلك زمناً طويلاً. فخرج إبراهيم في أوائل سنة ١٨٢٥ وتمكن من الإفلات من سفن اليونانيين ونزل بميناء «مودون»

وكان نزول الجنود المصرية على أرض «المورة» فاتحة عهد جديد إذ كان مستحيلاً على اليونانيين مقاومة جيوش إبراهيم المدربة على النظام الحديث فأخذت انتصارات الأتراك والمصريين تتوالى في ١٨٢٥ و ١٨٢٦ و اخضع إبراهيم «كوردون» ثم «نوارين» «وتريبولتزا» وحاصر «نوبلي» مركز قيادة الثورة، ولكنه ارتد عنها ولم يبق من «المورة» غيرها. كذلك كان رشيد باشا يحاصر «مسولنجي» (١٨٢٥) فلما أعياه فتحها طلب إلى إبراهيم باشا المساعدة، فتقدم إبراهيم بعد استئذان أبيه وكان اليونانيون

مستميتين في الدفاع عن هذه الميناء ولم يتمكن ابراهيم من فتحها إلا بعد حصار دام من أول الأمر خمسة عشر شهراً وسقطت في ابريل ١٨٢٦ بعد أن هلك ثلاثة ارباع سكان المدينة. وبعد «مسولنجي» سقطت «أثينا» (يونيه ١٨٣٧) وبذلك خضعت اليونان ولم يبق لهم إلا بعض جزر الأرخيبيل «ونوبلي» عاصمتهم، فأنحطت حالتهم الأدبية وتنازعوا أمرهم بينهم ولم ينقذهم من الفناء إلا شيثان : تدخل أوروبا وضعف تركيا الداخلي، وكان السلطان قد قضى على جنود الانكشارية عن آخرهم في سنة ١٨٢٦ لما شاهده من فوقان الجنود المصرية، وبدأ بتنظيم جنود جديدة لا يرجى صلاحها للحرب إلا بعد سنين

« تدخل الدول »

لما ظهرت حركة الاستقلال اليوناني كانت المبادئ السياسية السائدة في أوروبا لا تتفق البتة مع آماني الثوار اليونانيين فبادىء المحالفة المقدسة صريحة بشأن الشعوب التي تثور ضد ملوكها وحكوماتها . ولم يكن ينتظر من المؤتمر الدولي في أوروبا أو من ممثله « مترنخ » أن يجذب الثورة ضد السلطان ، فالثورة ضده لم تخرج عن كونها ثورة ضد صاحب الحق الشرعى على أى حال ، على الرغم من أن السلطان لم يكن من الموقعين على المحالفة المقدسة ولا من المشتركين في المؤتمرات الدولية .

وكانت الدول في أول نشوب ثورة اليونان مشغولة بمسألتى إيطاليا واسبانيا وما حصل فيهما من التغييرات الحكومية فكان اهتمام الدول ومن بينها روسيا بشأن الحالة في الغرب عظيماً . فلما قام اليونانيون رأوا

الدول انه وان كان الأمر يقتضى التدخل فى جانب صاحب الحق الشرعى وهو السلطان وفقا للمبادئ الموضوعة منذ سنة ١٨١٥ فعلى الأقل يجب عليها أن تلزم الحيدة حتى تأتى الحرب بنتيجة فعلية . نعم كان الروس والاسكندر متحفزين للوثوب على عدوهم القديم تعصيذا لأخوانهم فى الملة ، وبالفعل أرسل الاسكندر انذارا نهائيا للباب العالى وسحب سفيره من القسطنطينية ولكن « مترنخ » « وكسلى » وزير خارجية انجلترا سكتنا من روع الاسكندر واظهر له الخطر الذى قد يحدث على أثر دخول الاسكندر فى جانب الثوار ضد السلطان ، فاذعن لسياستهما ولم يشأ الدخول فى جانب الثوار وخاصة لما رأى أن افكار الثوار متجهة نحو الاستقلال ، وظل كذلك إلى ان مات فى ديسمبر سنة ١٨٢٥ .

خطة كاتنج

كذلك مات « كسلى » متحرراً فى سنة ١٨٢٢ وخلفه فى وزارة الخارجية « جورج كاتنج » وكان سياسيا جريئا صريحا ، من خطته مناوأة مؤتمر الدول ومنعه من التدخل فى الشؤون الداخلية للدول الصغيرة ، فأدت حدة سياسته تدريجا إلى عدم اشتراك انجلترا مع دول وسط أوروبا فى قراراتها وجعلته يعلن اعتراف انجلترا باستقلال مستعمرات اسبانيا فى امريكا سنة ١٨٢٤

أما سياسته إزاء المسألة اليونانية فانه مع عطفه على الثوار لم يتدخل فعليا فى جانبهم ، وكان يعلل نفسه بأن اليونانيين لا بد أن ينتصروا على الاتراك نهائيا فتستقل اليونان من غير تدخل الدول .

اما مترنخ الوزير الاكبر للنمسا فلم تكن له إلا سياسة واحدة فى الشرق وفى الغرب وهى سياسة المحافظة على القديم وإخماد الحركات القومية

خطة النمسا والدستورية واحترام الحقوق الشرعية وأصحابها سواء كان صاحبها « فردينند وفرنسا السابع » ملك اسبانيا أو « محمود الثاني » سلطان تركيا، لذلك كانت مساعدة النمسا للاتراك ضد الثوار اليونانيين أقرب من نقيض ذلك وخاصة لاتصال البلقان بأهللك النمسا . أما سياسة فرنسا فكانت حكومة ملكها « شارل العاشر » تريد اكتساب ثقة الشعب ملكيين وجمهوريين بالدخول في جانب اليونانيين انتصارا للشعوب الضعيفة من جهة وتأيداً للمسيحيين ضد الاتراك من جهة أخرى . أما بروسيا فكانت سياستها هي عين سياسة مترنخ ، لأنها لم تكن لها مصالح ذات شأن في البلقان . هذه هي سياسة الحكومات

أما شعوب أوروبا فكانت منذ الساعة الأولى تعطف على اليونانيين عطف الشعوب الاوربية على وبالذخائر وبالرجال المتطوعين، ومن أشهرهم اللورد « بيرون » الشاعر الانجليزي الذي مات أثناء حصار « مسولنجي » والكونولونيل « فابشير » الفرنسي .

ولا غرابة في ذلك فاليونان في نظر أوروبا أم الحكمة ومنبع العرفان وهي البقية الباقية من المدينة القديمة ذات الفضل العظيم والأثر الحمود في مدينة أوروبا الحديثة، وهي البلاد التي انبثق منها نور الحرية والديموقراطية الأولى فكان حقاً على أوروبا أن تسدد جزءاً ولو صغيراً من دينها السابق غير أن الرأي العام في أوروبا كان وقتئذ وفي هذه المسألة يعمل مدفوعاً بعواطفه ولا يعلم الحقيقة التي لا مراء فيها وهي أن اليونانيين الحديثين قوم قد امتزجوا بالأمة السلافية وتطبعوا بطابعها فكانوا إلى الهمجية أقرب منهم إلى المدنية ولم يتميزوا من باقي الأمم السلافية في شيء . فان البيئة

الجغرافية واحدة وقد أثرت في الجميع، اللهم إلا اليونانيين الذين رحلوا عن بلادهم وتعلموا وامتزجوا بالأُم الأخرى فانهم حقيقة كانوا ذوى ثروة ونشاط ومقدرة .

على أن عطف شعوب اوربا على اليونانيين لم ينقذهم من الأذعان لسلطان ابراهيم باشا والعثمانيين، وكان محمد علي قد أرسل المدد لابنه ابراهيم تخافت حكومات اوربا أن تكون عاقبة تغلب المصريين في بلاد اليونان أن ينقرض اليونانيون وتثبت أقدام المصريين في تلك البلاد، فأصبح التدخل لا بد منه وخاصة من ناحية روسيا .

خطة القيصر

وكان القيصر نيقولا الأول الذي خلف القيصر اسكندر أقوى مراسلاً نقولا الاول من سلفه مقداما ولم يكن من رأيه التمسك بمبادئ المحالفة المقدسة لأنه لم يتقيد كخلفه بقرارات سنة ١٨١٥ وما بعدها . وكان من رأيه الصريح التدخل ضد الأتراك فأرسل انذاراً نهائياً بشأن شروط لمعاهدة « بوخارست » لم ينفذها الباب العالي، ولم يقو على التصريح بذكر المسألة اليونانية . فلما علم « كاتنج » بذلك خاف أن يؤدي الأمر إلى تدخل روسيا بمفردها في حل المسألة فيكون لروسيا النفوذ الأكبر في البلقان، فأرسل الدوق « وانجتون » سفيراً لدى روسيا ليعمل على توحيد الأغراض فاتفقا مبدئياً في أبريل سنة ١٨٢٦ على أن تمنح اليونان الاستقلال الداخلي وتبقى السيادة لتركيا .

ومقابل هذا الاتفاق سمعت انجلترا لدى الباب العالي بأن يسرع في الاتفاق مع القيصر على تنفيذ شروط معاهدة « بوخارست » وفعلاً ووفقى على ذلك باتفاق « أكرمان » سنة ١٨٢٦ وبمقتضاه أصبح للروسيا حق في

ولا يتي الدانوب لا يقل عن حق تركيا، وأخذت روسيا بعض بلاد في جنوب القوقاز، وأصبحت الملاحة حرة في البحر الأسود، ووافق السلطان على ما نالته الصرب من الاستقلال.

ولكن المسألة اليونانية كانت تتطلب النظر فيها بسرعة فعمدت إنجلترا والنمسا إلى نصيح الباب العالي بقبول الاتفاق المبدئي (ابريل سنة ١٨٢٦) بين إنجلترا وروسيا ولكن الحكومة العثمانية أبدت بدل الموافقة لومها للدول لأنها لم تراعى مبادئ المحالفة المقدسة ولأنها شجعت الثوار على الخروج على صاحب الحق الشرعي وانكرت عليهم حقهم في التدخل في مسائل الدولة الداخلية. وكانت روسيا تتحين الفرص لإعلان الحرب والتدخل في المسألة فعمدت اصرار السلطان على عدم الاتفاق مع الدول مبرراً للحرب. كذلك اتخذت الوزارة الانجليزية منذتولي «كاننج» رياستها موقفاً هجوماً فلم تشأ أن تستسلم لمأطلة الباب العالي، وعلى ذلك سرعان ما تم الاتفاق بين روسيا وإنجلترا وفرنسا.

أما النمسا فقد أعلنت مبدأها الذي لا تحيد عنه وهو أنها لا تتدخل
معاهدة
لندره سنة ١٨٢٧
للسلطان ودياً بأن يمنح اليونانيين مطالبهم. لذلك لم يتحرك «مترنخ» وترك الدول الثلاث توقع على المعاهدة، وفي مقدمتها يقولون «انهم عقدوا هذه المعاهدة لمنع الاضرار التي لحقت بمتاجريهم في الشرق واجابة لدعوة الثوار وتلبية لنداء الانسانية. وبمقتضى هذه المعاهدة تقرر أن تفصل اليونان عن تركيا نهائياً وأن تبقى السيادة لتركيا من غير أن تدفع اليونان الجزية وان تعلن الهدنة بين المتحاربين تنفيذاً لشروط المعاهدة والاتدخلت الدول

بالقوة ولم يعجل الباب العالي الا شهرين للأجابة

ولما رأى الحلفاء ما ينتظر من عناد الباب العالي واصراره على عدم
الأذعان قرروا سرّاً ان يرسلوا بعض أساطيلهم الى شواطئ اليونان
استعداداً للتدخل بالقوة فجاء أمير البحر « كدرنجتون » أولاً على رأس
الاسطول الانجليزي وألقى مراسيه عند « نوارين » . ثم جاء الفرنسيون
بقيادة أمير البحر « ريني » والروسيون بقيادة « هيدن » وبدأت المفاوضات
في الحال مع ابراهيم باشا وكان وافقاً باسطوله العثماني المصري داخل خليج
« نوارين » ، أما الثوار فحين جاءهم خبر ابرام المعاهدة عدوه انتصارا باهرا
لهم بعد أن كانوا قد وصلوا الى حالة سيئة للغاية وخاصة بعد أن سقط
حصن « اثينا » عقب « مسولنجي » فدبت في نفوس الثوار روح جديدة
ورحبوا بالمعاهدة حال عرضها عليهم. أما الباب العالي فانه بأيعاز من النمسا
توقف وامتنع عن الاعتراف بالمعاهدة فهدد باستعمال القوة ولكن لم يجد
ذلك نفعاً وفات الوقت من غير رد أو تساهل من قبل الباب العالي .
فوقف الاسطول المتحد أمام ميناء « نوارين » واتفق مبدئياً على ان تبقى الحالة
كما هي حتى تصدر أوامر جديدة . ولكن حصل سوء تفاهم بين الاسطولين
وكانت تعليمات أمير البحر « كودرنجتون » تقضى باستعمال القوة اذا دعت الحالة
فدارت واقعة نوارين (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧) وقضى على الجزء الاعظم
من الاسطول العثماني المصري . فتشجع الثوار وأخذوا يستردون مكاتبتهم .
أما خبر « نوارين » في تركيا فقد أتى بعكس المطلوب منه ، فان الباب
العالي استشاط غضباً عند سماعه بالكارثة وطلب تعويضاً كبيراً من الدول
الثلاث ، ودعا السلطان اجتماعاً عاماً من كبار الامة وقرأ عليهم منشوراً

موقف

الحلفاء

واقعة

« نوارين »

نسب اليه للروسيا خاصة التحريض والمؤامرة ضد الباب العالي ودعا
 المسلمين الى قتال روسيا عدوة تركيا ومسببة محنها، فلم يسع التقيصر الا
 اعلان الحرب في سنة ١٨٢٨. أما في انجلترا فقد حدث تغيير في سياستها
 بسبب موت «كاننج» في أغسطس سنة ١٨٢٧ وهو صاحب سياسة الهجوم
 وجاء بعده «ولنجتون» وهو من المحافظين الذين من سياستهم الحرص على
 بقاء كيان تركيا. لذلك لم تواصل الحكومة الانجليزية سياسة «كاننج» فتسعى
 في تنفيذ معاهدة لندره سنة ١٨٢٧، بل أبدى الملك «ويليم الرابع» رسمياً في
 خطبة العرش (يناير سنة ١٨٢٨) أسفه على ما حصل في واقعة «نوارين»
 مشيراً الى هذه الحادثة بقوله «الحادث النحس». لذلك قصرت انجلترا
 مساعدتها في المسألة اليونانية على أن تكون ادية فقط، أما فرنسا فأرسلت
 جيشاً بقيادة المارشال «ميزون» لمراقبة اخلاء «الموره» من الجيوش المصرية
 أما محمد علي فقد كسب لنفسه مركزاً بين الدول لم يكن ليحلم به اذ
 بعد الواقعة اضطرت الدول الى مفاوضته مباشرة ولا بد أن تكون الدول قد دهشت
 لما رأته من استعداد وموارد الباشا، ولما آس محمد علي من الدول رغبة في
 مصادقته رأى أن أصراره على المقاومة وانها كقواه واضعافه لمركز مصر
 واستهدافه للخطر من اجل السلطان ليس من السياسة في شيء، لذلك لما
 دخلت الجنود الفرنسية «الموره» بقيادة «ميزون» في أغسطس سنة ١٨٢٨
 لم يقع بين الجانبين نضال أو كفاح وتضافي الجيشان وتحابا

تحسين مراكز
 وكانت المفاوضات في غضون ذلك دائرة بين محمد علي وأمير البحر
 الانجليزي ويتضح منها جلياً مقدار تحسين محمد علي لمركزه الدولي. فقد
 كتبت اليه الحكومة الانجليزية تبدي عظيم أسفها على ما لحق الاسطول
 مصر
 الدولي

المصري من الخسارة بسبب واقعة «نوارين» وتبدى رغبته في أن تكون علاقاتها دائماً ودية مع الباشا. ثم أفضت اليه الحكومة بأن الاخبار الواردة حديثاً تدل على ان الباب العالي قد يستمر في مقاومة الحلفاء الى درجة الدخول في حرب علنية، فاذا دخلت إنجلترا في حرب ضد تركيا فان حكومة إنجلترا تعتبر مركز محمد علي كما يأتي :

« ان جلالة الملك، من غير تدخل منه في العلاقات بين الباشا والسلطان الذي يعترف له الباشا بحق السيادة، مستعد للاعتراف لسموه بالحيادة التامة متى تعهد هو أيضاً بمرعاتها مراعاة تامة اذا ما نشبت الحرب بين الحلفاء والدولة»^(١) لذلك لم يتردد محمد علي ساعة واحدة ووقع على اتفاق الاسكندرية ٦ أغسطس سنة ١٨٢٨^(٢) وأرسل يأمر ابراهيم بالجلاء عن «الموره» من غير انتظار لأمر السلطان فتم ذلك. وفي ٢٩ ديسمبر وصل محرم بك الى الاسكندرية ومعه باقى الاسطول وهو ٣٨ قطعة و ٢٤٠٠٠ جندي، وأصبح

(١) سجلات وزارة الخارجية بلندن (مصر) من وزارة الخارجية الى

«سولت» في ٧ ديسمبر سنة ١٨٢٧

(٢) وهالك ما يخص نص الاتفاق الذى تم بين أمير البحر كدرنجتون ومحمد علي

(١) يتعهد محمد علي برد جميع الرقيق اليوناني الذى أره له جنوده الى

ممتلكاته بعد واقعة «نوارين» وقبلها

(٢) يتعهد أمير البحر كدرنجتون بارجاع الاسرى المصريين ويرد

سفيفتين مصريتين في مياه «مودن»

(٣) تخلى الجنود المصرية بلاد الموره على سفن مصرية يرسلها محمد

علي ويحرسها الحلفاء

وهذا اتفاق غريب في بابه لانه عقد مع تابع للسلطان باعتباره دولة مستقلة

وشروط الاتفاق مخالفة كل المخالفة لرغبة صاحب السيادة

محمد علي في حالة سلم مع دول أوربا وترك الباب العالي وحده أمام روسيا
 وكان القيصر قد أعلن الحرب على تركيا في إبريل سنة ١٨٢٨ ولم تكن
 تركيا على استعداد تام بسبب تغيير نظام الجندية، ومع ذلك قد انتصر الحرب
 الأتراك سنة ١٨٢٨ على القيصر الروسية الروسية
 ولكن عاد القيصر فعين الجنرال «ديتس» الذي التركية على نهر الدانوب
 تمكن من اختراق البلقان بقوة صغيرة فدخل «أدرنه» ولم يكن معه إلا سنة ١٨٢٨
 ١٥٠٠٠ جندي. فلو أن السلطان واجهه بجيش أيا كان عدده لدارت
 الدائرة على الروس بلا مرأى. ولكن اضطربت أعصاب وزراء الباب العالي
 لما علموا باقتراب الجنود الروسية فلم يشاءوا إلا الصلح، وعجبت روسيا
 بعقد «معاهدة أدرنه» سنة ١٨٢٩ وبها وافق السلطان على قرار معاهدة
 لندره بشأن اليونان. وأصبح النفوذ الروسي عظيما في مجالس الباب العالي.
 قال الوزير الروسي «نسلود» قد كان يمكن الروسي أن تقضى على الدولة العثمانية،
 ولكن بقاء هذه الدولة تحت حماية روسيا أنفع لها سياسيا وتجاريا من
 ضم هذه الأملاك أو تجزئتها واستبدالها بحكومات مستقلة لا يرضى عليها
 زمن طويل حتى تنافس روسيا في الثروة والقوة والتجارة»^(١)

هذا يفسر عدم انتصار روسيا لمطالب أهل البلقان الكاملة في
 الاستقلال ليظل البلقان تحت نفوذها، وخشيت الدول أن يزداد نفوذ روسيا
 في اليونان بعد معاهدة أدرنه وكان «كبودسترياس» وزير روسيا اليوناني
 السابق رئيسا للحكومة اليونانية المؤقتة فسمت إنجلترا وفرنسا لدى الباب العالي
 في أن تستقل اليونان استقلالاً تاماً. وتم ذلك في سنة ١٨٣٠ باتفاق الدول الثلاث

(١) راجع مسألة الشرق «لديبول» ص ١٢٨

ويلاحظ أن محمد علي لم يتقدم لمساعدة السلطان في هذه الحرب على الرغم من إلحاح الباب العالي عليه بأرسال جزء من جيشه . غير أن محمد علي لم يسمع إزاء هذا الطلب إلا أن ما طل واعتذر ببعد المسافة بطريق البر بين مصر وميدان الحرب ، لعدم وجود أسطول لنقل جنوده أولاً ولوقوف أساطيل الحلفاء بالمرصاد . ثم اعتذر بتفشى الوباء في مصر وفي الشام . ، وأخيراً اكتفى بأرسال مليون ريال للباب العالي . ولم توقع الدول على محمد علي قوانين الحصر فظلت موانيه مفتوحة وتجارته سائرة كالمعتاد . ولم تضطهد الأروام في مصر كما حصل في جميع أنحاء الدولة في ذلك الوقت . أما شدة ابراهيم في «المورة» فيظهر أن كتاب الأفرنج قد غالوا فيها مغالاة تتفق مع عواطفهم نحو اليونانيين ، والحقيقة أن ابراهيم عامل اليونانيين على حسب الإجراءات الحربية التي كانت تتخذها أية دولة متمدينة في ذلك الوقت . وأهمته أوروباً كذلك بأرسال أهل اليونان كرفيق إلى مصر ولكن ذلك غير صحيح فقد كتب ممثل انجلترا العام إلى وزارة الخارجية في هذا الموضوع يقول « ان الرقيق اليوناني الذي أرسل إلى مصر لم يكن أرسله ابراهيم باشا ولا دخل له مطلقاً في وجود هذا الرقيق بمصر . إذ القانون العسكري العثماني يجعل الأسير عبداً لا أسره لا للقائد العام ، فيظهر أن عدداً عظيماً قد باعته الجنود المصرية إلى أناس أرسلوه إلى مصر لبيع فيها . ويبلغ عدد الرقيق اليوناني بمصر ٣٠٠٠ وقد اشترت الجمعية الأنغريكية المسيحية نصفهم والباشا يجتهد في تحرير عدد عظيم من الباقين »^(١)

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية (مصر) من «سوات» إلى وزارة

الخارجية في ١٢ أغسطس سنة ١٨٢٦

الفصل السادس

بين الباشا والسلطان

أثر انفصال إن تجزؤ الدولة العثمانية بهذه الطريقة وانفصال أملاكها عنها لم يكن أملاك الدولة بالشئ الغريب إذ ليس من المدهش أن تتساقط الحجارة من البناء المتداعى المنهار، لذلك يمكننا أن نقول أن انفصال الصرب وأمارات الدانوب، واليونان عاجلاً أو آجلاً كان عملاً طبيعياً لم يكن منه مناص لأنه لم يكن إلا نتيجة لحركات داخلية قام بها أهل هذه الأقسام أنفسهم بحركهم الشعور القومى أولاً والتحرىض الأجنبى ثانياً، وليس هناك معنى فى أن تبقى الأقوام تحت سيطرة من لا قدرة له على المحافظة عليها.

غير أن الدول بمساعدتها هذه الأقسام على الانفصال من جسيم الدولة سواء كان ذلك بالتحرىض أو بالمساعدة الفعلية قد أخرجت مركزها إلى الخارج ويظهر أن حب الدول « لكلفت » المورة والبلقان على العموم قد أنساها أهل الشرق وولاته نسوا أنهم بأذلالهم السلطان وبشدهم أزر الشائرين عليه قد وضعوا مثلاً جديداً يحتذ به غيرهم من رعايا السلطان ولعلمهم تخيلوا أن أهل الشرق دون أهل الغرب تفكيراً وشعوراً وتعاموا فى ذلك عن الحقيقة الظاهرة وهى أن رعايا السلطان مسلمين كانوا أو مسيحيين شرقيين أو غربيين كان نصيبهم من ظلم الولاة وعسفهم واحداً متماثلاً.

نسيت الدول أنه إذا جرت على قاعدة وطبقها على مسألة أو أكثر

كان حقاً عليها وعدلاً أن تطبق القاعدة في الأحوال المتماثلة التي قد تنشأ في الدولة في المستقبل، وأنه إذا لم تتبع القاعدة الأولى يكون جزاؤها الازدراء وعدم الاكتراث.

لم يرغب الدول على العدول عن خطتها العدائية ضد السلطان إلا محمد علي، فهو الذي أجبر الدول على أن تردد النظرية القديمة القائلة بحفظ كيانه الدولة العثمانية. ولم يكن محمد علي أول من قام يعارض الباب العالي عقب الثورة اليونانية فقد سبقه على باشا حاكم « يانية » في أول عهد الثورة وتمرد ولاية « بغداد » و « عكا » و « شقرة » ولكن لم يكن في قدرة واحد من هؤلاء، أن يجرد السيف طويلاً ضد السلطان. محمد علي هو وحده الذي قدر له أن يضرب قلب الدولة ويرغم السلطان على الاتفاق معه على حسب شروطه الخاصة. كل ذلك على مرأى من الدول وضد رغباتها الأكيدة.

ولما انتهى محمد علي من حروبه في بلاد العرب والسودان والمورة خافراً كان اسمه قد طبق الآفاق وصار ذكر منجد مكة والمدينة على لسان كل المسلمين وأصبح محمد علي في مركز يمكنه من معارضة السلطان إذا شاء ذلك. ولكن محمد علي كان له من النظر السياسي الصائب ما جعله يحافظ على علاقته بالدولة العثمانية. ألم يكن له من ذلك ضمان صيانة أملاكه التي لم تكن إلا جزءاً من الدولة العثمانية المقول بضرورة حفظ كيانه واستقلالها؟ ولقد وجد محمد علي من مركزه في الدولة حصناً منيعاً يمكنه من مواصلة سياسته التي كانت أبداً ترمي إلى علو منزلته وامتداد نفوذه في الدولة تحت ثوب إخلاصه الشفاف

ولما انتهت الحرب اليونانية وانسحبت الجنود المصرية من « المورة »

وتمكنت أوربا من تنفيذ كلمتها في مصلحة اليونان ساء السلطان من محمد
على عدم مساعدته للدولة في حربها ضد الدول واكتفاؤه عند نشوب الحرب
الروسية التركية بأرسال إعانة مالية بدل حملة عسكرية . لذلك اشتد حنق
السلطان على محمد علي واضطربت في صدره نيران الحسد لما ظهر به محمد
علي من القوة ، وأخذ يوقع بين محمد علي وإبنه إبراهيم ولم يكفى ، محمد علي
على خدماته بشئ ، بما وعد به إلا حكم جزيرة «كريد» . كل ذلك أوغر صدر
محمد علي ضد الباب العالي وجعله يفكر في مشروعات كلها طمع وأناية .
مراجعة محمد علي تراجع خطته السياسية نحو الباب العالي ، وبينما كان
على خطته الباب العالي يواصل الحرب ضد روسيا كان محمد علي يعد العدة لأجل
ما عسى أن يحصل في المستقبل ، فلما عادت الحملة من المورة واستقرت
الجنود بمصر شرع إبراهيم باشا يهيئ عقول الضباط لاستقبال السياسة
الجديدة ضد الباب العالي . فقد قال في خطبة له أثناء وليمة للضباط :
« ماذا استفدنا أنا وأنتم من السلطان : ألسنا في الحقيقة كلنا أولاد محمد
علي الذي ربانا وعلمنا ؟ ألم نأكل جميعاً من خبزه ؟ إن مصر حق لمحمد علي
حق اكتسبه بالسيف ولا نعرف لنا مملكا غيره » (١) . وفي تلك الأيام زار
الأمير بشير حاكم لبنان ونزل ضيفا مكرما عند الباشا ولا بد أن يكون قد
دار بين الاثنين اتفاقات ودية ، ويظهر أن محمد علي كان يتأهب للتحفز إذا
حدث ما يبرر هذا العمل .

خلق السلطان
محمود الثاني أما لدى الباب العالي فلم تكن دلائل الشقاق والأستبداد أقل منها

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) من ممثلي إنجلترا العام ٨ يناير

عند الباشا . وقد ساعد على اذكاء نار الخلاف ما كان في خلق السلطان محمود الثاني من الشذوذ . فقد كان محمود الثاني سلطاناً مستبدّاً سريع الانفعال تارة شديد البطش وأخرى شديد الكآبة والحزن . يقابل تذبذبه بين القسوة واللين عناد شديد يتولاه في ظروف معينة . وكان يعهد بحكمومته إلى اتباعه الذين يشملهم بأحسنه فكان يولى ويعزل ويسجن كما شاءت تقلبات أهوائه . ومع ذلك كان محمود الثاني حقيقة سلطاناً قوياً يريد لأمته كل خير وصالح ، ولكن لسوء حظه لم يسلك الطرق المناسبة التي توصله إلى أغراضه إذ اتبع طرقاً قهرية همجية خالية مما يحبذها ويقر بها لدى الشعب . لذلك لم يصادف محمود الثاني في أكثر اصلاحاته إلا المعارضة الشديدة والأخفاق ، فكان محمود الثاني يتأكل قلبه حسداً من محمد علي لأن هذا نجح حيث أخفق هو . ومن شدة حسده لمحمد علي أن دعاه لحرب الوهابيين ثم لحرب المورة لعله بذلك يفنى جزءاً كبيراً من قوته وثروته ، ولكن للدهر سخرية غريبة فبدل الضعف الذي كان يرجوه السلطان لمحمد علي من جراء الحروب الطاحنة التي اشتبك فيها ناله منها الفخار والصيت الذائع ولم يجن السلطان منها إلا الخسارة والذلة .

محمد علي

ووالى عكا

لذلك أصبح محمود الثاني وقلبه مفعم بالضعينة بحب الانتقام من محمد علي . فلما شكاه عبد الله باشا والى عكا إلى السلطان من تهديد محمد علي له بسبب عدم إذعانه لأوامر الباشا إذ رفض أن يصدر إليه الأخشاب اللازمة لأسطوله وأن يعيد إليه بعض الفارين من القرعة العسكرية والضرائب ، عضد السلطان الوالى وشجعه على معارضة رغبات الباشا فعزم محمد علي أن يتخذ من هذا التحرش سبباً لتنفيذ مشروعه . اراد

محمد على كغيره من كبار الفاتحين أن يوسع رقعة ملكه على حساب جيرانه الضعفاء، وكان يرى في بلاد سوريا جزءاً متمماً لمصر وبدونه لاتأمن مصر من غائلة العدو المهاجم من الشرق، ورأى الباشا أن مصر بلد عديمة الغابات تلزمها الأخشاب من أحراش سوريا لبناء أسطولها التجارى الحربى

فكرة ضم الشام لمصر

وكان قد افهمه مستشاروه من الفرنسيين . وهم الاخصائيون في مسائل الحدود ، ان حدود مصر الطبيعية من جهة الشرق هي جبال « طوروس » على أبواب آسيا الصغرى لا صحراء العرب . وفي الحقيقة لم تعدم الحكومات القوية التى استولت على مصر طريقة لضم الشام إلى أملاكها . وليس هناك أدنى شك فى أن محمد على كان مقتنعاً بصحة دعاوى القائلين بضم جميع بلاد سوريا ، غير أنه كان فى بادىء الأمر متواضعاً فى طلبه فلم يصمم إلا على ولاية عكا .^(١)

وانتهز الباشا فرصة اشتباك السلطان فى ثورة قامت فى «البوسنة» فقدم إنذاراً نهائياً للباب العالى يهدد فيه عبد الله والى «عكا» بالعقاب وباستعمال القوة ضده إذا لم يذعن لطلباته، وخاف السلطان مغبة هذا الإنذار بسبب قيام الثورات الداخلية فى بلاده ففتح باباً للاتفاق مع محمد على ، ولكن ما كاد يرسل الباب العالى رسله اليه حتى بلغت أخبار نزول حملة إبراهيم باشا إلى الشام وكانت قد أخذت الثورة فى «البوسنة» فلم يجد الباب العالى بأساً من تحدى محمد على ومنازلته .

قيام الحملة الشامية

وفى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٣١ قامت طلائع الحملة من مصر بطريق العريش ، وفى ٨ نوفمبر احتل الأسطول وعلى رأسه القائد العام إبراهيم

(١) راجع مقدمة كتاب « نظرة عامة فى مصر » لسكلوت بك

باشامينا «يافا» ، وفي ٩ ديسمبر بدى حصر «عكا» وفي هذه الأثناء كان قد وصل مندوب من قبل السلطان إلى الاسكندرية وهناك أوضح له محمد على خطته بكل صراحة . قال محمد على : «بعد أيام قلائل ستقع «عكا» فى يدي فأذا رضى السلطان وقفت عند هذا وإذا لم يوافق زحفت جنودى على «دمشق» فأذا وافق السلطان على أن أضمد دمشق وقفت عند ذلك وإن لم يرض أخذت «حلب» فإذا لم يوافق السلطان فمن يدري ماذا يكون ؟ فعرف المندوب إصرار محمد على وفهم استعداداته لتنفيذ أغراضه للنهية فنصح للباب العالى بالأذعان لطلب محمد على وكان جزاء صراحته أن سحب من اسكندرية وسجن . وأخذ السلطان يعد جيوشه بكل همة لمزاولة حرب لم يكن لها على إستعداد .

ولكن قبل أن يتأهب الجيش التركى للعمل بقيادة حسين باشا الذى عينه السلطان قائداً للجيش وواليا على مصر بدل محمد على ، كان قد سقط وسير الحملة حصن عكا فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ فى أيدي المصريين بعد حصار طال ستة شهور تقريبا . وإذا ذكرنا أن نابليون تقهقر أمام حصن عكا فهمنا أهمية هذا الانتصار لابراهيم باشا ، ولكن يجب أن نذكر أيضاً أنه لم يكن هناك أسطول معاد يعمل ضد ابراهيم فى ميناء «عكا» كما كان يعمل «مدنى سمث» ضد نابليون

وكان لسقوط عكا وانتصار محمد على دوى نبه العقول من غفوتها فقام الناس ضد العثمانيين مرحبين بالجيوش المصرية اينما حلت ، وتشجع الامير بشير فأعلن صراحة انضمام أهل الجبل لمحمد على وأتى الناس من كل فج يعلون قبولهم للحكم المصرى ، فبينما كان ابراهيم يحاصر «عكا» كانت

قد استولت الجنود المصرية على «بيت المقدس» «وطرابلس» «وبيروت» ولما سقطت «عكا» أرسل محمد علي مندوباً للمفاوضة مع الباب العالي بشأن شروط الصلح طالباً فرماناً بتوليته «سوريا»

خطة السلطان

وكان السلطان في ذلك الوقت قد أرسل قراراً بعزل محمد علي وابنه من ولايتيهما وقراراً آخر بطردهما خارج القانون ، فلما علم محمد علي بذلك أرسل من قبله والياً على «دمشق» ودخلها إبراهيم باشا بلا مقاومة ثم اقترب من «حمص» وهزم الأتراك شر هزيمة ودخل «حمّة» وتقهقرت جيوش جيوش السلطان إلى «انطاكية». ولما اقترب حسين باشا القائد العام من حلب أوصدت في وجهه الأبواب ورحل عنها إلى «اسكندرون» فدخل إبراهيم باشا «حلب» في ١٥ يولييه بدون مقاومة وتقابل هو وجيوش حسين باشا في مضيق «بيلان» بين انطاكية واسكندرونه فانهزم حسين باشا وترك جيوشه ومؤنثه وكل شيء وفر إلى «أطنه» أما إبراهيم فدخل انطاكية في أول اغسطس ثم فتح محمد علي باب المفاوضة للصالح ولما لم يصله الرد عزم على أن يسير نحو القسطنطينية بعد أن يتمكن إبراهيم من الاستيلاء على مفاتيح جبال الطوروس التي تفصل بلاد الشام عن آسيا الصغرى. ^(١)

انحياز الرأي ويظهر انه كان في نية محمد علي الأولى أن يقف عند هذا الحد، ولكن العام لإبراهيم لما تكرّر رفض السلطان لشروط محمد علي التي كان يقدمها عقب كل انتصار اضطر إبراهيم إلى أن يعبر الجبال وينزل في سهول آسيا الصغرى واحتلت الجنود المصرية أقليم أطنه على الساحل بناء على أوامر محمد علي .

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) المعتمد بركو إلى بالمرستون ٨ يونيو

ولما شعر القوم بوجود قوات محمد على بينهم انبعثت في قلوبهم الحماسة العظيمة وانهاالت على ابراهيم رسائل الترحيب وطلبات التخليص من نير الأتراك . فكتب سكان أقليم « قسطنطيني » الكائن في الركن الشمالى لآسيا الصغرى يقولون : « نحن سكان هذا القسم قد قررنا أن نهجر حزب الحكومة التركية التى عجزت عن صيانتنا والدفاع عنا ، ولما كننا نرغب فى أن تتمتع بالسعادة والسكون الشاملين للأقسام التى خلعت نير الحكومة ودخلت تحت حكمكم فنلتمس أن تقبلوا خضوعنا وأن تشملونا بحمايتكم ورعايتكم »

فتشجع ابراهيم باشا بهذا الشعور الذى ظهر من جانب الأهالى الاستعداد وتقدم إلى الداخل واحتل موقعا حريا فى غاية من المنعة عند « قونية » لمواقعة وكان قد هجرها الأتراك عند سماعهم بقدوم ابراهيم باشا ففضى ابراهيم « قونية » فصل الشتاء ومرّت جنوده فى الجهات المجاورة استعداداً لمقابلة الجيش العثمانى الجديد بقيادة رشيد باشا زميل ابراهيم فى حصار « مسولنجى » فى حرب المورة .

وكان رشيد باشا قد أخضع العصاة فى ألبانيا والبوسنة فكسب بذلك رضا السلطان الذى علق على تعيينه للقيادة أهمية عظمى . وفى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ دارت رحى القتال عند « قونية » وهزم الجيش العثمانى شر هزيمة وأسر القائد العام . وقد كانت خطته فى أول الأمر أن يتحصن فى نقطة منيعة ليحول دون وصول ابراهيم باشا قرب القسطنطينية وعند هذه النقطة ينتظر المهاجم . ولكن السلطان أرسل اليه أوامره بالتحرك لمقابلة المصريين ، وكان عدد الجيش العثمانى ضعف عدد الجيش المصرى

فكانت النتيجة وبالا على الجيش والساطان إذا أصبح الباب العالي لا حول له ولا قوة أمام محمد علي

المسألة الشرقية والدول

كان أثر انتصارات ابراهيم باشا السريعة المتوالية أن أثارت مخاوف السلطان محمود، ولما لم يكن هناك ولاء يرجى منهم المساعدة ضد محمد علي اجتهد السلطان بمساعي وزيره خسرو باشا أن يكسب دول أوروبا إلى جانبه، وذلك بأن يشوه سمعة محمد علي لدى الدول. ولم تكن دول أوروبا تعلم عن محمد علي إلا قليلا، ولو ان سياسة أوروبا لم تنس حماسه المصريين وهم يحاربون في المورة. أما «المريستون» وزير خارجية إنجلترا لم ينس قط ان المصريين أخذوا معهم إلى مصر ٣٠٠٠ يونانية بصفة أسرى.

غير أن الدول مع شدة رغبتها في حفظ كيان الدولة العلية ومساعدة السلطان لم تكن وقتئذ متفرغة للنظر في مشاكل الدولة، فكانت مسألة ثورة الأراضى المنخفضة و ثورة بولنده وحروب أسبانيا الداخلية والاصلاحات النيابية في إنجلترا تشغل بال سياسة أوروبا.

وكان الباب العالي قد طلب إلى سفير إنجلترا السير «استراتفورد كاننج»

السمى في

عقد معاهدة عقد محالفة بين تركيا وبريطانيا العظمى الغرض المباشر منها اخضاع محمد علي

بين تركيا ووعد الباب العالي أن يمنح إنجلترا أى امتيازات معقولة مقابل ذلك،^(١)

وانجلترا وأردف الباب العالي ذلك بأن أرسل سفيره في النمسا ليفاوض إنجلترا

(١) سجلات وزارة الخارجية : تركيا (سرى وخاص) من السير استراتفورد

كاننج في ٩ اغسطس سنة ١٨٣٢

خاصة في إرسال مدد بحرى تقوم تركيا بنفقاته . ولو كانت إنجلترا أجابت الطلب لحال المدد البحرى دون استيلاء ابراهيم باشا على « عكا » بسهولة ولعرقل مساعى محمد على بالشام، غير أن الوزارة البريطانية قررت رفض إرسال المدد مخالفة في ذلك رغبة الوزير « بالمرستون »، واضطرت الوزارة أن تعلن فيما بعد في مجلس العموم أنه لم يكن من المستطاع في حين اشتغال القوات الانجليزية في هولنده والبرتغال إرسال قوة بحرية تناسب مركز بريطانيا البحرى ^(١)

ورد الوكيل السياسى لدولة بريطانيا أمام الأستانة قائلاً ان المسألة أصعب مما يتصوره الباب العالى وان الحكومة البريطانية ستحتاج إلى وقت تجيب فيه ولكنها في الوقت نفسه سترسل إلى محمد على في أقرب فرصة معبرة عن الأسف الذى سببته خطته وعن أملها في أن يعقد الصلح مع السلطان مباشرة . وان الحكومة أرسلت معتمداً سياسياً « كولونيل كامبل » لأجل التشديد على محمد على بعقد الصلح وتفهمه بأن العبث بوحدة الدولة العثمانية لا يمكن أن يحدث بدون أن تتحرك إنجلترا ^(٢)

ففت في ساعد السلطان وزاد يأسه لما علم بهديد ابراهيم للقسطنطينية طلب واضطر أخيراً إلى أن يتنزل فيرسل في طلب الصلح من محمد على، وبأليت المساعدة من روسيا
الأمر وقف عند ذلك بل طلب المعونة من روسيا بعد أن أخفقت مساعى الباب العالى لدى إنجلترا التى زودته بالقول دون العمل .

أما روسيا فوجدت في المحنة التى وقع فيها السلطان فرصة لتأييد

(١) « حياة بالمرستون » الجزء الثانى ص ٣٥٨

(٢) سجلات وزارة الخارجية: الى مند فيل في ٥ ديسمبر سنة ١٨٣٢

نفوذها ووضع حمايتها الأديبة على البوغازات ، كذلك لم يكن من مصلحة
الروسيا أن ينتصر محمد على ويتفوق على السلطان فتنشأ حينئذ حكومة
قوية في القسطنطينية تحول دون بلوغ روسيا لأمانها ، فقد كتب «نسلرود»
وزير روسيا الى سفيره في الأستانة يقول : «انه اذا انتصر محمد على فان
النفوذ الفرنسي يزداد في القسطنطينية فتصبح هذه المدينة مأوى للذين
يتآمرون ضد حكومة روسيا . لذلك ترى روسيا في محمد على جاراً
قويًا منتصراً بدلاً من جار ضعيف مقهور »^(١)

وعلى ذلك أوفدت إلى القسطنطينية في ٢٢ ديسمبر مندوباً خاصاً وهو
القائد «موراثيف» فعرض على الباب العالي المساعدة الفعلية ضد محمد على
وفي ١١ يناير وصل المندوب إلى الأستانة ليهدد محمد على باسم القيصر
نيقولا بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا لم يقبل شروط الصلح المقدمة له
من لدن السلطان بوساطة المندوب خليل باشا الذي أوفده السلطان في
٧ يناير لمفاوضة الباشا . فوجئ محمد على من تدخل روسيا ، ويقول « سنت
جون » وهو شاهد عيان أن الباشا تأثر وجمع ٥٠٠٠٠ من المصريين لحضور
صلاة جامعة امام قصرة داعين الله بنصر الباشا ورجوع جنوده ظافرين
سالمين^(٢)

وقوف
ابراهيم عند
« كوتاهية »
وأدب ، ولكن لكي يرضى روسيا أرسل إلى ابراهيم يأمره بالوقوف

(١) « البسفور والدردنيل » لغريانوف ص ٣٠

(٢) « مصر ومحمد على » لسنة جون الجزء الثاني ص ٥٢٤

وهو في طريقه إلى « بروسه » فوقف عند « كوتا هية » بعد أن رفض أن يقف بناء على رغبة « دي فارن » المعتمد السياسي لفرنسا بالقسطنطينية قائلاً انه لا يقف ولا يتحرك إلا على حسب أوامر ورغبات أبيه . وعندئذ كان السلطان قد طلب إلى روسيا إرسال المدد خوفاً على عرشه أن يسقط من جراء الفتن الداخلية التي كان يؤجج نارها محمد علي باشا فلبت روسيا طلبه . وفي ٢٠ فبراير رست القوة البحرية الروسية في البسفور أمام « ترايا » حيث دار السفارة الانجليزية ، فاشتد قلق إنجلترا وفرنسا من تدخل الروسي في روسيا الفعلية وانفرادها بالعمل ، وسارع سفير فرنسا الجديد أمير البحر بالبسفور البارون « روسين » إلى الاحتجاج أمام الباب العالي ونصح لوزير الخارجية بأن يجيب طلبات محمد علي في الحال حتى لا يعرض المملكة للخطر الذي لا بد أن ينجم من وجود الجنود الروسية بين الاهالي .

خطة الدول كانت الدول في هذه الآونة ترقب الاحوال وهي صامتة أثناء عراك محمد علي والسلطان فلم تتحرك قيد أنملة لايقاف الحرب ، ولكن لما كسب محمد علي الواقعة بدأت الدول تتعامل حتى اذا ما ظهرت روسيا بمفردها في الميدان أوجس باقي الدول خيفة وبدأ السياسة يتكلمون . وانه من السهل تلخيص سياسة الدول إزاء المسألة الشرقية .

كانت الدول تعتبر المحافظة على كيان الدولة ضرورة سياسية لازمة لتأييد السلم العام في أوربا ولما كان تهديد ابراهيم للقسطنطينية يعد عبثاً بكيان الدولة وجب على الدول التدخل . ولكن حال دون ذلك موانع : أولها اشتغالها باحوالها الداخلية كما ذكرنا أولاً . وثانيها انتصارات محمد علي السريعة التي لم تكن في الحسبان وثالثها أن الدول كانت تميل إلى جعل النزاع بين

محمد علي والسلطان مسألة داخلية لا ينبغي أن تعقدها الدول بشدخها
غير أن رسالة القائد « موارثيف » وقبول السلطان لمساعدة
الروسيا أثارا الشكوك في قلوب الدول الأخرى، حتى « مترنخ » نفسه
على الرغم من تفاهم القيصر معه لم يوافق على وجود الأسطول الروسي
بالسهور . أما إنجلترا وفرنسا اللتان كانتا في حالة اتفاق ودي فانهما نظرا
إلى الحالة السياسية بعين الاهتمام العظيم وكانت سياسة إنجلترا ترمي إلى
التمسك بالمحافظة على الدولة العثمانية ، أما فرنسا فكانت لها سياسة مزدوجة
ترمي إلى نصره الدولة العثمانية من جهة وإلى تقوية حكومة مصر الناهضة
من جهة أخرى . غير أنه بسبب تدخل الروسي بمفردها في المسألة انضمت
إنجلترا إلى جانب فرنسا نصيرة محمد علي وأصبح لفرنسا الشأن الاول
أمام « الرئيس افندي » وزير الخارجية العثمانية ولعب « دي فارن » وأمير
البحر « البارون روسين » دوراً هاماً في المخابرات التي جرت بين الباب العالي
من جهة ومحمد علي وبرايم من جهة أخرى .

أما إنجلترا فانها سارت وفق فرنسا في جميع ادوار هذه المسألة وزادت
بأن أرسلت سفيراً ممتازاً أمام الباب العالي وهو اللورد « بنسني » ولما
رأت ما وصل اليه اسم محمد علي وحكومته من الصيت بادرت فارسات
الى مصر معتمداً سياسياً في شخص السكولونيل « كامبل » ليؤكد لمحمد علي
ما يشعر به جلالة الملك نحو سموه من الاحترام والاعتبار الشخصي
ويساعد في توثيق الروابط الودية التي تربط البلدين . كذلك أرسل « مترنخ »
السكولونيل « بروكش فن استن » ليعبر عن اعجاب الامبراطور بتفوق عقلية

ارسال
معتمدين
سياسيين
لمحمد علي

محمد على ويقوى العلاقات التجارية والودية بين البلدين»^(١)

ويظهر أن الباب العالى بتسويده صحيفة اخلاق الباشا أمام الدول ومداومة الشكوى من نمو قوته قد قدم لمحمد على أجل خدمة اذ بذلك جذب عقول الدول نحو محمد على رمز القوة الناهضة الزاحفة، والقوة فى عرف الدول مستودع جميع الفضائل

وبينما كان محمد على يستقبل الوفود ومعتمدى الدول ومندوبىها الذين ساقهم حب الاستطلاع إلى مصر حيث الرجل العصامى العبقري الذى كاد يقيم فى الشرق ما رسمه نابليون فى مخيلته سنة ١٧٩٨ ، كانت المفاوضات تدور بنوع من القلق والشدة بين الباب العالى وسفراء الدول بشأن الشروط التى يجب التسليم بها حتى تزول أشدأزمة وقع فيها السلطان، وكان «البارون روسين» المعين حديثاً سفيراً لفرنسا لدى الباب العالى قطب هذه المفاوضات من يوم نزوله بالسفارة .

وكان البارون روسين رجلاً مستقلاً رأى صريحاً معجباً بنفسه ومقدرته البارون ولكن لقلة تدريبه فى اعمال السياسة كانت تعوزه الخنكة السياسية والنظر روسين سفير الصحيح، وكانت فكرته الاساسية فى المسألة الشرقية محاربة مطامع روسيا فى القسطنطينية فى كل وقت. ولذلك كان ظهور القوة الروسية أمام البسفور فى نظر «روسين» بمثابة اعلان للحرب على فرنسا، فكان من المحتمل عليه مع مؤازرة انجلترا له ازالة كل ما يمكن حدوثه من النتائج السيئة من جراء وجود الأسطول الروسى . غير أنه فى بدء عمله تسرع ولم يسدد خذاه فبدأ بأن تعهد لدى الحكومة العثمانية بأن يقبل محمد على شروط الصلح

(١) «مصر ومحمد على» لسنن جون ص ٥٣٢

التي قدمها الباب العالي بوساطة خليل باشا التي بمقتضاها نزل السلطان
لمحمد علي عن أربعة أقسام في سوريا وهي صيدا وطرابلس ونا بلس وبيت
المقدس . وفي مقابل هذا يتعهد الباب العالي برفض المساعدات الأجنبية (١)
وأتبع ذلك بأن كتب إلى محمد علي تبريرا لتعهد كتابا جافا هو بمثابة تهديد
بالحرب قال فيه :

«إن إصرارك على طلباتك وادعاءاتك التي أعلنتها ستجبر على رأسك
عواقب وخيمة أرجو أن يردعك الخوف منها . إن فرنسا ستمسك
بالتعهدات التي أبرمتها وإن لها القوة وأنا ضمين صدق إرادتها . وإني
لأرجو أنك لا تضطرننا إلى الالتجاء إلى الضرورة القاسية باستعمال القوة
ضد مملكة نحن من مشيديها وضد عظمة وانتصار نحن من أخلص المعجبين
بها». وزيادة على ذلك فقد كلف بإوره الحامل لكتابه بأن يهدد محمد علي
شفاهيا بأنه إذا رفض الشروط فإن إنجلترا وفرنسا تشتركان في ضرب
الاسكندرية، وقد أرسل كتابا بهذا المعنى إلى إبراهيم باشا، غير أن الحكومة
المصرية قابلت الرسالتين بما يستحقانه من السخرية . فإن محمد علي قد صمم
على أن يمد نفوذه إلى سوريا جميعها وإلى ميناء «اطنه» في اسيا الصغرى
وكان عالما بأن له من القوة ما يمكنه من تنفيذ أغراضه في أقاليم تحتها
جنوده . زد على ذلك أنه كان يعلم علم اليقين بأن اقترابه من القسطنطينية
لا بد أن يحدث حربا أوربية عامة . من أجل ذلك تذرع محمد علي بالثبات
وتمسك بمطالبه إلى النهاية . أما عن رسالة البارون روسين فإن مثل فرنسا
باسكندرية ومسيو «ابوالكميت» المندوب الخاص من قبل فرنسا قد خففا

تمسك
محمد علي
بمطالبه

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) من مندفيل ٢١ فبراير سنة ١٨٣٣

من وطأتها^(١) وكتب محمد علي الى البارون يرفض شروط السلطان رفضاً جميلاً بقوله « اسمح لي ياسيدي السفير أن أسألك بأي حق تدعونني لأن أضحي نفسي . ان الشعب معي وما على الا أن ارفع اصبعي فأثير الثورات في « الروملي و « الاناضول » وما دام الشعب معي ففي مقدوري أن أعمل كل شيء . وان دعوتك لي بأن أتخلي عن الاقاليم التي احتلها هي بمثابة الحكر عليّ بالاعدام السياسي ، غير اني واثق أن فرنسا وانجلترا لا يبخلان عليّ بالانصاف » وختم محمد علي خطابه بعزمه على التمسك بمطالبه^(٢)

ولاجل أن يتبع القول بالعمل أرسل محمد علي فصائل من الجند الى مساعي الصالح سوريا وأمر ابراهيم بالزحف على القسطنطينية اذا لم يقبل الباب العالي شروطه بعد مرور خمسة أيام من وصول خليل باشا الحامل لشروط محمد علي وأمره بمواصلة الزحف حتى تجاب طلباته^(٣)

فلما وصلت الاخبار الى القسطنطينية زاد رعب السلطان وكتب الباب العالي يطلب الى سفير روسيا الاسراع باحضار القسم الثاني من المدد الروسي ، فوقع اخبر علي « روسين » وقعاً أليماً أعاد اليه رشده السياسي فعرف حقيقة الحالة وأنه لا يمكن أن يغادر الروس البسفور بمجرد انسحابه من القسطنطينية أو بضرب سواحل الاسكندرية ، وعرف أنه اذا ماتم الصالح بين السلطان والباشا فان روسيا لا يمكنها أن تبرر وجودها على سواحل البسفور وتضطر حينئذ الى الجلاء . لذلك عمد « روسين » ومعتمدو

(١) راجع مذكرات المسيو جيزوت الجزء الرابع ص ٤٦

(٢) « مذكرات جيزو » : الجزء الرابع ص ٤٦

(٣) سجلات وزارة الخارجية (تركي) رسالة نمرة ٦٠ في ٢٧ مارس سنة ١٨٣٣

الدول السياسيون الى نصيح الباب العالي باجابة طلبات محمد علي . وبعد
مفاوضات دارت بشأن استئناف القتال، وجد الباب العالي أن لفائدة البتة
من حرب قد تجر معها الانهزام وخسارة كل شيء ، فقرروا أن يذهب
المسيو « دى فارن » وكيل فرنسا السياسى الى « كوتاھيه » قاعدة ابراهيم
الحربية ويعرض عليه شروط السلطان القاضية بمنحه جميع سوريا، ويفهمه
بان رفضه لهذه الشروط مما يفضب فرنسا كثيراً (١)

فسافر « دى فارن » فى ٢٠ مارس ولما عرضت الشروط على ابراهيم باشا
طلب اضافة « ديار بكر » « وارفاه » وميناء واحدة على الاقل فى اقليم « اطنه »
فرجع « دى فارن » فى ١٥ ابريل سنة ١٨٣٣ وقال ان ابراهيم لم يسعه الا الاذعان
لنصيحة انجلترا وفرنسا وانه متأكد من أن الباب العالي لا يرضى عليه
بإقليم « اطنه » وانه قد أصدر أوامره بالجللاء من وراء جبال الطوروس على
الرغم من أوامر والده الصريحة بعدم الجللاء ما لم تجب مطالبه (٢)

ولكن لما علم بأن الباب العالي لم ينزل عن « اطنه » بعدان وافق على ذلك
مبدئياً وأوقف حركة الجللاء وانتظر سير الحوادث

وأخيراً عجل السلطان بتسوية المسألة على الرغم من حضور قسم
ثالث من المدد الروسى وذلك لأن الأحوال الداخلية فى الدولة كانت فى
حالة مزعجة، فإن ابراهيم باشا كان يحتل جزءاً كبيراً من « أناضوليا » فأصبحت
القسطنطينية مهددة بالجماعة فى أى وقت، وقد زاد فى ارتباك الحالة الاقتصادية.
وجود المدد الروسى الذى أصبح عدده أكثر من ٣٠,٠٠٠، زد على ذلك

خرج مركز
السلطان

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من « مندفيلى » ٣١ مارس سنة ١٨٣٣

(٢) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : رسالة نمرة ٧٠

الاضطراب السياسى السكان الذى سببه استعانة السلطان بعد والاتراك
 القديم . هذا إلى ضغط سفراء فرنسا وانجلترا قد جعل السلطان يجيب
 ابراهيم باشا إلى مطالبه وذلك بأن عينه محصلا لأقليم «أطنه»، وكانت قد
 نشرت الجريدة الرسمية الأقسام الأخرى التى عين عليها محمد على واليا
 فتم الصلح بذلك بين محمد على والسلطان . ويعرف هذا الصلح باتفاق
 «كوتاهيه» وفى ١٦ مايو ودوت مدافع حصون الاسكندرية مائة طاقة
 إعلانا بعقد الصلح بين الباشا والسلطان

غير أنه ما كاد يتم هذا الصلح حتى أوقد شرارة كادت تضم نار
 الحرب الدولية . وذلك أن السلطان محمود تعلم من تجاربيه الحديثة درساً وتقوم نفوذ
 جديدا وهو أنه لما اشتدت الأزمة وانهمزت جيوشه ولى وجهه نحو روسيا
 أصدقائه يطلب المساعدة الفعلية فلم يسعفه أولئك الذين طالما أعلنوا
 إخلاصهم له إلا بالكلام والقول الجميل ، أما الروسيا فلما وجه إليها الطلب
 أجابته على الفور بالجيوش والأساطيل . من ذلك عرف السلطان الناحية
 التى يجب أن يولى وجهه شطرها إذا ما اضطر لطلب المساعدة

وفى يوم ٦ مايو عقب تسوية الصلح ارسل القيصر سفيرا فوق العادة
 وقائدا عاما للقوات الروسية فى الدولة العلية هو الكونت «ارلوف» ليحفظ
 التوازن فى نفوذ أمير البحر «روسين» الذى جلب على نفسه سخط القيصر
 نيقولا بسبب سلوكه فى الأزمة الأخيرة . وكان الكونت «ارلوف» من
 أكثر المقربين للقيصر إخلاصاً ومهمته الظاهرية مراقبة إخلاء الجنود
 المصرية لآسيا الصغرى والاطمئنان على سلامة العاصمة . ولما كان ابراهيم
 قد بدأ فى الجلاء فعلا عمد الكونت إلى الاشتغال بالجزء الهام من مهمته

فأخذ يقنع وزراء السلطان بأن لا سلامة للبواب العالى الا بقدر المعونة التى
يمكن الروسية أن تمد بها تركيا، وأخذ يواصل الاجتماع بالوزراء كل يوم
حتى كاد يغطى على نفوذ «روسين» و«بنسبنى». وأخيرا فى ١٠ يولييه انسحبت
القوات الروسية بعد ان اجلت الجنود المصرية عن الاراضى العثمانية

غير انه قبل انسحاب القوات يومين كان قد تم التوقيع على معاهدة
هنكارسكلى «هنكارسكلى» وهى مخالفة هجومية دفاعية خاصة بين السلطان والقيصر .
وقد حفظ البواب العالى أمر هذه المعاهدة سرا فلم يبيع «الرئيس افندى»
بشئ عنها لسفيرى انجلترا وفرنسا ، فافلق هذا الامر بال هاتين الدولتين
وجعلهما ينظران الى هذه المعاهدة نظرا المستريب بعد أن علما بعقد المعاهدة
بطريق غير رسمى . وأتم ما فى هذه المعاهدة شرط سرى خواد انه فى مقابل
المساعدة الحربية التى يتعهد القيصر بتقديمها للسلطان لا يريد القيصر ان
يطالب السلطان بمساعدة فعلية . ويكتفى منه باغلاق «البوغازات» عند
الحاجة فى وجه السفن الحربية لأية دولة . وليس فى هذا الشرط شئ
يغاير السياسة القديمة التى يتبعها البواب العالى منذ زمن بعيد وهى اغلاق
البوغازات وقت الحرب ، غير ان اللغز هو فى جملة «عند الحاجة» وبدون هذه
الجملة لا أهمية للمعاهدة ابدا . فبفضل هذه الجملة تتمكن روسيا من الدخول الى
البحر الاسود والخروج منه متى شاءت ويمكنها اذا ما اعلنت الحرب على
أى دولة ان تقفل أمامها البوغازات وتصبح بآمن من أى هجوم بحرى ،
وينتج من ذلك ان تصبح تركيا تحت أمر الروسية وحارسة للبوغازات
حفظا لمصالح الروسية . وقبول البواب العالى لمعاهدة مثل هذه برهان على
حالة الضعف والاستكانة والخوف الشديد التى وصلت اليها الدولة العثمانية

فلا يستغرب اذن قول محمود الثاني في حالة ثورانه الفكرى «ماذا يهمنى من أمر الدولة جميعها . ما أهمية القسطنطينية لى ؟ انى اضحى الاثنتين معا للرجل الذى يحمل الى رأس محمد على»^(١)

أما انجلترا وفرنسا فلم يدهشا لعقد مثل هذه المحالفة بين روسيا وتركيا لأن دلائل الأحوال فى الأزمنة الأخيرة كانت تشير إلى احتمال وقوع شىء مثل هذا . وكانت نتيجة ظهور هذه المعاهدة أن زادت عرى الوفاق بين الحكومتين توثقا فقدمتا احتجاجاتهما فى القسطنطينية وسنت بطرسبورج وذكرنا فى الاحتجاج المقدم للكونت « نسلرود » كبير وزراء روسيا « ان المعاهدة غيرت علاقات تركيا وروسيا وصبغتها صبغة جديدة لا يسمع الحكومتين ازاءها ألا أن تضرب عنها صفحا وتعمل كما لو كانت هذه المعاهدة غير موجودة »

فقال الكونت « نسلرود » فى جوابه أن المعاهدة دفاعية محضة ولا يقصد منها إلا المحافظة على كيان تركيا . أما من جهة تغيير العلاقات بين تركيا وروسيا فإن المعاهدة قد استبدلت بعلاقات مبنية على العداء والريبة علاقات غير هاسداها ولحمها الاخلاص والمودة وان القيصر موطن العزم على التمسك بتعهداته للدولة على حسب المعاهدة فيعمل كما لو لم تعلن تصريحات الحكومتين^(٢)

اتفاق
النمسا
والروسيا

أما موقف النمسا فكان فى جانب الاعتدال أثناء هذه الأزمة ، الا

(١) « مذكرات جيزو » الجزء الرابع ص ٥٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية (روسيا) ٢ نوفمبر سنة ١٨٣٣

أن « مترنخ » كان لا يميل الى اتفاق المبادئ الحرة بين انجلترا وفرنسا ولذا اتجه نحو « نيقولا » قيصر روسيا الذي باح له بما في قلبه نحو الدولة العثمانية وحفظ الحالة السياسية الحاضرة فتشجع « مترنخ » بتفاهمه مع القيصر وانحى باللائمة على انجلترا وفرنسا وأعلن أنه لو كان موقع النمسا موافقا لما تردد في تقديم المساعدة للسلطان بنفسه . غير ان هذا لم يمنع « مترنخ » من أن يلوم القيصر على عقده معاهدة ظاهرها يزيد على نفعها الحقيقي ، وانتظر « مترنخ » فرصة ينسخ فيها المعاهدة بغيرها فجاءت هذه الفرصة عند اجتماعه بالقيصر في « منشجراتز » حيث عقدا اتفاقا سريا لحفظ كيان الدولة وخرى الاتفاق أن روسيا والنمسا يتعهدان بمنع محمد علي من مد نفوذه الى الولايات الاوربية وإذا ما حصل انقلاب في النظام الحكومي في القسطنطينية فإن روسيا والنمسا يتفقان سوياً على كل نقطة من حيث النظام الجديد ^(١) وليس في هذا الاتفاق شيء يخالف أفكار انجلترا وفرنسا ، ولكن كره القيصر نيقولا للمبادئ الحرة السائدة في حكومتى الغرب الدستوريتين جعله يعرض هذا الاتفاق مع النمسا سرا من غير أن يعلم به انجلترا وفرنسا ، فاصبحتا بعد ذلك يسيئان الظن بسياسة القيصر نيقولا وأغراضه ويعدانها أعدى اعدائهما إلى أن انتمى الاتفاق الودى بينهما فانضم نيقولا إلى جانب « بلرستون » .

ومع ذلك فلم يدر في خلد نيقولا أن يعمل على إسقاط الدولة وقتئذ أو أن يغير في مركزها السياسي ، بل ان غاية ما يريد هو أن تبقى نيات القيصر نيقولا

(١) سجلات وزارة الخارجية (النمسا « سرى » في ١٤ يولييه سنة ١٨٣٤)

الدولة حافظة لمركزها واقفة ساكنة لا تتقدم وعلى القيصر أن يحميها من الحركات الخارجية أو الداخلية التي ربما تثير الدولة من رقادها. وبهذه السياسة الحكيمة الخفية كانت حكومة القيصر تؤمل أن تصبح الدولة العلية تحت سيطرة روسيا من غير أن تضطر إلى فتح أو اعلان حرب. وعلى الرغم من ان اتفاق «منشنجراتز» قد نسخ معاهدة «هنكاراسكلسي» كانت الدول قد بدأت تتخوف ان تجد روسيا مسوغاً للدخول إذا فتحت المسألة الشرقية مرة ثانية

ما هي هذه المسألة الشرقية وكيف اطلقوا هذا التعريف على حالة خاصة محلية بين حكومة مستقلة واتباعها يريدون بالمسألة الشرقية الحالة السياسية التي قد تنتج على أثر ثورة أو حرب في املاك السلطان ، ولكن لم تكن مصر مثلاً كل الدولة ولا الدولة كل الشرق وما سمعنا أن هناك «مسألة غربية» على الرغم من وجود ازمات في تاريخ دول الغرب تشابه ازمات الدولة العلية

الفصل السابع

اتفاق الدول ضد محمد علي

خطب وليم الرابع ملك انجلترا خطبة العرش في فبراير سنة ١٨٣٤ فقال : انه منذ أن عقد الصلح بين السلطان ومحمد علي لم يطرأ شيء يعكر صفو السلام وأنه يعتقد أن لا يحصل شيء من ذلك ، ثم قال « وستكون مهمة حكومتى منع حدوث أى تغيير فى علاقات الدولة العثمانية بدول أخرى يكون من شأنه التأثير فى سلامتها واستقلالها ». أعلنت الحكومة ذلك ليطمئن الذين يخشون على سلامة الدولة العثمانية من تدخل روسيا ، غير أن الأحوال فى الشرق كانت تنذر بغير ذلك إذ كان السلم مهدداً فى كل ساعة وذلك لأن محمود الثانى أجبر على الأذعان لمطالب محمد على فكان يضرر فى نفسه الانتقام منه وعلى ذلك لم يكن صلح « كوتاهيه » فى الحقيقة إلا هدنة مسلحة .

وليس بعجيب أن تكون الحالة كذلك لأن شروط الصلح لم تكن حاسمة للنزاع القائم بين محمد على والسلطان ، فالشروط مبهمه لا يمكن أن يطمئن لها بال أحد ، ولو كانت الدول أعلنت سيادة السلطان على جميع ولاياته وقصرت محمد على أن يكون حاكماً وراثياً على مصر وحاكماً مؤقتاً على ولايات آسيا مثلاً لما تزعزع السلام مرة أخرى ولما اضطرت الدول إلى الوقوع فى أزمة سياسية خطيرة فى سنة ١٨٤٠ . ولكن الدول راعت فى ذلك الوقت تغادى الخطر الداهم من جراء تدخل روسيا فضمنت بذلك

صلح
كوتاهيه
هدنة مسلحة

السلام
قائمة
فقصر
وسيلة
سفيرا
الى
الاسط
المساعد
درجة
نظام
للاتنقا
ارسال
فكان
بحرب
الباب
فتقدم
سنة ٤

السلام في أوروبا وتركت الشرق مهدداً .

نعم كانت فرنسا تود أن تكون العلاقات بين محمد علي والسلطان قائمة على أساس متين دائم ولكن إنجلترا لم تنظر الى أبعد من البسفور فقصرت كل جهودها على فصل تركيا من روسيا ولم يعد « بالمرستون » وسيلة لاستفزاز روسيا ، فمن ذلك أنه أرسل السير « استراتفورد كاننج » سفيراً أمام حكومة « سنت بطرسبورج » على الرغم من عدم ميل الامبراطور الى هذا التعيين ، ومن ذلك أيضاً أنه أمر سفيره بالقسطنطينية بأن يدعو الاسطول الانجليزي في البحر الابيض داخل الدردنيل اذا طلب السلطان المساعدة ^(١) وعلى العموم أصبحت العلاقات متوترة بين إنجلترا والروسيا الى درجة توقع الناس معها الحرب

وفي ذلك الوقت قامت ثورة في سوريا على أثر ادخال ابراهيم باشا نظام القرعة العسكرية فشغل محمد علي وكان السلطان يتربص الفرصة للانتقام منه فلما قامت الثورة في مايو سنة ١٨٣٤ فكر السلطان في ارسال أسطوله لمعاينة محمد علي ، واستطلع رأى إنجلترا وفرنسا في ذلك فكان جوابهما ان عرش الخلافة يصبح في خطر اذا جازف السلطان بحرب ضد محمد علي . ولما أبى محمد علي دفع الجزية في سنة ١٨٣٤ فاتح الباب العالي سفير روسيا بقصد تطبيق معاهدة « هنكارسكلسي » فتقدم روسيا المساعدة اللازمة للسلطان ضد الوالي الثائر فكان الجواب

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) « بالمرستون » الى البحرية ٣٠ يناير

على ذلك « أن روسيا لا تستطيع ذلك لأن المعاهدة دفاعية محضة ولا يمكن
الروسيا
وانجلترا
الروسيا تقديم المساعدة مادام الباب العالي هو البادىء بالعدوان وعلى ذلك
لا يعضدان نصحت له روسيا بالعدول » (١)

تركيا
ثم جاء تصريح « بالمرستون » بأنه اذا بدأ السلطان العداء وهزم في الحرب
فان انجلترا وفرنسا لا يمكنها حمايته من محمد علي كما فعلتا سابقاً (٢)
وكتب « بالمرستون » الى البحرية الانجليزية ينبهها الى أن يستعمل القائد
العام لاسطول البحر الابيض حكمته ونفوذه في ايقاف الحرب بين
الاسطولين العثماني والمصري، واذا لم ينجح في ذلك فليذكر أن انجلترا في
حالة صلح مع الجانبين وليلزم الحيدة التامة فلا يشترك بأى حال من الاحوال
في الحرب

ولكن ما كادت تصل هذه الرسائل الى المسؤولين حتى وصلت
اخذاد الثورة
ومشروع
الاخبار بأن الثورة هدأت في الشام وان محمد علي أصبح قابضاً على ناصية
محمد علي
الحالة فهدت مخاوف أوروبا وزال كل أمل للسلطان في الانتفاع بمشاكل
محمد علي . فلما استتب الحال في سوريا رجع محمد علي وأراد أن يخلص
نفسه من سيادة السلطان عليه لما رآه من سوء النية ودس اللسائس في
سوريا فأراد ان يسبر سياسة اوربا بشأن اعلانه الاستقلال، فكتب سفراء
انجلترا وفرنسا والنمسا الى حكوماتهم بذلك فجاء الرد بالرفض وانصحتهم
انجلترا بالعدول عن تنفيذ مشروعه لان حالة أوروبا السياسية لا يمكن أن

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) ٢٣ أغسطس سنة ١٨٣٤

(٢) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) من « بالمرستون » في ٢٣ أغسطس

تسمح له بتحقيق أمنيته (١) فارجأ محمد على موضوع الاستقلال لفرصة أخرى . وسعت فرنسا في سنة ١٨٣٦ في توطيد دعائم الصالح بين الباشا والسلطان بحل مرضى ولكن حبط مسعاها وذلك لان الباب العالي كان قد فقد كل ثقة في فرنسا على أثر احتلال الجزائر وحمايتها لسواحل افريقيا الشمالية وخاصة في مدة وجود « تير » على رأس الوزارة . فكانت هذه السياسة من جانب فرنسا مدعاة للنفور بين انجلترا وفرنسا ، ولدخول تركيا في أحضان انجلترا

اعتماد تركيا

وكانت انجلترا تظهر شدة التمسك بمصالح الدولة العلية وبذلك جعلت على انجلترا لسفيرها في القسطنطينية اللورد « بنسبني » الكلمة النافذة لدى الديوان العالي ، وكان اللورد « بنسبني » شديد الكره لروسيا ولكن كان كرهه لمحمد علي أشد ، فكان في نظره بثة في جسم الدولة تمتص ماء حياتها وعونا لروسيا في تنفيذ أغراضها من الدولة . وكان كلما أعلن « بنسبني » عدم ارتياح حكومته من تسوية « كوتا هية » وهذا بعكس روسيا التي كانت تشدد دأما في بقاء الحالة كما هي — زاد اعتماد تركيا على الحكومة الانجليزية التي ما فتئت تنصح لها بتنظيم جيشها وأسطولها . فعين الباب العالي الضابط البروسي « فون ملتكه » لاصلاح الجيش وعين ضابطا من الانجليز لاصلاح الاسطول وأخذ « بنسبني » يبث أعوانه في سوريا للتجسس على قوة محمد علي ولتحرريك الرأي العام ضده .

كذلك عين السلطان حافظ باشا وهو من المقربين الحريين حاكما على ما بين النهرين والغرض من ذلك تكوين جيش وتدريبه بالأراضي المجاورة

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) من « بالمرستون » في ١ نوفمبر سنة ١٨٣٤

ودس الدسائس ضد الحكومة المصرية . وعلى العموم لم يترك « بنسبني » ولا الوزير « بالمرستون » فرصة تمر من غير إيذاء محمد علي . مثال ذلك أنه في سنة ١٨٣٨ أرادت إنجلترا أن تضرب محمد علي في نقطة حيوية من موارد ثروته وذلك بعقد معاهدة تجارية بينها وبين الباب العالي بمقتضاها زادت ضريبة الواردات إلى ٨٪ وحرمت بمقتضاها احتكار التجارة بجميع أصنافها، وكان يظن أن هذا الشرط يشل حركة محمد علي المالية . ولكن الباشا لم يتوان قط في قبول المعاهدة من غير اهتمام، وصرح « لكامبل » معتمد إنجلترا السياسي بمصر بأن المعاهدة ستكون سبباً في زيادة ثروته زيادة تفوق ما كانت تجلبه له محتكراته .^(١)

مساعي
محمد علي

لكسب رضا
انجلترا

قبل محمد علي المعاهدة التجارية كسباً لرضا إنجلترا لأنه كان شاعراً بعدم صداقتها له ولقد اجتهد بكل الطرق الممكنة في إرضاء حكومة إنجلترا لكسب رضاها من حديثها ضده فأرسل البعثات إلى معاملها ودور صناعاتها البحرية وساعد مساعدة لا تقدر في نجاح طريق التجارة بين البحر الأحمر والبيض ، كذلك اضطر أن يطأطيء رأسه أمام رغبة إنجلترا في احتلال « عدن » وما كان محمد علي ليسمح لأى دولة باحتلال هذه الميناء التجارية الحصينة . كل هذا أثر في سياسة « بالمرستون » بعض التأثير فقلل من غلوائه وأرسل مندوباً برلمانياً وهو الدكتور « بورنج » ليكتب تقريراً ضافياً على حالة مصر وإصلاحات محمد علي ، ورفض الدخول في معاهدة هجومية مع الترك ضد محمد علي ، وفوق ذلك أعلن استعداد لبقاء شروط « كوتاويه » بأن كلف سفيره « بنسبني » أن يشدد على السلطان في تفهيمه أنه وإن كانت

(١) تاريخ حياة « بالمرستون » جزء ثانى ص ٢٥٧



انجلترا ترى من المحتم عليها مساعدة الباب العالي ضد أى هجوم من محمد علي
فإن المسألة تتغير إذا بدأ السلطان بالمهاجمة ^(١)

ولكن بينما كانت علاقات محمد علي بالدول آخذة في التحسين كانت
علاقاته بالسلطان لا تبعث على الرضا وحسن التفاهم . فقد وضع السلطان
الانتقام نصب عينيه بعداهاته « كوتاهيه » ولما لم ينجح في سنة ١٨٣٤ أجل
اليوم لتاريخ آخر وقصر همه على ابتزاز الأموال من محمد علي بقدر ما يمكن
فبلغت الأموال التي سحبها السلطان في سنة ١٨٣٧ أكثر من مليون
ونصف مليون ريال ^(٢)

كل هذا زاد في ارتباك محمد علي المالى وكلف الخزينة المصرية فوق
طاقاتها ولو كان هناك فائدة من دوام الصرف لأجاب محمد علي طلبات
السلطان من غير تأمل ولكن الدلائل كانت تنبئ بوقوع الحرب لا محالة ،
وكانت عيون محمد علي تعلمه بكل ما يدور في الحكومة العثمانية في حينه .
من ذلك أصبح مركز محمد علي مهدداً من كل جهة فالجيش العثماني فيما
وراء النهرين يهدد سوريا وحدود مصر نفسها وأصبح من المحتم إعداد
جيش وأسطول ليكونا على استعداد لمقابلة الطواريء فزادت بذلك
نفقات محمد علي زيادة عظيمة امتصت ثروة مصر وأثارت سخط الناس
وغيرت حالة مصر من رغد وهناء إلى خوف وانهمال في انتاج ثروة ضائعة
في سبيل إيقاف تعدى العثمانيين على مصر .

لذلك عزم محمد علي في سنة ١٨٣٨ على أن يضع حداً لمركزه وكان

(١) أوراق برلمانية من « بالمرستون » في سنة ١٨٣٩

(٢) راجع رسالة « توماس واجهورن » في سنة ١٨٣٧

محمد علي
 يطلب
 استقلال
 مصر وسوريا
 قد انتهى في ذلك الوقت من اخضاع نجد ودانت له شبه جزيرة العرب
 سياسيا وتجاريا فأعلن معتمدى الدول رسمياً في اجتماع خاص عزمه الثابت
 على اعلان استقلاله قائلاً « لا يمكننى أن أَرْضَى بترك ماشيدته من المنافع
 والمرافق الحيوية بمصر طول هذا الوقت مما كلفنى أموالاً طائلة كدور
 الصناعة البحرية والأسطول والبواخر والمصانع وعددها وعملها والمدارس
 المتعددة والبعثات والمعاهد العلمية التي أنشأتها على النمط الأوربى والمناجم
 التي فتحتها في سوريا لاستخراج الفحم والحديد والقنوات والطرق التي
 رسمتها بمصر وسوريا - لا يمكننى ترك كل هذا للفناء في يد الباب العالي
 بعد موتى . وإن قلبى لينفطر كلما ذكرت أن ثمرة اتعابى ضائعة ومصيرها
 للفناء وأن أولادى وأسرتى ستترك بعد موتى تحت رحمة الباب العالي ^(١)
 فجاءه جواب الحكومة الانجليزية « بأن الحكومة ترى من
 المستحيلات تنفيذ مشروع محمد علي وترى من نتائج المحققة الدمار للبasha
 وأجابت فرنسا « بأنها علمت بمزيد الدهشة والأسف عزم محمد علي على
 اعلان استقلاله . وان الحكومة الفرنسية ستضع كل العقوبات ضد
 تنفيذ هذا المشروع ^(٢) »

جواب
 الدول
 على ذلك

أما « مترنخ » فقال « ان صفو السلام في أوربا لا ينبغي أن يعكر »
 وعبثاً حاول الباشا بعد ذلك أن يطلب من الحكومة الانجليزية اتخاذ
 التدابير اللازمة للمحافظة على السلم في الشرق . وقال بلا جدوى ان مالية
 مصر لا يمكن أن تتحمل نفقات التسليح باستمرار واحتمال الضرائب

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) كامبل الى بالمرستون ٢٥ مايو سنة ١٨٣٨

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) بالمرستون الى كامبل ٧ يولييه سنة ١٨٣٨

الزائدة التي اضطر إلى وضعها . ولمسلم تحببه الحكومات إلى طلبه ترك
مسئولية ما يقع من الحوادث على عاتق الدول وسافر إلى السودان مع
أنه قد كان بلغ السبعين من عمره ليفتش على مناجم الذهب التي كان ينفق
عليها وأخبر « كامبل » أنه إذا رجع ومعه كثير من الذهب فانه يستغنى
عن الجيوش وعن الأصحاب في معاملة الباب العالي (١)

غير أن السلطان لم ينتظر وصول ذهب محمد علي وانتهز فرصة تغيبه
بالسودان وأخذ يحشد قواته على حدود سوريا، وذلك لأن موقفه ازاء ^{رغبة السلطان} في الحرب
الوالى كان موقفاً مهيئاً للغاية، فأى ملك أو سلطان يرضى بأن يبرم صلحا
مع تابع له بشروط خاصة تحط من قدره . وإذا كانت الظروف قد اضطرت
السلطان إلى أن ينزل عن هذه الأقاليم ألا يكون من أول واجباته التخلص
من هذه الرقبة غير الشرعية متى سنحت له فرصة ؟ على أن السلطان كان
آخذاً في الشيخوخة وكما كبر نما حبه للانتقام من ذلك الذي غطى اسمه
على اسم السلطان وامتدت ممتلكاته من جبال طوروس شمالاً الى النيل
الأبيض جنوباً ومن خليج العجم شرقاً الى جزيرة كريد غرباً، وذلك يشمل
مصر والسودان، والشام وكريد وبلاد العرب بما فيها المدن المقدسة .
كل هذه البلاد كانت تحت حكمه ، وكان العالم الاسلامى فى جميع الانحاء
ينظر إلى بطل الاسلام وقاتح المدن المقدسة بعين الاحترام والولاء، بل كان
هناك رجال فى قلب الدولة يعملون على انزال السلطان الموالى للروس عن
عرش الخلافة واعلان محمد على نائباً .

ولقد كان السلطان شاعراً بكل هذا ولذلك اجتهد فى تخليص نفسه من

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) كامبل الى بالمرستون ١٢ يولييه سنة ١٨٣٨

هذا المركز اللزيم، فاستعد للحرب على الرغم من نصيحة كل أصدقائه، ودهشت حكومات أوروبا لما علمت بأن السلطان سيكون البادى، بالعدوان بعد أن كانت الفكرة سائدة بأن محمد على هو الذى سيضرب الضربة الأولى لأنه الجانب الأقوى، ولقد عرف محمد على ذلك فأكد لمعتمدى الدول عزمه على أن لا يبدأ بالعدوان. وأخيراً بدأت الحرب وذلك بعد أن عبر الجنود الأتراك نهر الفرات وهو الحد الفاصل بين الجانبين أما فى القسطنطينية فإن سفراء الدول حذروا الباب العالى من الحرب، وأعلن سفير روسيا أن حكومته لن تساعد السلطان فى حربه ضد محمد على، وصرح باقى السفراء بمثل هذا إلا سفير إنجلترا فإنه سلك سبيلاً آخر

مقدرة
بنسبى
السفير
الانجليزى

كان اللورد « بنسبى » سفير إنجلترا سياسياً بارعاً وله خبرة وقدرة غريبة فى تكييف التعليمات التى ترد اليه من حكومته بحيث يجعلها توافق أغراضه وآرائه^(١) ومن سوء الحظ أن كانت افكار بالمرستون وبنسبى متفقة فى النهاية غير أن بنسبى كان يريد على بالمرستون بميله الى استخدام الطرق السرية للنجاح فى مشروعاته. فعلى الرغم من الأوامر الصريحة التى وصلت اليه أخيراً تؤكده عليه بأن يبدى النصيح للسلطان لتجنب الحرب، كتب بنسبى الى حكومته يقول « انه نصيح للسلطان بأن يؤخر كل شىء أن لم يكن فى الامكان ترك كل شىء نهائياً^(٢) وصرح للحكومة العثمانية بأن الاسطول الانجليزى لن يعترض سير القوات العثمانية. وقال انه يرجو ان يكون الباب العالى قد أخذ الضمانات الكافية للنجاح فتشجع الباب العالى بهذه الارشادات

(١) الحرب فى الشام « لنايير . الجزء الثانى ص ٣١

(٢) اوراق برلمانية من بنسبى الى بالمرستون ٥ ابريل سنة ١٨٣٦

الخفية وصدق ما كان يكتبه حافظ باشا من التقارير المكذوبة عن حالة الجيش، ورأى السلطان انه في كلتا الحالتين لا يخسر شيئاً لانه اذا انتصر في الحرب فيها واذا هزم فان انجلترا وروسيا لا يمكنهما أن يسمحا لمحمد علي بالقضاء على الدولة

وقف الجيشان وجهاً لوجه وكان الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا ^{الحرب} على أرض مصرية عند «عينتاب» والجيش التركي عند قرية «نصيبين» وكانت الشامية الثانية القوات تكاد تتكافأ، ٦٠٠٠٠ مصري و ٨٠٠٠٠ تركي، الا ان المدفعية التركية كانت تفوق المصرية فوقانا ظاهراً. وكانت اوامر ابراهيم صريحة في عدم البدء بالعدوان وعلى الرغم من تحرش القوات التركية فانه تحمل كثيرا حرصا على أوامره (١)

حقا لقد كان محمد علي يتوق الى محاربة السلطان ولكنه كان مصمماً على أن يبدأ السلطان الحرب أولاً وذلك كسبا لرضا الدول. ولكي يبرهن على شعوره السامي أخبر معتمدى الدول بأنه مستعد لسحب جنوده الى جنوب دمشق اذا عبر الاتراك نهر الفرات ثانية، واذا ضمنت الدول المحافظة على السلام فانه يسحب جنوده من سوريا جميعها ويقبل شروط الصلح (٢) ولكن السلطان كان مصمماً على الحرب فبدأ حافظ باشا بالعدوان وذلك باثارة الفتن بين قبائل سوريا وتوزيع الاسلحة عليهم واخيراً بمهاجمة بعض فرق الجيش المصري في أرض داخل حدود سوريا (٣) فلما كتب

(١) أوراق برلمانية : ابراهيم باشا الى حافظ باشا ٨ يونيه سنة ١٨٣٦

(٢) أوراق برلمانية : «كشليه لسولت» ٧ يونيه سنة ١٨٣٨

(٣) > > : «كامبل» الى «بنسبني» ٦ يونيه سنة ١٨٣٨

ابراهيم لوالده بما حصل كتب اليه محمد على بأن يرد هجوم الاتراك وان يعبر الحدود اذا اقتضى الحال ذلك وقال في رسالته «كلما صبرنا وكظمنا شعورنا مراعاة لرغائب الدول تقدم العدو واذا صبرنا اكثر من ذلك عجزنا عن صده» فبدأت الحرب وأصبح مستقبل الخلافة العثمانية معلقا.

*
* *

أخفق ممثلو الدول في التشديد على السلطان بضرورة مراعاة اتفاق «كوتاهية» وكذلك أهملوا الاجابة عن مطالب محمد على المعقولة فنتج من ذلك أن أصبحت الدول أمام خطر طالما عملوا على تجنبه منذ معاهدة اتفاق انجلترا «هنكارسكلسي». ذلك الخطر هو اثاره المسألة الشرقية وفتحها من وفرنسا ضد جديد واحتمال وجود الأسطول الروسي في البسفور. ولم يكن بين الدول الروسية من يحسن الظن بنيات روسيا غير النمسا، أما باقي الدول فقد كان جل همهم عدم إيجاد ظروف تنتحل منها روسيا عذراً لتقديم المساعدة على حسب شروط المعاهدة. وكانت حكومتا انجلترا وفرنسا متفتقتين على منع روسيا من التدخل بمفردها، فن أجل ذلك أصدرتا التعليمات اللازمة لآسطوليهما بأن يبحرا إلى الشرق الأدنى ويسعيا جهدهما في إيقاف الحرب بين السلطان ومحمد على، ثم كتبتا إلى سفيريهما بالقسطنطينية تعلمانهما بأنه إذا دخل الأسطول الروسي البسفور لأي سبب كان وجب أن يسمح للآسطولين الفرنسي والبريطاني بالدخول أيضاً (١)

وبلغ الاتفاق بين انجلترا وفرنسا درجة عظيمة حتى صرح «المارستون» لسفير فرنسا بانجلترا بأن أعمال الحكومتين أصبحت أشبه بمعاملة عضوين

(١) أوراق برلمانة بالمارستون الى بنسبنى ١٨ يولييه سنة ١٨٣٩

في وزارة واحدة .

كان هذا الاتفاق نتيجة خوف إنجلترا الشديد من انفراد روسيا بالعمل . وكانت أعمال روسيا في وسط آسيا وتحريضها للأفغان والعجم ضد إنجلترا مما ملاء قلوب البريطانيين خوفا على ممتلكاتهم في الشرق وحقنا على روسيا التي أصبحت منذ عقد معاهدة « هنكارسكلسي » الحامية الوحيدة للسلطان ، فاعتقد « بالمرستون » ان الفرصة قد سحبت اخيرا للقضاء على هذه المعاهدة ليحل محلها مؤتمر دولي ينظر في المسألة الشرقية بجزئياتها (١) الدول أما فرنسا فانها كانت تريد عزلة روسيا التي كانت تعارض في عرض بشأن الحالة المسألة الشرقية على مسامع مؤتمر مكون من اعدائها . وعارضت النمسا في تنفيذ مشروع يضر بمصاحبة حليفها روسيا واقترحت أن يصرف النظر عن مؤتمر لا بد ان ينضم اليه مندوب عثمانى واقترح « مترلنخ » ان يعقد سفراء الدول في « فينا » اجتماعات يتذاكرون فيها الحالة ، فوافقت الدول على هذا الاقتراح وكتبت الى سفرائها بالقسطنطينية بقبول التعليمات التي يرسلها سفراء حكوماتهم في فينا (٢)

ولكن رأت فرنسا أن عقد اجتماعات السفراء في فينا لا يفيد السلم العام شيئا وان الدماء ستراق في الشرق اذا لم تتخذ تدابير فعالة فأرسل المارشال « سولت » رئيس الحكومة الفرنسية لمحققين عسكريين احدهما الى القسطنطينية والثاني الى اسكندرية لاختذ الاوامر اللازمة الى

مساعدى
فرنسا لايقاف
الحرب

(١) « مذكرات جيزو » الجزء الرابع . من بوركنى الى سولت ٢٥ مايو

سنة ١٨٣٩

(٢) اوراق برلمانيه : رسالة نمرة ٨٣ في ٢٩ يونيو سنة ١٨٣٩

قواد الجيوش المتحاربة بايقاف الحرب أينما وصلتهم الرسالة وفعلا نجح الضابط « كالير » المرسل الى محمد على فأخذ الاوامر الى ابراهيم بالوقوف، ولكن قبل أن يصل الى معسكر ابراهيم كانت الجيوش قد اشتبكت في واقعة « نصيبين » في ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ حيث دحر الجيش العثماني عن آخره في ساعات قليلة بالمدفعية والركبان فقط ولم تشترك المشاة في الواقعة قط (٢) وقال سفير المانيا في القسطنطينية ان سبب الهزيمة هو أن حافظ باشا خالف نصائح الضباط البروسيين وفضل حرب العراء على حرب الخنادق، ولم تصل اخبار الهزيمة الى آذان صاحبها السلطان محمود الثاني الذي قضى نحيبه في الثلاثين من شهر يونيه وبفضل مساعي الوزير خسرو كتم الاخبار حتى نصب السلطان عبد المجيد بن محمود ولم يبلغ سنه اذ ذاك السادسة عشرة من عمره فتم ذلك بلا سفك دماء او قيام ثورات كالمعتاد

غير ان السكوارث ما فتئت تتوالى على الدولة الواحدة تلو الاخرى
نكبات
الباب العالي ففي اليوم الذي وصلت فيه اخبار هزيمة « نصيبين » الى القسطنطينية قام أمير الاسطول العثماني احمد فوزى وخاف مغبة حكم خسرو باشا و خليل باشا فادار دفة الاسطول نحو الاسكندرية ولم يطلع فوزى أحدا على عزمه الا بعض الضباط المقربين وترك باقى البحارة ومن بينهم الضابط الانجليزى « واكر » على جهل تام بما ينوى عمله

وقد اتضح فيما بعد ان الاسطول الفرنسى بقيادة أمير البحر « لالند » قاطع الاسطول العثماني فى الطريق وعرف قصد أمير البحر

احمد فوزى فاستحسن الفكرة وطلب اليهم أن يحتسبوا من مقابلة السفينة الانجليزية «فانجارد»، ولما اقترب الاسطول من الاسكندرية استعد البحارة للحرب ولكن بدل دوى المدافع سمعوا طلقات السلام والترحيب من طوابى الاسكندرية والاسطول المصرى ووضع احمد فوزى الاسطول العثمانى طوعا بين يدى محمد على وهو فى نظره القوة الوحيدة التى يمكنها المحافظة عليه فأصبحت الدولة فى مدة اسبوعين فاقدة جيشها وسلطانها وأسطولها ولم يبق لها من أساليب الحماية الا رعاية الدول وحكمة محمد على

وقد أبدى خسرو باشا حكمة سياسية فى اول الامر بأن أرسل رسولا الى محمد على مهمته الظاهرة اعلان تولية الساطان الجديد ولكنه فى الحقيقة كان يحمل شروط الصالح مع محمد على وفخاها ان تجعل حكومة مصر وراثية فى أسرة محمد على، غير ان محمد على اعتمد على اتصاراته وطلب حكومة سوريا زيادة على مصر ورجع عا كف باشا المندوب العثمانى محملا بالهدايا

ولما وصلت أخبار الكوارث التى أصابت الدولة العثمانية الى مسامع الحكومات الاوربية استولى عليها القلق وابدت الاهتمام بالامر وحنق «الممرستون» حنقا شديدا على محمد على لظفروه فى الحرب وساءه أن تقع تركيا بين برائن محمد على وفى قبضة الروسيا فاضمر لمحمد على منذ ذلك الوقت العداء والمعارضة الشديدة لمصالحه. من ذلك انه صرح فى البرلمان بلا تردد بانه لما كانت بلدة «نصيبين» واقعة خارج اقاليم محمد على فانه لا يمكنه أن

قلق الدول
وعداء
بالممرستون
لمحمد على

يفهم كيف يكون السلطان هو المهاجم (١)

وكتب « بالمرستون » الى سفيره في فينا يقول « ان انتصار محمد علي في واقعة ٢٤ يونيه لا يمكن ان يخول له أى اعتبار خاص من جانب الدول الخمس بل قد يؤدى انتصاره الى عكس ما يتصور لان الواقعة قامت على الرغم من نصائح وتصريحات الدول » (٢)

وقد كان أكثر ما ساء « بالمرستون » خضوع الاسطول العثماني لمحمد علي ، ففتح في الحال الحكومة الفرنسية بشأن الاشتراك لنزع الاسطول التركي من أيدي محمد علي . وفعلا كتب « بالمرستون » للبحرية الانجليزية عن الخطة اللازمة لاجل ذلك حتى جاءه جواب الحكومة الفرنسية يذكره بأن أى عمل عدائي ضد محمد علي من شأنه ان لا يسهل المشروع الذي تسير فيه إنجلترا وفرنسا معا فامسك عن العمل ^(٣) . أما فرنسا فان سياستها كانت في مصلحة محمد علي منذ انتصاره ، واصبح من واجبها الادبي تسوية الحالة بأحسن الشروط له . غير ان علاقة تركيا بأوربا كانت تتطلب من فرنسا اهتماما خاصا ، وكان جل أمانى السياسة الفرنسية ان تجمع دول اوربا وتجعلها ضد سياسته القيصري في المسألة الشرقية

أما موقف الروسي فكان موقفا محاظا بالاحتراس والحكمة فلم تتحرك
مساعدة السلطان في حربه مع محمد علي لانه كان المهاجم وما كان يتيسر

خطة روسيا

(١) « مجموعة هنسارد » ٣٠٠ اغسطس سنة ١٨٣٩ و ٢٠ مارس سنة ١٨٤٠

(٢) « حياة بالمرستون » جزء اول من بالمرستون الى بوفيل ٢٦ يوليه

سنة ١٨٣٩

(٣) « مذكرات جيزو » الجزء الرابع : من سولت الى بوركني ٦ اغسطس

سنة ١٨٣٩

لها الانتفاع بمحن السلطان وذلك لان القيصر نيقولا كان قد صرف نفسه عن الامل في حل المسألة الشرقية على المنهج الذي يريد، هذا الى أن الروسية كانت تعلم أن محمد علي قوة لا يستهان بها، وأنه يمكنه الوقوف امام الروسية اذا اشتبكت بمفردها في حرب ضده، ولا يبعد ان تنحاز حينئذ انجلترا وفرنسا الى جانبه.

والحقيقة أن محمد علي أخطأ في ارساله الأوامر لأبراهيم بالوقوف عقب موقعة «نصيبين» رغبة في ارضاء «المرشال سولت» رئيس حكومة فرنسا، ولو أن ابراهيم زحف على القسطنطينية وترك الأستطول الروسى في البسفور ما كان هناك شك في النتيجة. ولكن من حسن حظ أوروبا أنه لم تقع هذه الأزمة وأسرعت الروسية بأعلان رغبتها في عدم تطبيق شروط معاهدة «هنسكارسكاسى». وكان من رأى الروسية حينئذ انه مادام محمد علي لم يهدد وجود تركيا بأوروبا ومادامت المفاوضات بشأن الصلح جارية بين الجانبين، يحسن بالدول أن تراقب الحالة من غير تدخل مالم يرفض محمد علي شروط الصلح مع السلطان رفضاً نهائياً (١)

وكانت فرنسا ترقب من بعد مجرى الحوادث فرأى «سولت» أن اقترح فرنسا في تصريح الروسية سبباً يتذرع به لعزلتها سياسياً فأرسلت الحكومة الفرنسية البلاغ الآتى للحكومات لتبليغه لتركيا وهو: «ان الدول توافق تمام الموافقة على افكار الباب العالي السامية ولكنها تشدد في ان لا يتم شئ، وان لا يوافق على اى صلح مع محمد علي مالم يوافق عليه الحلفاء

الذين بتدخلهم يمكنهم أن يحصلوا للسلطان على شروط مضمونة وأكثر موافقة (١)

فقبالات إنجلترا والنمسا هذه الدعوة من فرنسا بالترحاب ورأت هذه الدول أن الوقت قد حان للشروع في عمل ليس لمنع الروسيا من التدخل بمفردها فحسب بل لايقاف مطامع محمد على الذي كان يستخدم نفوذه في القصر السلطان لاجل الحصول على شروط حسنة ، فقد اجتمع كبار رؤساء الحكومة وقرر المجلس على ارسال مندوب آخر لمحمد على يؤكد له ان مهمة المندوب الاول كانت لاعلان تولية السلطان الجديد فقط وان الشروط التي قدمها لم تكن نهائية . وكان يظن أن الشروط التي يحملها المندوب الثاني احسن كثيراً من الشروط الاولى اذ كانت تتضمن زيادة على جعل حكومة مصر وراثية جزءاً من الشام ان لم تكن سوريا باكملها (٢)

تقديم
المذكرة
المشتركة

فلما علم « مترنخ » بذلك رأى ان التصريح الذي أرسلته الحكومة الفرنسية اذا أعلنته الدول متحدة للباب العالي فان المفاوضات بين السلطان ومحمد على لا بد أن توقف مراعاة لرغبة الدول . وفعلاً أسرع فأرسل مذكرة ٢٧ يولييه سنة ١٨٣٩ الشهيرة لسفيره بالقسطنطينية لتسليمها للباب العالي وكتب ممثلو الدول الى سفرائهم بالقسطنطينية ليشتركو مع سفير النمسا في تقديم المذكرة للحكومة العثمانية

وفي يوم ٢٨ يولييه سنة ١٨٣٩ قبل سفر المندوب العثماني الى الاسكندرية

(١) أوراق برلمانية من الدوق دلماسيا الى بوركني في ٢٦ يولييه سنة ١٨٣١

(٢) أوراق برلمانية : خسرو الى محمد على يولييه سنة ١٨٣١



اللورد بالمرستون
وزير خارجية إنجلترا

قد

الجزء

أن

أر

مع

غير

٢٩

الم

و

ال

ال

لا

ا

ف

ال

س

—

قدم سفراء الدول «المذكرة المشتركة» وفيها يذكرون الباب العالى بأن الدول الخمسة متفقة فيما يختص بالمسألة الشرقية ويطلبون من حكومة السلطان أن لا يبرم أى اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه الدول (١)

فتقبل الباب العالى هذه المذكرة بالشكر ولكن يظهر من الخطاب الذى أرسله خسرو الى محمد على أن كبار الدولة كانوا يفضلون تسوية المسألة مباشرة مع محمد على وانهم ينظرون إلى تدخل الدول فى مسألة بين السلطان والوالى من غير ارتياح . إلا أنه لم يسع الحكومة العثمانية أمام مطالب الدول إلا موافقتها وأعلن معتمدو الدول المذكرة إلى محمد على فى ٦ اغسطس سنة

اثر تقديم
المذكرة
المشتركة

١٨٣٩ فاشتد غيظه من خسرو وهو المسئول فى نظره عن قبول مثل هذه المذكرة التى سلبت السلطان استقلاله ووضعته تحت حماية الدول فى أوروبا وعلى ذلك أرسل لوكيله بالقسطنطينية ان يستمر فى مفاوضة الباب العالى كأن لم تقدم هذه المذكرة . إلا أن تقديم المذكرة للباب العالى من الدول الخمسة لم تكن لتتوقعه فرنسا التى كانت تحسب أن حكومة روسيا لا يمكن أن تشترك مع باقى الدول فى اتخاذ هذه الخطوة . وكانت نتيجة اشتراك روسيا احداث تغير عظيم فى مجرى الحوادث السياسية الآتية فقد كتب سفير فرنسا بلندن إلى حكومته يقول « ان اتفاق روسيا الفجائى مع باقى الدول لم يكن منتظراً قط وان الوقت قد حان لتغيير سياسة الريب والتهديد ازاء روسيا » (١)

(١) اوراق برلمانية : رسالة نمرة ٢٢٦

(٢) اوراق برلمانية : « بوركنى » الى « سولت » ١٨ اغسطس سنة ١٨٣٩

الفصل الثامن

عند مفترق الطرق

بتقديم المذكرة المشتركة انتهى الفصل الأول من المسألة الشرقية
 بالمرستون ولكن انضمام روسيا الفجائي إلى جانب الدول كان بمثابة ضربة لفرنسا
 جعلتها تضارب وتحارب في سياستها، وأصبح «المرستون» بعدها ذا اليد
 الطولى في إدارة الأمور بمهارة ومقدرة فائقة. تقلد «المرستون» وزارة
 الخارجية الانجليزية في ١٨٣٢ وسار على منهج استاذة «كاننج» في اتباع
 خطة هجومية لا يتقيد بتقاليد حزبية أو بمعاهدات، بل كان رائده في
 سياسته المصالحة وبعد الصيت. وكان في ذلك الوقت في السابعة والأربعين
 من عمره نحيفا وجريئا لا ترعزعه الحوادث ولا يأبه بمن يخالفه في رأيه
 وكان مستقلا في إدارة شؤون وزارة الخارجية. لا يتدخل في أعماله لأملاك ولا
 وزارة. وكان اذا نوقش في «البرلمان» في خطته السياسية تجنب الموضوع
 الأساسي للمسألة وأفاض في الكلام على نقط الموضوع الفرعية وختم
 الكلام ختاماً مقبولا من الجميع. وبالفعل كان «المرستون» ككل سياسي
 لا يبالي بما يقوله أو بما يسالعه من السبل مادام ذلك كله في سبيل تنفيذ
 أغراضه، فلا غرابة إذن أن يصبح «المرستون» قطب السياسة الأوروبية
 في زمن كان يعيش فيه «مترنخ» و«لوى فيليب» و«نقولا».

خطة

وقد قرأ رأى «المرستون» في سياسته ازاء مسألة الشرق من أول ما
 بدأ النزاع بين الباشا والسلطان فقد كتب الى سفيره بباريس «الورد
 بالمرستون

جراثمیل « يقول: » انه قد استقر رأيه في الموضوع منذ زمن طويل وهو
وجوب مساعدة السلطان بكل قوة وإخلاص سواء اشتركت فرنسا أو لم
تشارك. ^(١)

ولما نشبت الحرب بين السلطان ومحمد علي صمم « بالمرستون » على
شيئين : الأول عدم مساعدة محمد علي بأي حال من الأحوال والثاني
عدم السماح للروسيا بالأفراد في العمل . واذ أن ثقته في روسيا والنمسا
كانت قليلة وصل أوامر الاتحاد بينه وبين فرنسا خوفاً من اتحاد فرنسا
مع روسيا ولكن زالت مخاوف « بالمرستون » منذ أن وقع « بوتنف »
سفير روسيا بالقسطنطينية مذكرة الدول ، وعد « بالمرستون » هذا العمل
من قبل روسيا نزولاً عن المركز الاستثنائي التي حصلت عليه بمقتضى
معاهدة « هنكار سكسكي » . عند ذلك وجه « بالمرستون » كل مساعيه ليضعف
من النفوذ الفرنسي في الشرق وذلك بقهر محمد علي وتحديد مطالبه . حقاً
أن « بالمرستون » قد أَرْضَى محمد علي لما رفض الدخول في معاهدة هجومية مع
السلطان وحين شدد على الباب العالي أن يتجنب محاربة محمد علي . ولكنه
فعل كل هذا رغبة في خدمة السلطان لا حباً في محمد علي . والآن وقد
نشبت الحرب وعرفت نتيجتها وتدخلت الدول وقدمت المذكرة المشتركة
عزم « بالمرستون » على تسوية المسألة الشرقية تسوية نهائية .

لم يكن محمد علي في نظر « بالمرستون » إلا عنصراً ناخراً في جسم الدولة
لا بد من بتره حتى تتمكن الدولة من الحياة والوقوف امام روسيا فلم ومحمد علي
يكن شأنه شأن الدول وخاصة فرنسا التي كانت تعتقد أن الرجل المريض

(١) « حياة بالمرستون » جزء اول : من بالمرستون الى جراثمیل ٥ يونيه سنة ١٨٣٨

صائر إلى الموت وأنه يحسن بالدول توزيع التركة على وراثته . بل كان من فكره أن الدول التي عاشت طويلاً يكون سقوطها بطيئاً وان الدولة على أي حال ستبقى إذا ما قوينا بنيانها بدلاً من هدمه .^(١)

وعلى ذلك كان يعتقد « بالمرستون » أن الواجب يقضى بطرد حكومة محمد علي من سوريا ومن مصر إذا أمكن . وعزز كلامه في البرلمان رداً على انتقادات المستر « هيوم » نائب « كلكني » بقوله « إن مركز محمد علي بمصر يشبه مركز نائب الملك في أيرلنده إذا أراد تكوين حكومة وراثية لأسرته في أيرلنده واسكتلنده . ولست أرى كيف أن حسن إدارة الحكومة في مصر يمكنها أن تؤثر في مسألة سياسية عظمى تمس مصالح بريطانيا . وهي مسألة بقاء الدولة العثمانية أو تجزئتها »^(٢) ولما طالبه المستر « هيوم » بتعريف وحدة الدولة العثمانية وتفسير إحتلال بريطانيا لعدن واغتصاب الروسيا وفرنسا الكثير من أملاكها لم يجر « بالمرستون » جواباً وغفل عن الرد . وعلى ذلك لم ير بالمرستون في ١٨٤٠ مبرراً لتعضيد حكومة محمد علي وهو الذي قال عنه في سنة ١٨٣٨ في رسالة « لكمبل » « انه ما رفع اسم محمد علي في نظر حكومات أوروبا إلا جهوده العظيمة التي قام بها في سبيل تأييد السلام في بلاده ومسايعه الناجحة في إقامة دعائم العدل بين رعاياه »^(٣) . ورغب أن تعترف حكومة إنجلترا في مقابل ذلك من تلقاء نفسها باستقلال المستعمرات الاسبانية في أمريكا وتؤيد

(١) حياة بالمرستون الجزء الثاني بالمرستون الى بلور ١٣ ديسمبر سنة ١٨٣٦

(٢) مجموعة « هنسرد » ٢٧ مارس سنة ١٨٤٠

(٣) اوراق برلمانيه بالمرستون الى كمبل يوليه سنة ١٨٣٨

الحركات النيابية في اسبانيا والبرتغال وتسعى جهدها في سبيل استقلال اليونان والبلجيك وتضمن مع ذلك على محمد على منشاء السلام والعدل في مصر بكلمة واحدة في سبيل تأييده .

ويظهر أن سبب العداء الذي كان يظهره بالمرستون لمحمد على هو ارتباط اتحاد مصر الوثيق بفرنسا و نابليون فقد أصبح محمد على في نظر الفرنسيين نابليوناً آخر يبذر بذور المدنية الفرنسية أينما قامت حكومته . زد على بمحمد على ذلك شكر الفرنسيين لمحمد على لاستخدامه كثيرًا من أنصار الامبراطورية الفرنسية الأولى في حكومته . وكان الفرنسيون ينظرون إلى أعمال محمد على بعين الإعجاب والفخر لأنه أنشأ حكومة ودولة أقوى كثيرًا من الحكومة التي أقامتها جيوش أوربا وعواطف شعوبها على اطلال اليونان القديمة ^(١)

من أجل ذلك أصبح محمد على محل إعجابهم ووجدت الحكومة الفرنسية فيه حليفًا تعتمد عليه في نشر نفوذها على سواحل البحر الأبيض المتوسط ضد نفوذ إنجلترا . وفوق ذلك كانت فرنسا ترى في تعاضدها لمحمد على تعاضيداً وإنهاضاً لتركيا نفسها . ومع أنه لم يكن من رأيها استقلال محمد على استقلالاً تاماً عن الترك كانت ترى أن يبقى محمد على وممتلكاته جزءاً من نظام الدولة العلية التي ضمنت الدول استقلالها ووحدتها .

غير أن سياسة فرنسا في الحقيقة لم تكن بمثل هذه الصراحة فلم تعلن غلطة فرنسا السياسية آراءها للدول على الرغم من ظهورها دائماً بمظهر المعضد لمحمد على وفضلت أن تخفي الحقيقة وتظهر للدول أنها كغيرها صديقة للسلطان .

(١) راجع « مذكرات السير شارلس مري » عن محمد على

وفوق ذلك كانت تعمل دائماً سرّاً وعلانية ضد سياسة روسيا . وكانت نتيجة هذه الآراء المتضاربة ان ضلت سياسة فرنسا طريق الصواب وأدى ذلك إلى وضع المذكرة المشتركة وتقديمها إلى الباب العالي . وهنا غلطة فرنسا الكبرى فانه لم يكن من مصلحتها الاشتراك في تقديم مثل هذه المذكرة في حين أنها تعلم أن آراءها في مستقبل محمد علي لم تكن لتوافق عليها باقي الدول أما روسيا فقد وقعت على المذكرة لعلها بأن اكتساب ثقة الدول وخاصة ثقة إنجلترا أنفع لها كثيراً من مركزها الوهمي على البسفور . وأما النمسا فانه رضيت بفكرة اجتماع مؤتمر الدول للبحث في المسألة الشرقية وماذا كان يهمهم « مترنخ أو نيقولا » من جهة محمد علي أو بشأن ما يمنحه السلطان من الأقاليم بجانب الأزمة السياسية بأوروبا وما يمكن أن تنتج من المنازعات ؟ وحال تقديم المذكرة بدأت فرنسا تصالح خطأها الأول وذلك بأيضاح شروط الصالح مع محمد علي . وقد أرجأت الحكومتان الانجليزية والفرنسية المناقشة في تجديد الأقاليم التي تمنح لمحمد علي لتظهر بمظهر الاتحاد التام أمام روسيا في أول الأمر .

وأول ما بدأ الخلاف كان بشأن الأسطول العثماني الذي وضع في أيدي محمد علي فقد كان من فكر الحكومة الانجليزية إخراج الأسطول ظهور الخلاف بين إنجلترا بالقوة من المياه المصرية ولكن فرنسا اعترضت على استعمال القوة ضد فرنسا محمد علي وفي المرة الثانية نشأ خلاف بين الحكومتين بسبب وجود اللورد « بنسبني » السفير الانجليزي بالقسطنطينية الذي كان يعمل ضد اغراض الحكومة الفرنسية .

أما الخلاف الحقيقي بين الحكومتين فانه نشأ بسبب مسألة الأقاليم

التي تمنح لمحمد علي . فقد كتب «سولت» الى سفيره بالبحر في ٢٦ يولييه يقول : إن محمد علي لا بد أن يشعر بتحسين مركزه عقب انتصاره على السلطان الذي هاجمه من غير حق وله على ذلك أن يطعم في أكثر مما كان يستحقه وإذا أغفلنا ذلك نكون قد أنكرنا الحقائق المؤكدة .^(١)

ثم استطاع «المارستون» أغراض حكومة فرنسا فعلم أنها تريد اعطاء محمد علي حق الوراثة في حكم الولايات التي يحكمها ماعدا «أطنه» و«كريد» وبلاد العرب .^(٢)

غير أن «المارستون» كان يقطن انه إذا بقيت سموريا تحت حكم محمد علي فانه لا يمكن أن يتم سلام بينه وبين السلطان وفوق ذلك فان استحواذ محمد علي على سموريا يجعله سيد الطريقين إلى «الهند» طريق «السويس» وطريق «الفرات»، وسيادة محمد علي تنطوي على امتداد النفوذ الفرنسي في الشرق وهذا ما كان يريد «المارستون» إيقافه . وعلى ذلك أعلم «المارستون» الحكومة الفرنسية باعتقاده أن الصحراء يجب أن تفصل بين ممتلكات محمد علي والسلطان وأن الواجب يقضى بأن ينكمش محمد علي في مهده الأول «مصر»^(٣)

فلما عارضت حكومة فرنسا زاد ارتياب «المارستون» في نية الحكومة الفرنسية واستبعد اتفاقها معها في سياسته فتحول إلى نقطة أخرى يختبر منها حقيقة شعور الحكومة الفرنسية نحو محمد علي فطلب منها إبداء رأيها

(١) اوراق برلمان : سولت الى بوركني ٢٦ يولييه سنة ١٨٣٩

(٢) «مذكرات جيزو» جزء رابع ص ٣٤٣

(٣) «تاريخ حياة المارستون» من المارستون الى بلور اول سبتمبر سنة ١٨٣٩

بشأن الوسائل القهرية التي ترى انه يجب أن تستخدم ضد محمد علي في حالة
اصراره على مواصلة الحرب ضد السلطان أو في حالة رفضه للشروط التي
ستقدم اليه وامتناعه عن تسليم الأسطول العثماني، وكانت هذه المسألة من
أدق النقاط في نظر الحكومة الفرنسية ولا تستطيع أن توضح رأيها فيها
فلم ير «سولت» مندوحة عن أن يقول انه يجب الاتفاق على الشروط
قبل كل شيء. غير أن «المارستون» علم الحقيقة من سفيره «بلور» وهي أن
فرنسا لا يمكنها أن توافق أبداً على استخدام وسائل قهرية ضد محمد علي^(١)
فزالت ثقة «المارستون» بفرنسا وأخذتهم باغراض وطامع شخصية تعمل
لها وتخشى التصريح بها وأنها لا تغني بمصالح السلطان جانباً من الاهتمام
هذا إلى عدم احترام عهودها وتصريحاتها.^(٢)

*
* *

انتهاز أسرع سفير روسيا بياريس وأخبر حكومته برفض فرنسا استخدام
الوسائل القهرية ضد محمد علي وأشار إلى الخلاف الواقع بين فرنسا وانجلترا
في هذه المسألة. وكانت خطة روسيا في ذلك الوقت تدعو إلى الإعجاب
الحكومتين فقد كتب وزير روسيا الكونت «نسلرود» إلى الدول ليوجهوا مساعيهم
نحو الاسكندرية بدل توجيهها إلى القسطنطينية حيث لا يتوقع فيها خطر
مطلقاً وإن روسيا وإن أظهرت في هذه المذكرة غيرتها على القسطنطينية
فقد كانت تحبذ مع هذا فكرة المفاوضة مباشرة مع محمد علي. غير أن
مترنخ «والمارستون» لم يرغب في الاعتراف بمركز محمد علي المستقبل

(١) من «بلور» الى «المارستون» ٢٦ اغسطس سنة ١٨٣٩

(٢) «المارستون» الى «بلور» ٢٤ ستمبر سنة ١٨٣٩

فيفاوضاه مع ان الدول كانت على علم باتفاق محمد على مع السلطان عند «كوتاهيه» وان السلطان قد أرسل مندوبين من قبله للمفاوضة مع محمد على، وعلى ذلك تغافلت الدول عن حقيقة الاحوال وولت وجهها نحو فرنسا تستفسر عن رغبات محمد على .

ولما وصلت رسالة السفير الى روسيا تنبه القيصر وأراد أن ينتهز فرصة الخلاف بين إنجلترا وفرنسا فيصالح علاقات روسيا بإنجلترا، وكان كره القيصر لاتحاد حكومتى الغرب التيايتين كرها لا يفوقه الا كرهه الشخصى «للوى فيليب» ملك فرنسا ففطن «نسلرود» لرغائب «المارستون» وبادر بإرسال مندوب خاص الى حكومة إنجلترا خوفاً من أن تتحسن العلاقات ثانياً بين إنجلترا وفرنسا وكتب سفير إنجلترا في بطرسبورج الى المارستون يقول «انه مادعا القيصر لارسال المندوب الخاص الا علمه بأن حكومة إنجلترا قد حسنت ظنها بروسيا وأخذت تنظر الى سياسة القيصر ورغائبه بعين العدل والموافقة»^(١)

وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٣٩ وصل البارون «برنوف» الى لندره وكان سياسياً قادراً وملماً بسياسة روسيا الخارجية وبآراء القيصر ففاتح الحكومة الانجليزية في مهمته وأخبر المارستون أن روسيا ترى ان يمنح «برنوف» محمد على حكومة مصر فقط وتجعل وراثية في أسرته وان تخلى الاقاليم الاخرى وان روسيا مستعدة للاتفاق مع باقى الدول فى استخدام أى وسائل قهرية تراها الدول، وعلى روسيا ان تحمى القسطنطينية وآسيا الصغرى بصفة

(١) سجلات وزارة الخارجية (روسيا) الى المارستون فى ٢٧ اغسطس

سنة ١٨٣٧

كونها منتدبة عن الدول لا بحق معاهدة «هنسكارسكلسي» ، وقد ادّعى
البارون «برنوف» بالمرستون باعلاّنه استعداد حكومة روسيا للنزول
نهائيا عن هذه المعاهدة وان يحل محلها معاهدة دولية أخرى تحتم احترام
المبدأ القاضي باغلاق البسفور والدردنيل امام جميع السفن الحربية . وزاد
برنوف على ذلك أن أسر القول بالمرستون بأن رفض فرنسا الدخول في
المعاهدة مما يزيد القيصر سرورا^(١) . بعد ذلك أعلم بالمرستون فرنسا وباقي
زملائه بفعوى الرسالة الروسية وجاء الرد من سولت ينحى على بالمرستون
باللائمة ويقول ان غرض روسيا ظاهر وهو فصل فرنسا من إنجلترا
وتدخلها في القسطنطينية بمفردها ، وقال في اختتام لسفيره ان فرنسا لا يمكن
أن تسمح ابدأ بدخول اسطول أجنبي أمام القسطنطينية ما لم يظهر اسطول
فرنسا أيضا^(٢)

فاعتمدت الوزارة الانجليزية على اعتراض حكومة فرنسا واعتذرت
الحكومة عن قبول مقترحات «برنوف» ، ولكن على الرغم من عدم موافقة الوزارة
الانجليزية أبدى بالمرستون ارتياحه الخاص لاراء روسيا ورحب بمقترحات برنوف
وأفهمه أنه يريد العمل مع روسيا وترك فرنسا اذا رفضت الاشتراك في
المشروع المعروض

ولكن انفصال فرنسا عن إنجلترا كان عملا لا ترضاه الوزارة ولا
الملك ، ولم يكن بالمرستون نفسه يريد الانفصال نهائيا لعلمه بأن فرنسا

(١) سجلات وزارة الخارجية من بالمرستون الى سفير روسيا في ١٢٥ أكتوبر

سنة ١٨٣٩

(٢) من سولت الى بوركني في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩

وحدها هي التي يمكنها التأثير في محمد علي . وعلى ذلك اضطر الى ارضاء
 الوزارة فعدل شروطه الاولى ورضى أن يحيد عن مبدئه تفاديا من في كسب
 الانفصال عن فرنسا فعرض على سبستيانى السفير الفرنسى بلنדרه أن يمنح
 محمد علي ولاية عكا زيادة على مصر ويكوفان وراثيتين ولكن بشرط أن بجانب إنجلترا
 تشترك فرنسا في قهر محمد علي اذا رفض (١) فأبلغ السفير اقتراح بالمرستون
 الى حكومته وذكّر ان هذه الشروط وان كانت لا تفي بأغراض فرنسا فانه
 يخاف أن تكون آخر ما يمكن الحصول عليه . ثم ما عثم أن جاء جواب
 الحكومة الفرنسية فكان مثيراً للغضب بالمرستون فانها لم تقتصر على
 الاحتجاج على استعمال الدول الوسائل القهرية ضد محمد علي بل وضعت
 نفسها موضع محمد علي ورفضت الشروط المقدمة قائلة « ان محمد علي لا يخضع
 لشروط كهذه يرى فيها سقوطه وانه يفضل ان يثير الحرب ثانية فتكون
 أقل ضرراً به وأشد وبالا على أوروبا . ان فرنسا ترفض ان تسوق محمد
 علي الى نتيجة كهذه مع علمها تماما بأن هذا الرفض سيقرب ما بين إنجلترا
 والروسيا » (٢)

لم يسىء الى قضية محمد علي شيء اساءة رد فرنسا عنه فان الشروط
 المقدمة كانت أقصى ما كان ينتظر ان توافق عليه بقية الدول . لذلك استقبل
 بالمرستون جواب الحكومة بسكوت تام ولما انتهى السفير من كلامه
 سحب باسم الوزارة الاقتراح المقدم وكانت نتيجة ذلك ان توترت العلاقات بين
 الحكومتين وكانت الجرائد من الجانبين تضرع نار البغضاء وتثير شعور العامة

(١) من سبستيانى الى سولت في ٣ اكتوبر سنة ١٨٣٦

(٢) سولت الى سبستيانى في ١٤ اكتوبر سنة ١٨٣٦

وخاصة في باريس حيث كان محمد علي في المنزلة الاولى من قلوب الشعب الذي كان يعد أي اشتراك من جانب الحكومة في حل ضارفي النهاية لمحمد علي عملا ضد كرامة الوطن . وقد شارك الشعب في هذا الشعور وزراء فرنسا والملك نفسه فاستدعت الحكومة سفيرها بالقسطنطينية أمير البحر «روسين» الذي اشتهر بعدائه لمحمد علي، وردت الحكومة الانجليزية على ذلك باستدعاء الكولونيل كامبل معتمدها السياسي بمصر الذي اشتهر بالدفاع عن محمد علي

ولم تكن الاحوال في الشرق هادئة أثناء ذلك فلم يكف محمد علي عن السعي لدى ديوان السلطان والسلطانة الوالدة للموافقة على طلباته واتمام الصلح معه مباشرة بدلا من انتظار الدول لتصلح ما مساعي محمد علي بينهما، ولم يكن الباب العالي بأقل رغبة في عقد الصلح مع محمد علي . لدى الديوان مباشرة وخاصة بعد أن اصطلح محمد علي والوزير خسرو باشا . وقد دعا العالي ذلك السفير بنسبني الى ان يكتب لحكومته يقول ان للباب العالي رغبة شديدة في الاتفاق مع محمد علي (١) . ولم يؤخر عقد هذا الاتفاق الا الحاف بنسبني وتذكيره حكومة الباب العالي بأن مسألة الاتفاق ترجع الى الدول العظمى وتمسها في أقرب مصالحها . فتأجل الاتفاق وطال عذاب حكومة تركيا امام قوتين قوة محمد علي ذات التأثير السحري في الديوان والقسطنطينية وباقي الولايات ، وقوة الحلفاء الذين اكدوا لها الاتفاق والانجاز في أول الامر ثم ما لبثوا ان اختلفوا اختلافا لا امل في تلافيه بسهولة .

(١) بنسبني الى بالمرستون في اكتوبر سنة ١٨٣٩

وكان بالمرستون شاعرا بضرورة الاسراع في انجاز الصلح ولذلك
رحب بعودة السكونت برنوف الى لندره مزوداً برضاء القيصر عن تعديل
الاقتراح الاول على حسب رغبة الحكومة الانجليزية وهو ان روسيا
توافق على دخول أسطول من دول الحلفاء الى البسفور مع الاسطول
الروسي في آن واحد. فزال بذلك كل اعتراض في سبيل اتفاق الدول، واشترك
وأطلع بالمرستون السفير سبستياني على تصريح روسيا الجديد وأخبره
بأن النمسا وبروسيا سيرسلان مندوبين الى لندره للاتفاق على ما يجب
فأسرع سبستياني الى اخبار حكومته بهذا النبأ فأحدث الخبر اضطراباً
اذ لم يكن منتظراً أن روسيا تتخلى عن مركزها الممتاز في الاستانة،
وبذلك فقدت فرنسا أهم حجة تدافع بها عن خطتها أمام بالمرستون. ومع
ذلك أبدى المارشال سولت ارتياحه العظيم من موافقة الروسيين غير المنتظرة
ولكنه في الوقت نفسه أبدى ارتياحه بشأن الاسباب التي دعت
الحكومة الروسية الى تغيير أو تخطئة سياستها القديمة^(١)

فستئم بالمرستون من هذه الخطة التي اتبعتها فرنسا وصمم على العمل خطة الميسو
سواء انضمت فرنسا أو لم تنضم. أما في فرنسا فثار الرأي العام ضد تحالف
الروسيا وانجلترا وقام « تير » في مجلس النواب ينادي بأن واجب فرنسا
يقضى عليها بمساعدة مصر بكل جهدها صونا لمصالحها ولشرفها.^(٢) وكانت
نتيجة هذه الحركة أن انقلبت الحكومة وأصبح « تير » رئيساً لها وعين
« جيزو » سفيراً لفرنسا أمام قصر سنت جيمس وكان « تير » من أشد

(١) أوراق برلمانية : سولت الى سبستياني في ٩ ديسمبر سنة ١٨٣٩

(٢) تاريخ اوربا السياسي « ديدور » جزء اول ص ٣٧٤

أنصار محمد علي وما كان ينتظر منه ان يوافق على اجتماع مؤتمر دولي يقضى على صاحبه . أما خطته السياسية فهي التمسك طبعاً بمبدأ مذكرة ٢٧ يولييه ولكن كان رأيه انه اذا اتفق السلطان ومحمد علي مباشرة فلا ينبغي أن تتدخل الدول وتلغى هذا الاتفاق . ومع ان هذا كان مخالفاً للمذكرة كانت هذه الطريقة في نظره هي التي بها يتمكن الباشا من كسب شروط طي . صاحته من غير اشتباك مع الدول . ولأجل أن يساعد في اتمام هذا الحل أرسل « تير » رسلاً من لدنه الى القسطنطينية والاسكندرية لتسهيل سبيل الاتفاق بين الطرفين . وكتب الى سفيره في لندره يحذره من الاشتراك في مؤتمر أو في اتفاق أو في جلسات حتى يتسنى الاحتجاج على ما يقرر ولا يكون انفصال فرنسا ظاهراً . وأكد عليه أن يماطل قليلاً ويكسب الوقت ^(١)

وبعد ذلك سارت المسألة ببطء إذ طلب الحلفاء مندوباً من تركيا مندوبو الدول للعمل ليشترك في المؤتمر وكان قد حضر إلى لندره إنشاء ذلك « نيومن » عن مع انجلترا النمسا و « بيلوف » عن بروسيا ووصلتهما الأوامر من حكومتيهما أن يبذلا جهدهما في تفهيم جيزو ضرورة الاتفاق وتحذيره من نتائج الانفصال . واستعملت النمسا نفوذها لدى بالمرستون ورغبت اليه أن يتساهل مع فرنسا مرة أخرى . وكان من رأى مترنخ أن لا يتم عمل من غير اشتراك فرنسا لأن أسطول انجلترا وحده لا يمكنه مساعدة الأتراك على طرد محمد علي من الشام ولا بد من استعمال الجيوش البرية ولم تكن النمسا مستعدة لأرسال جنودها إلى الشام لأن الروسيا وانجلترا كانتا مشغولتين

بحروبهما الأولى في القوقاز والأخرى في الأفغان والصين وكندا . لذلك اقترح مترنيخ أن يعطى محمد على النصف الجنوبي من بلاد الشام زيادة على مصر» ولكن إذا رفض الباشا هذه الشروط فإن النمسا لا تتردد في اتخاذ الوسائل القهرية ضد محمد على وتضع أسطوطها تحت تصرف بريطانيا والروسيا»^(١)

فلم يمانع بالمرستون وبلغ الخبر إلى «جيزو» وهذا أبلغه إلى حكومته في ٧ مايو سنة ١٨٤٠ ولكن جواب «تيير» لم يكن أسعد حظاً من جواب سلفه . قال «تيير» انه متأكد أن محمد على سيرفض الشروط ولا يقبل أبداً تقسيم سوريا ، وماذا تكون النتيجة لو طلب محمد على «أطنه» وهدد الدول بعبوره جبال طوروس وشبت نار الحرب ؟^(٢)

فضاعت بذلك فرصة ثانية لحل المشكل بطريق السلم . ولو كانت هذه الشروط عرضت على محمد على نفسه مباشرة ومن غير تأثير فرنسا لقبها حتماً . وقد نشأ عن هذا الرفض حدوث أزمة سياسية شديدة بين الدول ، وما سبب ذلك الا الفكرة المعكوسة التي كانت تشغل أفكار الفرنسيين من كبيرهم إلى صغيرهم من جهة قوة مقاومة محمد على في بلاد الشام وكان «تيير» يعتقد تماماً أن غالبية الوزارة الانجليزية لا توافق على مشروع بالمرستون ، كذلك كان من فكره أن النمسا وبروسيا ستضطران إلى التقهقر عاجلاً أو آجلاً . وعلى العموم كان «تيير» يعتقد أن الدول تتكلم ولا يمكنها أن تتفق على العمل سريعاً . وفي اثناء ذلك التردد يكون محمد على

(١) «مذكرات جيزو» جزء خامس ص ٨٠ - ٨٦

(٢) أوراق برلمانية تيير الى جيزو في ١١ مايو سنة ١٨٤٠

قد سوى شروط الصلح بينه وبين السلطان .

وفي غضون ذلك كانت الأحوال تجري في الشرق وفق رغبة «تير»
فقد سقطت حكومة خسرو باشا في القسطنطينية وأصبح الصلح بين
الجانين قاب قوسين إذ أرسل محمد علي في ٢١ يونيه مندوبا خاصا ليهنئ
السلطان بميلاد ابنه ومعه هدية قدرها ٢٠٠٠ كيس وفوق ذلك، فكانت
رسالة سامي بك الى السلطان ترمي إلى الاتفاق على الشروط إذ أن العقبة
في سبيل الاتفاق قد زالت بسقوط خسرو باشا وان محمد علي مستعد لتقديم
الأسطول العثماني ولأخلاء بلاد العرب وكريد إذا رغب السلطان، وفي
مقابل ذلك يلتزم محمد علي منحه حكومتى سوريا ومصر وجعلهما وراثيتين
في نسله .^(١)

وكان «تير» قد أرسل رسلا من قبله لتسهيل طريق الاتفاق بين
الطرفين فعلم بالمرستون بمساعي «تير» وخشى انه إذا لم يقيم بعمل حاسم
فان المسألة تقلت من يده وتدخل في حيز العمل الواقع

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) من هودجس الى بالمرستون ١٦ يونيه

سنة ١٨٤٠

الفصل التاسع

الازمة السياسية في سنة ١٨٤٠

كانت نتيجة موقف الجمود الذي وقفه «تير» أمام الدول أن دخلت المسألة المصرية في دورها المملوء بالحوادث العنيفة. في هذا الدور وصلت الدول، بعد بحث وتبادل آراء دام سنة، الى انه لا أجل استتباب السلم في انحاء الدولة العلية يجب الاستعداد لخوض غمار الحرب. في هذا الدور انفرط عقد الحلفاء وتهدم ما أبدته الدول مراراً من اتفاقها وفيه أيضاً ظهرت قوة محمد علي بمظهر لا يتفق مع ما عرف عنه في أوروبا وقد امتلأ هذا الدور بالمناقضات الغريبة من تقرير وتغيير وعزل وإعادة مما زاد في خيال الدول.

تراكمت الحوادث التي اضطرت بالمرستون الى العمل فقد جاء نوري بك مندوت تركيا وقدم للحلفاء مذكرة في ١٨ مايو يشكو المحن التي حلت بتركيا من جراء تأخير الصلح في الشرق، ثم قدم شكيب المفوض العثماني أمام مؤتمر الدول وقدم مذكرة للسفراء بلهجة شديدة قال فيها: «انه مهما بلغ الأيلام من جراء الاتفاق مع محمد علي مباشرة فان إيلام تركيا من جراء عدم تنفيذ الأمانى الحسنة المدونة في المذكرة المشتركة اكثر وأشد»^(١) كذلك تدمرت حكومة روسيا من تأخير وتردد بالمرستون وأرسل سفير سنت بطرسبورغ يذكر بالمرستون بأن روسيا تنتظر بنافذ الصبر

(١) أوراق برلمانية «شكيب» الى «المرستون» في ٣١ مايو سنة ١٨٤٠

عزم حكومة جلالة الملك على الخطوة التي ستتبعها من غير اشتراك فرنسا (١) على أن بالمرستون لم يكن في حاجة لمثل هذا التذكير فانه لم يتأخر عن العمل مراعاة لرأي الوزارة الانجليزية وخواطر النمسا وبروسيا اللتين لم تريدا السير بدون فرنسا، ولقد اجتهد مندوباهما في اشتراك فرنسا في الساعة الأخيرة فقدا مشروعا يعطى به محمد على مصر وراثية والشام طول حياته ولكن «تير» رفض مرة أخرى وأصر على الوقوف منفرداً. (٢) عند ذلك لم يبق أمام بالمرستون إلا طريقان إما أن ترجع الدول عن وعدها الأول وتركيا وتترك المسألة تحل بنفسها وحينئذ تكون الدول قد أضرت بمصالحها ولم تبر بوعدها. وإما أن تتقدم الدول لمساعدة السلطان من غير اشتراك فرنسا مؤقتاً. واختار بالمرستون ومندوبو الدول الطريقة الأخيرة. ذلك لأن الظروف جاءت وفق اغراضهم فقد أخفق سامي بك مندوب محمد على في مهمته وأصبح رشيد باشا وزيراً. وكان هذا الوزير تركيا صميماً تربي تربية غربية صحيحة فكان يعتقد أن الدولة يجب أن تبقى واحدة لا تنجزأ ولا ينبغي أن ينشئ محمد على أسرة مالكة في قلب الدولة وأخذ بنسبني يعضده على السياسة اللازمة فكتب يطلب من الدول تنفيذ مذكرة يوليه سنة ١٨٣٩. ولما مال السلطان الى الاتفاق مع محمد على بمساعي سامي بك هدد رشيد بالاستقالة

ولكن أم من هذا كله أنه حدثت حوادث لم تشجع على قطع

(١) سجلات وزارة الخارجية (روسيا) سفير روسيا الى بالمرستون ١٤

فبراير سنة ١٨٤٠

(٢) «مذكرات جيزو» الجزء الخامس ص ٢٠١

تيار المفاوضة مع محمد على فحسب بل شجعت الجميع على ضرب محمد على انتهاز فرصة ضربة مؤلمة ، ذلك قيام ثورة في سوريا ضد الحكومة المصرية التي كانت الثورة في تزايد أن تنهض بالبلاد حربيا وزراعيًا وتجاريًا فأدخلت نظام الجندية الشام والاحتكار وأدخلت نظام المحاكم الحديثة التي يتساوى أمامها الجميع مهما اختلفت نحلهم . كل هذا نظر اليه سكان الجبل نظر المستريب . غير أن الثورة لم تقم فعلا إلا بعاملين الأول التشجيع من قبل حكومة تركيا والسفارة الانجليزية بالقسطنطينية والثاني قيام ابراهيم باشا بنزع السلاح من سكان لبنان ، واستفحل أمر الثورة فشغل ابراهيم باشا بقمعها واهتم محمد على فأرسل لابنه نجدة قوية على رأسها حفيده عباس باشا فلم يمس إلا قليلا حتى أخذت البلاد الى السكون وكتب المعتمد الانجليزي في دمشق الى حكومته يقول إن الثورة قد انتهت .^(١)

ولكن قبل وصول الخبر إلى أوروبا كان بالمرستون قد استخدم حادث الثورة في إقناع زملائه في الوزارة بضرورة العمل ضد محمد على وكانت الآراء في الوزارة الانجليزية منقسمة انقسامًا بينا ، فكان رئيس الوزارة اللورد « ملبورن » يخشى حدوث أزمة وزارية تفضي باستقالة الوزارة أو باستقالة بعض أعضائها فكان يعمل على التوفيق بين أعضاء الوزارة ، وكان بالمرستون مصراً على اتخاذ الخطوة النهائية وهي عقد المعاهدة من المعارضون غير اشتراك فرنسا ، غير أن الشعور العام في قصر الملكة وبين الأحرار بالمرستون المتطرفين كان لا يميل الى التدخل ضد محمد على خوفاً من انفصال فرنسا عن إنجلترا . ولا يزال الآن عدد من الرسائل المقدمة لأعضاء البرلمان بطلب

(١) أوراق برلمانية : من هُدجس الى بالمرستون ١٦ يولييه سنة ١٨٤٠

العطف على قضية مصر وعدم اهمال مصالحها وتضحية الأنظمة الراقية التي أدخلها محمد علي فيها ارضاء لسياسة المحافظة على كيان الدولة ^(١) وقد ظهر في البرلمان نفسه عدد من الأعضاء يدافعون عن قضية محمد علي.

ولما رأى بالمرستون أن حزب المعارضين له قد قوى هدد

الوزارة بالاستقالة إذا لم يعقد الاتفاق فقال في جوابه لرئيس الوزارة ^{تهديد بالمرستون الوزارة بالاستقالة} « أراني ازاء الاختلاف في الرأي بيني وبين أعضاء الوزارة بشأن موضوع المسألة الشرقية الهام مضطراً لترك منصبى تحت تصرف رئيس الوزارة

وان رأيى في هذا الموضوع رأى صريح لا يقبل التحوير وهو أننا إذا

تقهقرنا واحجمنا عن عقد الاتفاق مع روسيا والنمسا وبروسيا لأن

فرنسا لا تريد الاشتراك معنا فاننا نضع حكومتنا في مركز مهن غير لائق

وتصبح انجلترا كأنها آلة تحركها فرنسا. أما من جهتي فاني ما اقتنعت

بشيء في حياتي اقتناعي بصحة رأيي هذا، واني إذا كنت غير محق في

هذه المسألة فاني لا أرى لرأيي قيمة في أى مسألة أخرى (٢)

فكانت النتيجة أن خشيت الوزارة السقوط واضطرت إلى موافقة

ثورة الافكار بالمرستون، فلم يبق أمامه الا اقناع النمسا وبروسيا بعدم انتظار فرنسا ^{في فرنسا}

ولم يجد صعوبة مافي التأثير فيها لما كان جاريا في فرنسا من الثورة في الافكار

والمظاهرات والمقالات الحماسية وذكرى الحروب والانتصارات نابليونية

وذلك لسبب انتظار رفات نابليون من جزيرة «البا»، وعلى ذلك تم عقد الاتفاق

في ١٥ يولييه سنة ١٨٤٠. وفي يوم ١٧ يولييه طلب «جينزو» الى وزارة

(١) رسالتا «توماس واجهورن» سنة ١٨٣٧ و سنة ١٨٣٨

(٢) «تاريخ حياة بالمرستون» الجزء الثاني: بالمرستون الى بلور، يولييه سنة ١٨٤٠

الخارجية وهناك قرأ له بالمرستون مذكرة تنبيء بعقد اتفاق بين الدول الأربع من جهة وتركيا من جهة أخرى تهدئة الحالة في الشرق . وأبدى بالمرستون أسفه لأنفسه لأنفسه الدول المؤقتة عن فرنسا ورجا أن لا يدوم إلا انفصال طويلا وان تستعمل فرنسا نفوذها في الاسكندرية لدى الباشا لقبول شروط الاتفاق (١) أما جيزوفانصت طول الوقت ولم ينبس ببنت شفة ثم غادر مقر الوزارة وبلغ الخبر إلى حكومته

تعهدت الدول بمقتضى الاتفاق بمساعدة السلطان فعلا في اخضاع عقد معاهدة محمد علي ، وبينوا في لائحة خاصة أن يعرض السلطان على محمد علي لندره يولييه سنة ١٨٤٠ حكومة مصر وراثية وولاية عكا طول حياته وان يكون لمصر حق الاستقلال الداخلي بقيود متينة تربطها بالدولة مثل دفع الجزية وعدم تمثيل مصر في الخارج وتحديد الجيش والأسطول وسلطة منح القاب الشرق وضرب النقود الخ ، وان يمنح محمد علي فضلا عن مصر ولاية عكا طول مدة حياته فاذا لم يقبل هذه الشروط في عشرة أيام تنقص من حقوقه حكومة عكا ، فاذا تأخر عشرة أيام أخرى ولم يقبل فللسلطان الحق في اتخاذ أى طريق تشير به عليه مصالحه الخاصة ونصائح حلفائه . وفي وثيقة ثالثة وافقت الدول على أن الحالة في سوريا والحالة السياسية الخطرة في أوروبا تحتم عليها الاسراع في اتخاذ الوسائل الفعلية بلا تأخير ولا انتظار موافقة الحكومات على المعاهدة .

ويرى الباحث في شروط المعاهدة غمطاً ظاهراً لحقوق محمد علي وهو المنتصر في تقديم المعاهدة ميدان الحرب الواقفة جنوده في جميع البقاع التي يطلب بقاءها في يده . وهو

وحده الذي كان يمكنه لو شاء إثارة حرب أوربية عامه بأن يأمر جنوده
بالزحف على القسطنطينية. على أن المعاهدة لم تكن مبنية على قاعدة
منطقية إذ لا بد أن يكون محمد على أحد رجلين. إما رجلاً يستحق شيئاً
أو لا يستحق. فإذا كانت الحالة الأولى فلائى سبب عزلت فرنسا
ووضعت شروط صيبانية لا يمكن أن ترغب محمد على أو تؤثر في رجل
مثله. وسواء أعطى محمد على مصر وحدها أو هي والشام فإن العيب
بكيان الدولة حاصل على كل حال، وإذا كان محمد على لا يستحق شيئاً
فلم تشهر عليه الدول الحرب صراحة وتطرد جيوشه من الشام
ومصر أيضاً؟

لذلك لم يكن للاتفاق أثر حاسم إلا سوء العلاقات بين إنجلترا وفرنسا
التي أصبحت منذ إعلان شروط الاتفاق من ملكها لوى فيليب ووزرائها
ازاء المعاهدة إلى أصغر رجل في حالة هياج شديد ضد إجماع الدول على فرنسا التي ثار
ثأرها من أجل تألب دول أوربا عليها كما فعلت في سنة ١٨١٥ واتفاقها على
عزلها خارج هيئة الدول والاتفاق على حل مسألة حيوية أو أوربية من
غير استطلاع رأى فرنسا بل وعلى غير رغبتها. وقد عد الفرنسيون اتفاق
١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ اهانة لحقت الشرف الفرنسي وضربة قاضية لا بد
من الانتقام بسببها. فقام «لوى فيليب» وهدد الدول بأنه سيتولى رئاسة
الشعب الثائر ويطلق «غول» الثورة من عقاله بعد أن عمل على كبح
جماحه عشر سنوات (١) وكتب صديق إلى «جيزو» يصف له الحالة في فرنسا
فقال «ان الشعور الحربى بالغ أشده وكل يريد الحرب. حتى الروس

موقف
فرنسا

المعتدلة قد جرى فيها التيار وأصبحت تتوق للحرب وما من نائب كلمته إلا وصرح بضرورة اظهار قوة فرنسا» (١)

أما «تير» فنزل عليه الخبر كالصاعقة لأنه لم تصله من «جيزو» معلومات محدودة عن توقع عقد الاتفاق. وكل الذي وصله عبارة عن خلاف بين أعضاء الوزارة واحتمال استقالة بالمرستون، لذلك اتهم جيزو بقلّة النشاط وقصر النظر. ولكن الحقيقة هي أن جيزو قام بالواجب ولم يقصر في شيء فكتب إلى رئيسه في ١١ يولييه يقول «ان بالمرستون قد أوضح للوزارة آراءه بشدة واصرار وبين خطة العمل لعقد اتفاق مع الدول الاربع» (٢)

مسؤولية

أما الخلاف بين أعضاء الوزارة فقد صدق فيه حدس جيزو وانفرد «جيزو» لورد «هولند» ولورد «كلارندون» وهما عضوان من الوزارة وقدا اعترضا «وتير» للملكة ونصها: «تنصح الوزارة لجلالتك بالدخول في اتفاق الغرض منه اخراج محمد علي من سوريا. ويرى اللورد هولند واللورد كلارندون أن مثل هذا التدخل ليس من حسن السياسة ولا هو ضروري لصيانة شرف تاج جلالتك ولا مفيد لمصالح رعايا جلالتك» (٣)

فاذا كان قد قصر جيزو في انذار حكومته باحتمال ابرام الاتفاق فانما السبب في ذلك يرجع الى حذر بالمرستون وكتمانه كل شيء حتى يتم الاتفاق ولا يخشى من اذاعة الخبر. فالغلطة نهائيا هي غلطة تير وغلطة

(١) «مذكرات جيزو» الجزء الخامس: ص ٢٥٠

(٢) «مذكرات جيزو» الجزء الخامس ص ٢١٣ و ٢٥٠

(٣) «تاريخ حياة كلارندون» لمكسويل الجزء الثاني ص ١٩٦

فرنسا التي رفضت مرارا كل المفاوضات التي عرضت على أعضائها الحكومة ولم يفكروا يوما فيما عسى أن يكون مركز فرنسا لو اتفقت الدول ضدها. لذلك لما فوجئت الحكومة الفرنسية بالاتفاق خفي عليهم طريق العمل وتخبطوا في سياساتهم وخاصة أن فرنسا كانت مضطرة إلى التسك بمذكرة ١٨٣٩ التي وقعت عليها، فما كان يمكنها الوقوف في جانب محمد علي ومساعدته ضد الدول، إذ لا بد أن يجر ذلك إلى حرب أوربية عامة لم تكن الحكومة في حالة تمكنها من الدخول فيها إلا بعد سنة على الأقل.

من أجل ذلك دعا الملك «لوي فيليب» أكبر رجال حكومته إلى قصره للبحث في الحالة وقر رأيهم على إرسال رسل إلى محمد علي ليشجعوه ويتعهدوا حصونه واستعداداته الحربي وليخففوا من حدته، وفي أثناء ذلك يجب أن ^{خطه} الحكومة تستعد فرنسا للحرب. وكتب «تيير» إلى سفراء حكومته يشير عليهم الفرنسية بمبدأ لزمة التحفظ وابتداء التأثر في معاملاتهم مع سفراء الدول. أمارد تيير ^{للعاهدة} على بالمرستون فكان ردًا قوى الحجة. فقد كتب يقول «ان فرنسا ترى انه ليس من مصلحة الساطان في شيء ان تترك له اقاليم يعجز عن صيانتها وحكمها، كذلك لا ترى أي فائدة للسلطان من اضعاف الباشا الذي قد يكون قوة منيعة للدولة. وان فرنسا تعتقد انه ليس من الحكمة ولا من الاحتراس في شيء ان تقر الدول على وسائل تعجز عن تنفيذها، أو اذا نفذتها فبطرق ناقصة عظيمة الضرر» (١) وكتب إلى جيزو يأمره بمعاملة بالمرستون كما عامله فيتلو عليه المذكرة ويوجه إليه الاسئلة بشجاعة

(١) اوراق برلمانية : مذكرة جيزو إلى الحكومة الانجليزية في ٢٤ يولييه

مستفهما منه عما إذا كان لديه وسائل لمساعدة الثوار في سوريا وما إذا يكون شأن الدول لو رفض محمد علي الشروط التي يقدمها له السلطان رفضاً باتاً (١)

وكان « تيير » مصمماً في الحقيقة على الدخول في حرب أوربية إذا لم تحل العصاة الأوربية، ولم يكن غرضه تعضيد محمد علي فقط بل تمزيق معاهدات سنة ١٨١٥ وأعد إعتاداً مالياً عظيماً للاستعداد للحرب، وزيد الجيش والأسطول وأخذ في تحصين القلاع وانبعث الحماسة في داخل فرنسا وأخذ الناس يترنمون بالأناشيد الوطنية في مجتمعاتهم.

غير أن هذه المظاهر لم تؤثر في بالمرستون الذي كان واثقاً أن الملك لوى فيليب لا يمكنه الدخول في حرب تجر معها ثورة قد تودي بعرشه، بالمرستون في فكتب إلى « هودجس » المعتمد البريطاني بمصر يقول له ان فرنسا لا النجاح يمكنها أن تدخل في حرب ضد باقى دول أوربا من أجل محمد علي، وليس لدى فرنسا من القوة ما يمكنها من ذلك (٢)

وكانت فكرة بالمرستون تقضى بأخضاع محمد علي عاجلاً حتى اذا هزم رأى الفرنسيون أن لا ضرورة لدخول الحرب فتنتهى الأزمة بسلام. لذلك رأى ضرورة السرعة والانجاز في العمل. فبينما كانت المفاوضات دائرة بين معتمدى الدول ومحمد علي أرسل للأسطول البريطاني في مياه البحر الأبيض المتوسط أن يقطع المواصلات بين سوريا ومصر وكلف ممثلو الدول في سوريا إذاعة نصوص الاتفاق للعموم، وأخذ « بنسبني » ينظم حركة

(١) « مذكرات جيزو » جزء خامس : ص ٣٣٠ — ٣٣٥

(٢) أرراق برلمانية : بالمرستون الى هودجس ١٨ يوليه سنة ١٨٤٠

الثورة في سوريا وشرع أعوانه يرسلون السلاح والذخيرة خفية الى الثوار (١)

نعم ان الثورة كانت قد خمدت في يوليه ولكن كان هناك وميض قيام الثورة في سوريا تدمر لو تعهده خدام السوء بالمال والسلاح لشبت نار الثورة وشغلت من عمل ابراهيم عن الزخف على القسطنطينية وعرقلت مساعيه الحربية والحلفاء القسطنطينية محاصرونه من البحر . فكان مما لا بد منه لنجاح خطة الحلفاء اضرام نار الثورة في الداخل . وفعلا نجح الحلفاء في ذلك فكانت ثورة سوريا بسبب اخفاق ابراهيم ومحمد علي أمام الحلفاء . الا انه لم يكن من الشهامة في شيء أن تتولى سفارة بريطانيا في القسطنطينية تحريض قوم عرفوا بتمردهم ضد أي حكومة نظامية وخاصة بعد اعتراف ممثلي انجلترا نفسها بكفاءة ومقدرة الحكومة المصرية (٢) . ولقد كان حقاً على « تيير » أن يستفهم من الحكومة الانجليزية : « هل كان التحريض على الثورة من

(١) بالمرستون الى بنسبني في ١٧ يوليه سنة ١٨٤٠

(٢) ومما يؤيد اشتراك سفارة القسطنطينية في اثارة الشعور ضد محمد علي رسالة « بالمرستون » الى « بنسبني » عقب انتهاء الحوادث وهذا نصها : « اني انتهز هذه الفرصة لاذكر لك انه لما كان أهالي سوريا لم يشهروا السلاح في وجه محمد علي الا بتحريض الموظفين الانجليز أصبح من واجب الحكومة أن لا تدخر وسعا في نصيح السلطان بعمل كل ما يضمن تخليص السوريين من الظلم (١٢ ديسمبر سنة ١٨٤٠)

وقد بلغت تفقات الذخائر الحربية الموزعة في بلاد الشام بوساطة السفارة البريطانية ٩٢٨ و ٤١ جنيها و ١٣ شلن وقد طلبت الحكومة الانجليزية تسديدها من الحكومة العثمانية (فبراير سنة ١٨٤٠)

الأعمال التي تفيد الدولة العلية التي هي في حاجة الى الراحة والطمأنينة،
وهي الثورة في الشام تولد حب الطاعة والنظام في قلوب رعايا السلطان،
وهل ينجح السلطان في حكم هؤلاء القوم بعد أن اثارهم الباب العالي في
وجه الباشا؟» (١)



حين وصلت الى مسامع محمد علي أخبار اتفاق ١٥ يولييه أخذ محمد علي
يستعد في مصر لدفاع عظيم خليق بهيمته المعبودة فكان غرقاً من لا استقبال
الحرس الوطني من جميع الصنائع والفعلة وأخذ يدرهمهم على الحركات
العسكرية. وأقام القلاع على الشاطئ، من رشيد الى الاسكندرية وأمر
بعودة جيش بلاد العرب ووحد الاسطولين العثماني والمصري تحت أمره
ضابط مصري، وأرسل الى سوريا لتقوية حصن عكا ثم أرسل ينذر الباب
العالي بعاقبة تدخل الدول قائلين انها لا تكلف نفسها مؤونة حرب لا تجني
من ورائها مصالحة ذاتية

وأخذ يعامل معتمدى الدول بحفاء و صلف . ولقد شك « الكولونيل
هدجس » كثيراً مما كان يلقاه من المعاملة الجافة . وكانت مهمة هدجس
محفوظة بالشكوك إذ أرسله بالمرستون ليحل محل « الكولونيل كامبل » نصير

(١) أوراق برلمانية : مذكرة جيزو ٢٤ يولييه سنة ١٨٤٠

(٢) كتب هودجس الى حكومته يقول : « ما كدت أظأ أرض هذه البلاد
حتى حوطني الباشا بالجواسيس ليراقبوا حركاتي ولذلك أصبح من الواجب استعمال
الاحتراس الشديد لتجنب كل ما من شأنه اثاره شكوك الباشا وكل ما يشير
الى الغرض الحقيقي الذي أرمى اليه » . سجلات وزارة الخارجية : من هودجس الى
المرستون ١٦ يناير سنة ١٨٤٠

محمد علي ، وليدل الحكومة الانجليزية على بعض الأرشادات الحرية فيما إذا اقتضت الحال إرسال حملة ضد محمد علي .^(١) وفي ١١ أغسطس حضر المندوب العثماني رفعت بك حاملا شروط الاتفاق لعرضها رسمياً على محمد علي فلما قدمت له بحضور معتمدى الدول قابلها بثبات تام وخاطبهم قائلاً : « إن هذه الشروط لا يمكن قبولها وأنتم أعلم بأخلاق محمد علي . فهو لا يقضى على نفسه بالموت وهو على قيد الحياة وانى لا أستطيع قبول شروط مذلة لى »^(٢)

فكتب اليه المعتمدون يذكرونه بما للمعاهدات الدولية من القداسة رد محمد علي
المعاهدة وأنها لا تقبل التغيير والتبديل ، فلم يؤثر هذا في عزيمة محمد علي واعتمد على
ومعتمدى تعضيد حكومة فرنسا وما كان عليه الشعور العام فيها إذا كدله المسيو
الدول « كوشليه » معتمد فرنسا إن الحرب الأوربية لا محالة واقعة ، وقامت
الجاليات الأجنبية واحتجت لدى حكوماتها على اتفاق الدول ضد محمد
علي . « وكانت الجالية الانجليزية أشد الجاليات احتجاجاً وأكثرها سخطاً على
سياسة حكومتها وممثليها »^(٣)

فقوى هذا الشعور عزيمة محمد علي . وفي ٢٥ أغسطس حضر اليه المعتمدين والمندوب العثماني فلم يزد عما قاله في الجلسة السابقة وأخبرهم بأن لا فائدة من الحضور ثانية بعد عشرة أيام لأنه ليس لديه إلا جواب واحد ثم صارهم القول فأخبرهم بأن يعدوا العدة للسفر لأنه إذا نشبت الحرب

(١) سجلات وزارة الخارجية : من هودجس الى بالمرستون ١٩ أغسطس

سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) هودجس الى بالمرستون ٢٣ أغسطس

سنة ١٨٤٠

لا يمكن أن يثق فيهم ، « فالرحيل خير وأشرف لكم وآمن لي . » ^(١)

غير أن رفعت بك والمعتمدين مثلوا أمام الباشا في ٥ سبتمبر على حسب التعليمات الرسمية ليسمعوا كلمته الأخيرة عن القبول أو الرفض . فقابلهم محمد علي بمفاجأة غريبة ذلك انه يقبل الشرط الثاني من شروط الاتفاق وهو حكومة مصر الوراثية ، واما عن سوريا فقال انه مستعد ان يطلبها « صدقة » من السلطان . وكان هذا الرأي نتيجة ما وصل اليه مجلس الحكومة الأعلى الذي اجتمع لهذا الغرض . فلم يكن من المعتمدين الا أن وضعوا العقبات وظنوا ان هذه حيلة يكسب بها محمد علي الوقت فرفضوا الطلب واعلموه باتخاذ الوسائل القهرية من غير ابطاء . فأجابهم محمد علي بقوله : « ليكن ذلك ولكن أرسلوا طلباتي الى لندره أو الى القسطنطينية » فطلب المعتمدون ضمانا لحسن نيته رد الأسطول العثماني ، فانهمال عليهم الباشا بصراخه وغضبه وانفض المجلس (٢) ولم يغادر المعتمدون الاسكندرية إلا في ٢٣ أكتوبر .

والحقيقة انه لا يفل محمد علي إلا الحديد فقامت الحرب وتحملت قيام الحرب انجلترا الجزء الأعظم منها ، إذ اقتصرت النمسا على إرسال قطعتين من بين محمد علي الأسطول . ثم ما لبثت الثورة إن قامت مرة ثانية في سوريا بفضل مساعي والدول « وود » الموظف البريطاني الذي كتب الى بنسبني يقول : « انه لم يدخر وسعاً في تنظيم حركة الثورة ، وانه تكبد مشاق عظيمة ، وعرض نفسه

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) مقابلة محمد علي ٢٥ أغسطس سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) مقابلة محمد علي في ٥ سبتمبر سنة ١٨٤٠

لأخطار جسيمة من أجل قيامه بالواجب»^(١) ثم فكر بنسبني في مشروع
يسهل على «وود» نشر الثورة فنصح للباب العالي تحت مسؤوليته بأصدار
الأمر بعزل محمد علي قائلاً انه من العيب أن يترك محمد علي ممتعا بنفوذ
السلطان مع انه يستخدم نفس هذا النفوذ ضد وجود السلطان^(٢)

عند ذلك كانت الحرب قد دارت رحاها بين ابراهيم باشا في سوريا
والحلفاء الذين وقفوا بأسطولهم أمام السواحل بقيادة أمير البحر «استنفورد»
ثم نزل الضابط البحري «نايير» وأصدر منشوره للأهالي يحرضهم فيه
على القيام في وجه الحكومة، واشتبك الطرفان في منتصف شهر سبتمبر
ولم يمض قليل حتى كان النصر في جانب الحلفاء بمساعدة أساطيلهم فاحتلت
بيروت ثم نزلت قوة إلى البر مؤلفة من ٣،٥٠٠ تركي ١،٥٠٠ بحار انجليزى
و ١٠٠ نمسوى فسقطت حيفا وصيدا. وفي ١٣ نوفمبر سقط حصن عكا
المنيع عقب انفجار هائل من الداخل لم يعرف سببه. ولولا هذا الانفجار
ما سقط الحصن في ذلك الوقت ولدامت المقاومة طويلا^(٣).

وبسقوط عكا انحطت قوى محمد علي المعنوية. غير أن جيوشه التي تبلغ

تقدم

٦٠،٠٠٠ بقيادة ابراهيم باشا كانت لا تزال متفوقة في داخلية البلاد وكانت
على الدواحل دمشق وحلب والقدس وغزه لا تزال في أيديهم فلم يكن في إمكان الحلفاء
محاربة ابراهيم في الداخل واقتصر واعلى مناوشة الجبلين لجيوشه، واكتفوا
بمبتضيق الحصر البحري على الموانئ المصرية وقطع الصلات بين سوريا

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) من وودالى بنسبني ٣ اغسطس سنة ١٨٤٠

(٢) كان ذلك في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٤٠

(٣) «الحرب في الشام» الجزء الاول ص ١٩٦ - ٢٢٥

ومصرو لم يدم تعضيدا الجليلين لهم طويلا بدليل ما كتبه «نايير» إلى بنسبي
يقول انه إذا استمرت الحرب مدة فلا بد من أن يقوى حزب ابراهيم
في سوريا (١)

وفي هذه الاثناء كانت الحوادث في أوروبا تنبئ بوقوع أزمة سياسية الازمة
قد تؤدي إلى حرب عامة في أى وقت. فقد توترت العلاقات بين فرنسا السياسية
والباب العالي وبلغ ذلك درجة أزجت الدول. وكانت الحكومتان الانجليزية في أوروبا
والفرنسية تبذل جهدهما لمنع ما يمكن أن يزيد الحالة تعقيدا بينهما، والفضل
في ذلك لوساطة الملك «ليوبولد» صهر لوى فيليب وخال الملكة فيكتوريا
وملك بلجيكا. ثم بدأ النزاع في الوزارة الانجليزية من جديد وكاد الأمر يفضى إلى
الاستقالة لولا تدخل الملكة فيكتوريا نفسها ونصيحتها للوزارة بضرورة
الظهور امام العالم مظهر ايوافق سمعة إنجلترا ومركزها لتدرا بذلك ما
يمكن أن ينجم من النتائج السيئة

ثم جاء خبر عزل السلطان محمد على فقامت فرنسا قومة واحدة،
وفطن بالمرستون لما يمكن ان يؤدي إليه مثل هذا الحادث فبادر بإبلاغ
الحكومة الفرنسية ان هذا العزل عمل مؤقت لجأ إليه الباب العالي ليرغم
محمد على على قبول الاتفاق (٢)

تعضيد فرنسا
ولكن الشعب الفرنسي لم يسكت واراد انتهاز الفرصة فيتقدم لمحمد على
لمساعدة حليفه محمد على وبلغت الحماسة حدا جعل «اللورد جرانفيل» سفير

(١) «الحرب في الشام»: الجزء الاول ص ٢٥٣

(٢) سجلات وزارة الخارجية «فرنسا» بالمرستون إلى جرانفيل ٢ أكتوبر

انجلترا في باريس يكتب الى حكومته يقول « ان حالة البلاد باللغة الغاية في الارتباك بسبب ثورة الافكار التي يخشى ان تهدد السلام في اوربا وليس هناك حكومة يمكنها ان تمتنع عن مقاومة من يحاول قهر محمد على او طرده من مصر ^(١) وكتب « تير » الى « جيزو » يخبره « بأن حكومة فرنسا تعد وجود محمد على كقوة سياسية في العالم أمراً ضرورياً ، ولا بد منه حتى يكمل التوازن بين حكومات العالم وذلك بسبب سعة الاقاليم التي يحكمها والبحار التي تحت سلطانه » (٢)

ولم يكن في رسالة تيرشى ، يشير الى العنف أو استعمال القوة فاطمأنت الوزارة البريطانية وهدأ روعها وكتب بالمرستون الى سفيره بالقسطنطينية ينبيهه الى « أنه بمقتضى شروط الاتفاق يجب أن يعمل الباب العالي كل ما يوافق مصالحه بشرط ان لا يحيد عن نصح حلفائه له . فالدول توصى السلطان باعادة محمد على رسميا الى حكومة مصر وجعلها وراثية اذا ما أعاد الاسطول وأخلى جميع الاقاليم عدا مصر وماحققتها في افريقيا » (٣) ولكن مترنخ اقترح أن يطلب محمد على العفو أولاً من السلطان . وهنا ترك بنسبني يضع العراقيل في سبيل الصلح مع محمد على على الرغم من أمر حكومته الصريح ليسهل عقد الصلح ما استطاع

(١) سجلات وزارة الخارجية « فرنسا » جرائل الى بالمرستون في ٥ و ٨

اكتوبر سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية « فرنسا » من تير في ٨ اكتوبر سنة ١٨٤٠

(٣) سجلات وزارة الخارجية « تركيا » بالمرستون الى بنسبني ١٥ اكتوبر

سنة ١٨٤٠

ولنعد الى فرنسا حيث الانظار متجهة من كل جوانب أوربالمشاهدة
 ما تقوم به الحكومة من المفاجآت الغريبة ، ولكن ما كاد العالم يستفيق في فرنسا
 من هول النظر الى حركات الجيوش والاساطيل حتى فتح عينيه فاذا هو
 يرى منظرأ مضحكا مبكيا وهو سقوط وزارة «تير» التي كانت تريد الحرب
 وقيام وزارة معتدلة برياسة «جيزو» . ذلك لأن الملك لوى فيليب لم يفكر
 في الحرب بطريقة جدية بل كان يريد السلم بأى الوسائل . نعم سبق انه تكلم
 عن الحرب ، ولكن كما أوضح لسفير انجلترا «الكلام عن الحرب شئ ، والدخول
 فيها شئ آخر» (١) ومما أضعف لوى فيليب خوفه من قيام الثورة . فقد
 تعدى عليه فوضوى يريد قتله في ١٥ اكتوبر سنة ١٨٤٠ وفي نفس هذا
 الشهر أيضاً حاول لوى نابليون الهرب من معتقله وتحريك الثورة زد على ذلك
 ما ظهر من ضعف محمد على في سوريا وما كان يرسله بالمرستون من
 الكلمات المزرية ، فن ذلك ما كتبه لسفيره «قل للملك ان فرنسا اذا تحدتنا
 فإن انجلترا لا ترد في منازلها وانها اذا بدأت الحرب فإنه من المؤكد
 ان تفقد أسطولها ومستعمراتها وتجارتها . واما محمد على فأنا لا نفعل معه
 أكثر من قذفه في النيل» (٢)

كل هذا أثر في نفس لوى فيليب الذى فضل أن يعارض تير على
 ان يعارض أوربا . وأخيراً جاء وقت افتتاح مجلس النواب فوضع تير على ان
 لسان الملك خطبة عدائية حربية لم يقبلها الملك فسقطت الوزارة ، وتولاها
 من بعده المرشال سولت وجيزو في ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٤٠

(١) « تاريخ حياة بالمرستون » الجزء الثانى ص ٣٥٢

(٢) » » » من بالمرستون في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠

ولقد أوضح تيير خطته في مجلس النواب عقب انتهاء الأزمة فصرح
بأنه كان «يرمى إلى زيادة جيش فرنسا إلى ٦٣٩,٠٠٠ وتسكوين حرس
وطني يتألف من ٣٠٠,٠٠٠. ومتى تم له ذلك، يوقف كل المفاوضات
مع الدول المتحالفة بشأن المسألة الشرقية حتى يستعد وينصح محمد على
بتجنب كل ما من شأنه أن يسبب تدخل فرنسا قبل الآن. وبعد أن
تم المعدات تلح حكومة فرنسا في طلب إلغاء معاهدة ١٥ يوليه وتطالب
أيضاً إعادة النظر في معاهدات ١٨١٥ فتعدل بطريقة توافق مصالح
فرنسا ومكانتها» (١)

نيات تيير

وكان سقوط وزارة تيير عهداً للناس بأن فرنسا لا تتحرك في حرب
من أجل محمد علي. وعلى ذلك قسا الباب العالي واللورد بنسبني في
معاملتهما لمحمد علي، لولا ما بعثته العناية الإلهية في قلب رجل حر شجاع
هو «شارلس نابيير» من أكبر ضباط الأسطول الإنجليزي. رأى هذا الضابط
بعيني بصيرته أنه من الصعب إخضاع محمد علي بقوة الأسطول منفردة
ورأى قوة إبراهيم في الداخل، وفساد الحسك التركي الجديد الذي يريد
الحلفاء تثبيتته بدل حكومة مصر — رأى حقائق الحال فكان مرابطاً امام
الاسكندرية ومعه خمس قطع حربية ففتح باب المفاوضات مع حكومة
الباشا مباشرة.

مهمة
«شارلس
نابيير»

وكان «نابيير» من حزب الأحرار المتطرفين وكانت تصله الأخبار
من أصدقائه بلندره، فعرف خوى الخطاب الذي أرسله بالمرستون لبنسبني
في أكتوبر، وبني من تلقاء نفسه على ما جاء فيه أساس اتفاق بينه وبين

اتفاقه مع
حكومة
محمد علي

بوغوص باشا وزير محمد علي المفوض بمقتضاه واعد محمد علي بتسليم الاسطول العثماني وبأخلاء ابراهيم باشا سوريا، وفي مقابل ذلك تعهد «نايير» بأن تضمن الدول لمحمد علي حكومة مصر وراثية وبأن لا تمس سواحل مصر بسوء وان تعود العلاقات بين مصر وسوريا، فربح محمد علي بالاتفاق على الرغم من نصيحة فرنسا له بضد ذلك لانه كان قد سئم من جمود فرنسا نحوه ووقع على الاتفاق في ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٤٠. وكتب «نايير» إلى حكومته يقول «إنه أخذ على عاتقه هذا العمل متحملاً وحده تبعته، وأنه عمل ما رآه صواباً راجياً موافقة الحكومة. نعم إن التبعة خطيرة ولكن يجب أن لا يحجم الضابط عن العمل من غير أمر متى كان العمل في صالح الوطن (١) غير أنه من دواعي الأسف أن السلطان لم يعترف بنص هذا الاتفاق إذ أنكره أمير البحر «استيفورد» واللورد بنسبني والحكومة العثمانية، ما عدا بالمرستون فإنه وافق عليه. وأرسل إلى «استيفورد» يكلفه مثل الذي قام به نايير، ويكون بذلك قد اضطر بالمرستون في نهاية الأمر إلى مفاوضة محمد علي رأساً، ولو فعل ذلك من أول الأمر لكانت المشكلة قد انتهت من زمن من غير إراقة دماء. وهناك أسباب دعت بالمرستون بالمرستون لأن يخفف من غلوائه ضد محمد علي. فقد كتبت إليه الملكة مرة بتاريخ ١٧ على مشروع الاتفاق

أكتوبر وأخرى في ١١ نوفمبر تطلب إليه بشدة أن يخفف من حدته (٢)

(١) «الحرب في الشام» الجزء الاول: نايير الى بالمرستون في ٢٦ نوفمبر

سنة ١٨٤٠

(٢) «مذكرات جرفل» الجزء الرابع ص ٣٥٠

و«خطابات الملكة فكتوريا» جزء اول ص ٢٤٨

ومن هذه الأسباب أيضاً وجود «جيزو» على رأس الوزارة الفرنسية
 فقد اضطرت الحكومة مجاراة للرأى العام أن تستمر في معدات الحرب
 ولكن أصبح من الواجب على الحلفاء مساعدة «جيزو» ومصالحه فرنسا
 التى بدأت تهدأ تأثيرتها عقب سقوط «عكا»

الفصل العاشر

خاتمة المرحلة الاولى

في صباح ٨ ديسمبر سنة ١٨٤٠ نزل إلى الاسكندرية الضابط «فانشو» مفاوضة مندوباً من أمير البحر «استنفورد» قائد قوات الحلفاء ليبلغ محمد علي رغبات الدول رأساً الدول فقبل محمد علي كل ما أشار به الضابط وكتب خطاباً يستعطف به مع محمد علي السلطان وأرسله إلى الصدر الأعظم، ولكن لعبت الأيدي المستترة في القسطنطينية فشك الباب العالي في إخلاص محمد علي وأرسل بنسبني إلى قواده في سوريا بأن يؤذوا جيش ابراهيم أثناء إخلائه سوريا على حسب أمر الباشا وعلى العموم لم يدخر بنسبني وسعاً في الاضرار بمحمد علي حتى أن نايبير كتب يقول «لو كان لبنسبني القوة لما تردد في تضيحية الأسطول البريطاني حياً في إهلاك محمد علي» (١)

معاكسة
بنسبني
لمحمد علي
وآخر ضربة من بنسبني أنه أغرى الباب العالي بأن يمنح محمد علي حكومة مصر ويهمل ذكر حق الوراثة، وكان الباب العالي قد تشجع بانكسار محمد علي وأخذ يتبجح بطلباته إذ كتب رشيد باشا إلى المندوب العثماني بلندرة يقول: «كيف توفق الدول الأربع بين مبدأ المحافظة على كيان الدولة ومنح محمد علي حكومة وراثية» (٢)

ولكن لم تكن هذه الألاعيب السياسية إلا لتوغر صدر التمساح

(١) «الحرب في الشام» لنايبير الجزء الثاني ص ١٩٥

(٢) اوراق برلمانية: من رشيد باشا الى شكيب باشا في ٨ ديسمبر سنة ١٨٤٠

ارسال
الفرمان

وبروسيا وروسيا فاحتج السفراء لدى الباب العالي وكانت النتيجة أن ارسل
السلطان فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ . ولكن هذا فرمان اشتمل على
كثير من الشروط غير المعقولة كحق السلطان في اختيار والى مصر من أسرة
محمد على واستيلاء السلطان على ربع دخل مصر وتضييقات أخرى تتعلق
بمنح الالقاب العسكرية وغيرها مما اثار غضب محمد على فرفض قبول فرمان
ما لم يعدل على حسب طلباته وكتب بهامذكرة وأرسل للسلطان يقول «ان
الله سبحانه وتعالى لم يثقل كاهل العبد بشروط ليست في وسعه فكيف يطلب
السلطان خليفة الله في أرضه ان يضيف الى منته شروطا لا يمكن تنفيذها»^(١)

محمد على
يطلب تعديله
والدول
تؤيده

وكتبت حكومة النمسا للسلطان والى الحكومة الانجليزية تهديد
بالانسحاب من المحالفة اذا لم يعدل فرمان على حسب طلبات محمد على
وفعلًا أمرت قائدها بأن لا يعمل ضد ابراهيم أو ضد مصر^(٢) وأرسلت
حكومتا بروسيا والروسيا كتابة بهذا المعنى ، فلم يكن من المرستون الا
أن أرسل خطابا الى سفيره بالقسطنطينية يلح عليه الحامشديدا أن يبذل
كل جهده لدى الديوان لأرسال فرمان بالتعديل المطلوب في أقرب
فرصة . فقم فرمان الجديد ، وكان الوزير رشيد باشا قد استقال وخلفه
في وزارة الخارجية « رفعت بك » فعدل فرمان بشأن أهم النقط . وهى أولا
أن تكون الوراثة لأ كبر أفراد الأسرة على حسب القانون العثمانى .
— ثانيا — أن تحدد الجزية بمقدار ٨٠٠٠٠ كيس (٤٠٠٠٠٠٠ جنيه) — ثالثا — ان
يكون للبasha حق منح الرتب العسكرية لغاية رتبة « قائم مقام » ، وفى ٢٢

(١) أوراق برلمانية : من محمد على الى الصدر الاعظم فى مارس سنة ١٨٤١

(٢) » » : من بوفيل الى المرستون فى ٩ ابريل سنة ١٨٤١

مايو وافق السفراء على نص فرمان الجديد وفي ١٠ يونيه قرىء فرمان الجديد رسمياً في قصر محمد علي باحتفال لائق^(١) وعلى ذلك يكون محمد علي قد نجح في تثبيت عرشه على أرض مصر بحسب الشروط التي أملاها هو. بعد ذلك اهتمت الدول بمصالحة فرنسا فقبل جيزو ذلك بشرط ان تحل المحالفة وذلك بكتابة كلمة تنبيء بانتهاء الازمة الشرقية، فتم ذلك ووقع الاربعة الدول على قرار الانتهاء. واشتركت الدول الخمس في التوقيع على « معاهدة المضائق » وهي اعلان من الدول بقبول المبدأ القديم القاضي

باقفال البوغازات امام جميع السفن الحربية وفتحها للسفن التجارية /

وعلى ذلك انتهى المشكل الدولي الذي شغل بال الحكومات مدة سنتين أصبحت الحرب الاوربية في اثنائها قاب قوسين. ولو تركت الدول المسألة من غير تدخل ما بلغت الازمة أشدها ولا تفق السلطان ومحمد علي على حل كما اتفقا في سنة ١٨٣٣ بمراى من الدول، ولكن خشيت الدول تدخل روسيا بمفردها وهذا الخوف جرهم الى التدخل في شؤون الحكومة العثمانية تدخلا لم يسبق له نظير. ولما زالت الطواجس من جهة روسيا

(١) وهذا نص اعتماد سفراء الدول في القسطنطينية على فرمان النهائى :
« نحن الموقعين ادناه ممثلى الدول الاربعة العظمى حلفاء الباب العالى نعلن حسب طلب الباب العالى بانه قد وصلنا فرمان الجديد المراد ارساله الى محمد علي باشا حاكم مصر ولم نرفيه شيئاً ايا كان يدعو الى معارضتنا. وعلى ذلك لم يبق علينا الا أن نطلب من الباب العالى ارسال فرمان الى صاحبه بأسرع ما يمكن » ٢٢
مايو سنة ١٨٤١

كونجزمارك : بروسيا

استورمر : النمسا

بوتنف : روسيا

بنسبني : إنجلترا

بتوقيعها على المذكرة الدولية في يولييه سنة ١٨٣٩ سنحت فرصة لمارستون
تمكنه من حل المشكل حسب مصالح السلطان التي كانت تتفق وقتئذ مع
مصالح إنجلترا

ولأجل تنفيذ هذه الخطة وجد لمارستون ان لا بد من الانفصال
عن محالفة فرنسا التي كانت مصالحها تتفق مع مصالح محمد علي . فزاد
الاخلاف بين الحكومتين وأصبح الانشقاق مؤكداً، فاجتهد لمارستون في
كسب الدول الاوربية الى جانبه وتم له ذلك خوفاً هذه الدول وغيرها
من فرنسا . بعد ذلك ظهر لمارستون أن محمد علي قد يعارض الدول
ويقاومها بالقوة واذا اريد قهره فلا بد من الحرب، ولم يكن لمارستون ولا
حلفاؤه على استعداد تام للحرب وحينئذ عن له أن يكسب اتفاق فرنسا
بنزوله لها عن بعض شروط لمحمد علي . ولكن فرنسا عاندت ورفضت
مراراً واستعملت دعاوى عريضة أوغرت صدر لمارستون .

وحدا فرنسا على سلوك هذه السياسة اتكأها على استحالة اتفاق
الدول من غير اشتراكها واعتمادها على قوة محمد علي العظيمة . ولكن خاب ظنها
من الوجهتين فإن مصالح إنجلترا في المسألة كانت حيوية ولذا قرر لمارستون
على عقد الاتفاق وضرب فرنسا ضربة أدبية أعادت اليها رشدها . نعم كان
من المظنون أن تدخل فرنسا الحرب من أجل هذه الاهانة لولا مساعي
ملكها لوى فيليب الذي كان يفهمه لمارستون حق الفهم .

ثم ما لبثت قوة محمد علي في سوريا أن تداعيت تداعيا سريعاً ونجحت
بذلك سياسة لمارستون نجاحاً كاملاً . وأراد الباب العالي ان ينتفع بالفرصة
فيقص من جناحي محمد علي ، ولكن لمارستون وحلفاءه فطنوا الى سوء

هذه السياسة فأوقفوا الباب العالى عند حده وفتحوا باب المفاوضة مع محمد على مباشرة، وانتهى المشكل بانضمام فرنسا الى الدول . وخرج محمد على من الأزمة مغلوبا فى الحرب لأنه اعتمد على تعضيد فرنسا له ، وحكومة فرنسا لم تزوده الا بالاقوال والدعاوى ، حتى اذا جاءت الساعة العصبية أحجمت ، لأن الملك رأى غير ما كان يراه الشعب . غير ان محمد على نال أقصى أمانيه ومطامعه اذ ثبت عرش اسرته فى ارض مصر بموافقة الدول وسوى العلاقات بين حكومته وبين الباب العالى بحسب الشروط التى اختارها لنفسه وبتسوية المسألة انتهت المرحلة الأولى من مسألة مصر



ملحق (أ)

مشروع جمعية الأمم في سنة ١٨٤٠^(١)

كانت دول أوروبا العظمى قد قررت سنة ١٨١٥ في مدينة فيينا أن يجتمع مندوبون من قبلها في مؤتمر غايته الاتفاق على الطرق التي تكفل بقاء السلم العام في أوروبا، وقد عقد المؤتمر ولكنه لم يأت بالفرض المرجو منه لأن الدول اقتصرت على تطبيق المبدأ من جهة واحدة. ذلك أنها اهتمت في المؤتمر الأوربي الأول الذي عقدته بشؤون غيرها من الأمم وغفلت عن نفسها واغلاطها فتركها من غير قيد ولا شرع زاعمة أن الثورات الداخلية وحدها هي التي يخشى منها على بقاء السلم ونسبت أوتناست أن المطامع الفردية إذا تسلطت على إحدى الدول العظمى كانت مدعاة إلى نشوب الحرب لا محالة

وهناك أمران ساعدا على فشل المؤتمر الأوربي الأول قيام إنجلترا ضد دول أوروبا المستبدة ناصرة للمالك الصغيرة وقائلة بعدم التصدي لها في شؤونها الداخلية. والثاني سعى كل من الدول العظمى في اغراضها الخاصة بها من غير اكتراث لقانون الحقوق الشرعية ولا مراعاة لتخوم الممالك التي قررهما مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥. فقد حدث ان تعرضت روسيا لشؤون الدولة العثمانية بين ١٨٢٨ - ١٨٣٣ وكادت تقضى على استقلال تركيا في أوروبا، وتعرضت النمسا لشؤون إيطاليا وتعرضت فرنسا وإنجلترا لشؤون

(١) نشرها المؤلف في مجلة « المقتطف » في عدد ابريل سنة ١٩١٩

هولندا حتى باتت الحرب في كل حادثة من الحوادث المذكورة على قاب قوسين وباتت فكرة السلام العام أملاً مضيئاً ونسباً منسياً

كان من جراء هذه الحوادث وأمثالها ان علم سواس أوروبا الذين كانوا يتوقون إلى السلم ان الضمان الحقيقي للسلام العام انما هو وضع حد لمطامع أية دولة من الدول العظمى نفسها تظهر ميلاً إلى التعدي وذلك باتفاق باقي زملائها عليها — لا في مراقبة الدول الصغيرة وحراستها . ولوجود مؤتمر على هذه القاعدة لعمر طويلاً في أوروبا . وليس في التاريخ ذكر لجمعية الأمم هذه وانما توجد مستندات تاريخية تؤيد محاولة بعض الساسة تأليف جمعية للأمم في أوروبا ١٨٤٠ . فقد تولدت هذه الفكرة في فيينا والفضل في ابرازها يرجع إلى رجلين الأول اللورد بوويل (السير فردريك لام) سفير بريطانيا العظمى في فيينا والثاني البرنس مترنخ رئيس حكومة النمسا وصاحب المبادئ الرجعية المعروفة . وكان ذلك في اغسطس سنة ١٨٤٠ أيام ان عكزت المسألة المصرية صفو أوروبا وكادت فرنسا تشعل الحرب من أجل محمد علي باشا . ويغلب على الظن ان الأوراق التاريخية التي نحن بصدد هالم يسبق نشرها فان المستر « أليسن فيلبس » لم يشر في كتابه الشهير « اتحاد أوروبا » بكلمة ما إلى هذه الخطوة الهامة في سبيل تكوين جمعية الأمم . والأوراق المشار إليها تأتي عن مشروع تكوين عصاة أوربية دفاعية من الاربع أو الخمس الدول العظمى التي أخذت على عاتقها اصلاح ذات البين بين الدول والوقوف أمام أي دولة سواء كانت من أعضاء الجمعية أو خارجة عنها تهدد السلم العام بالمظاهرات أو بالحرب الفعلية . ومقاومة جمعية الأمم لهذه الدولة المعتدية إما أن

تكون بواسطة الاحتجاج أو باستعمال القوة لو قضت الضرورة بذلك
 وتمتاز هذه الجمعية عن الجمعيات التي ألفت قبلها لتأييد السلم العام بثلاث
 نقط أولها وأهمها ان المشروع يقضى صراحة بوجود العمل ضد أية دولة
 من الدول العظمى تسعى في تهديد السلم العام . ثانياً: إن المشروع لا يقضى
 بتكوين جمعية دائمة لمندوبي الدول ، إنما يجتمع النواب بناء على دعوة ترسلها
 إحدى الدول أو في حالة ما اذا أصبح السلم في أوروبا مهدداً في نظر الجميع
 ثالثاً: إن الدول في هذه المرة كانت مدفوعة بمعاملة الاخلاص لأجل
 المحافظة على السلم العام لا سعيًا وراء مصلحة الملوكة فقط بل وراء مصلحة
 الشعوب أيضاً ودوام سعادتها

ويلاحظ أن عدد الممالك التي تتألف الجمعية منها لم يحدد في المشروع
 وذلك لعدم وثوق الدول بإمكان انضمام فرنسا اليهن على أن المادة السادسة
 من المشروع تقضى بقبول أية دولة أوروبية في الجمعية بشرط أن تحفظ الدول
 العظمى لنفسها حق دعوة من تريد أن تشاركها من الحكومات في جلساتها
 كذلك يلاحظ مطابقة روح المشروع لأفكار كبار القائلين بتأييد السلام
 العام . فقد قال المسيو نوبل صاحب الجائزة المعروفة « اذا عاهدت
 الدول نفسها بان تتحد ضد أول معتد من الأمم استحال وقوع الحرب
 وتعذر على أشد الحكومات عناداً سلوك أى طريق سوى السكون أو
 التحكيم » . وذكر السير فردريك بلوك « ان المنازعات على التفوق في
 العالم لا يفصل فيها بالبراهين والحجج المنطقية وليس هناك إلا علاج واحد
 مفيد وهو وجود عصابة تعمل على تنفيذ مبدأ السلام العام »

وهالك نص المشروع الذي وضعه سفير بريطانيا في فيينا بالاتفاق مع

البرنس مترنخ وهو^(١)

المادة الاولى

تتعهد الدول الاربع ... كل على حدة وبالتضامن بان لا تعتمد نفسها الى استعمال القوة ضد أى حكومة أوربية من غير أخذ رأى الدول الاخرى الموقعة على هذه المعاهدة أولاً حتى يمكن ان تنظر الدول فى رفع ظلامتها وانصافها بالطرق السلمية .

ملاحظة : « وافق البرنس مترنخ على هذه المادة معتبراً انها أساس المشروع كله »

المادة الثانية

اذا قدم طلب مثل هذا تتعهد الدول بالاجتماع فى المدينة التى تعينها الدولة التى طلبت الاجتماع للاتفاق معاً على الطرق التى تكفل منع الحرب ومتى درست الدول حقائق الموضوع تسرع الى ازالة بواعث الحرب باستخدام نفوذها الادبى لحماية الدولة المهددة أو لتعيين التعويضات اللازمة حسب ظروف القضية .

« ملاحظة : هنا اقترح البرنس مترنخ ان تعين المدينة التى يجتمع فيها فكان جواب اللورد بوفيل أن قد تمضى سنة فى مفاوضات عديدة

(١) من سجلات وزارة الخارجية (النمسا) . شؤون خارجية من اللورد

بوفيل الى اللورد بالمستون وزير خارجية انجلترا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٤٠

الجدوى بشأن ذلك وان اللازم انه تعين المكان الدولة الطالبة للاجتماع
فهي اعرف بالمكان الذى يوافقها. وأخيراً اقترح البرنس مترنخ أن
يكون الاجتماع فى عاصمة الحكومة التى طلبته. ومع ذلك فيترك
للمؤتمر حرية الانتقال الى المكان الذى يعتبره أكثر موافقة»

المادة الثالثة

إذا أصرت دولة مهاجمة على العدوان بالرغم من مساعى الدول الأخرى
وفضلت استعمال القوة فللدول حينئذ وفى هذه الحالة فقط دون غيرها
أن تأخذ التدابير اللازمة للدفاع المشترك وفى هذه الحالة يعتبر المهاجم
ضد أى دولة كأنه هجوم ضد الجميع.

(ملاحظة: وافق البرنس مترنخ على هذه المادة)

المادة الرابعة

لكى لا يكون هناك أدنى ريب فى نيات الدول الحقيقية ازاء
مشروع السلام العام تعلن الدول انه اذا هددت السلام إحدى الدول
الموقعة على هذا فان الدول الأخرى تقوم بما فرض عليها كما هو مبين فى
المواد السابقة وتعمل كما لو كانت هذه الدولة لا علاقة لها بالدول الأخرى
ولا بهذه المعاهدة.

«ملاحظة: وافق البرنس مترنخ على هذه المادة»

المادة الخامسة

إذا لم يقدم للدول أى طلب ولكن اشتهر لدى الجميع أن السلام

العام في خطر فالدول الموقعة على هذا تحفظ لنفسها حق الاجتماع في عاصمة
أى حكومة من بينها لاتخاذ التدابير والطرق اللازمة للمحافظة على السلام
العام.

« ملاحظة : وافق البرنس مترنج على هذه المادة »

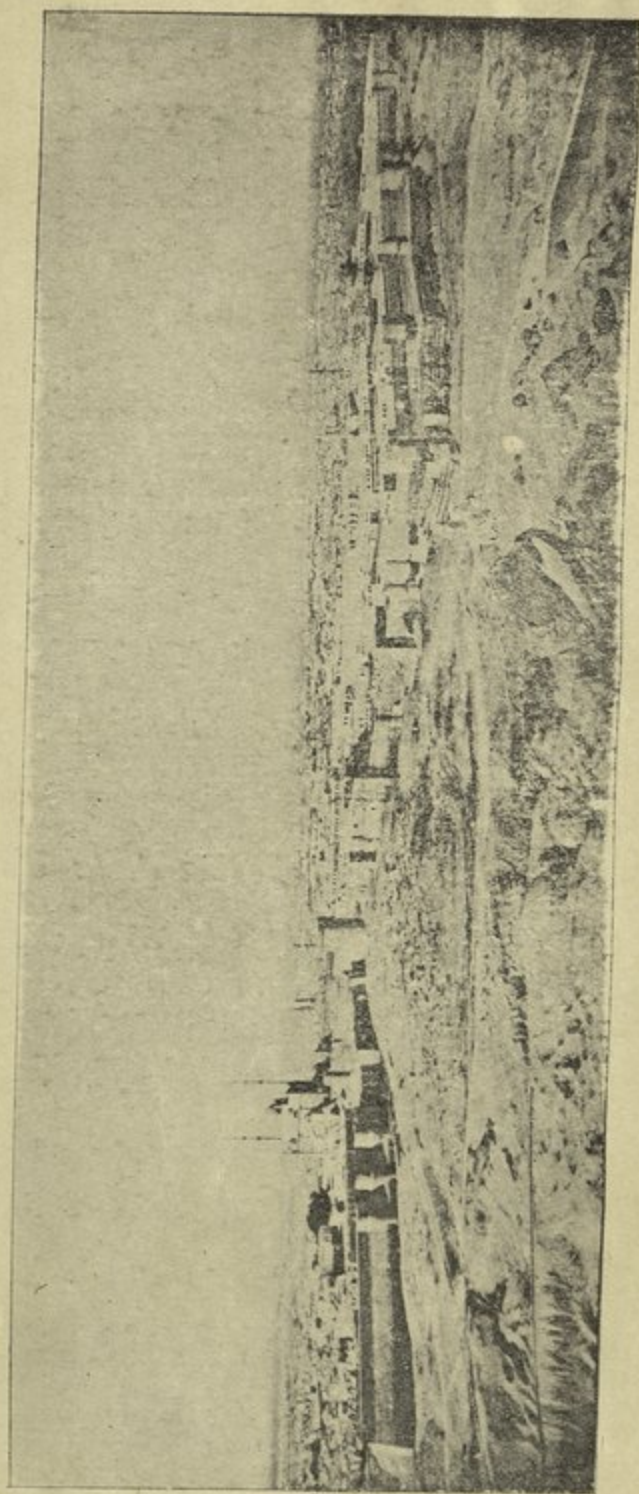
المادة السادسة

لما كانت رغبة الدول العظمى الرابع ٠٠٠ ان تتمتع أوروبا بمثل هذه
الضمانات التى أخذتها الدول على نفسها فقد اتفق الدول على ارسال هذه
المعاهدة الى الحكومات الأخرى داعية اياها الى الانضمام اليها بشرط
أن يبقى حق المذاكرة والفصل حسب نص هذه المعاهدة فى أيدي الدول
الأولى الواضعة للمعاهدة .

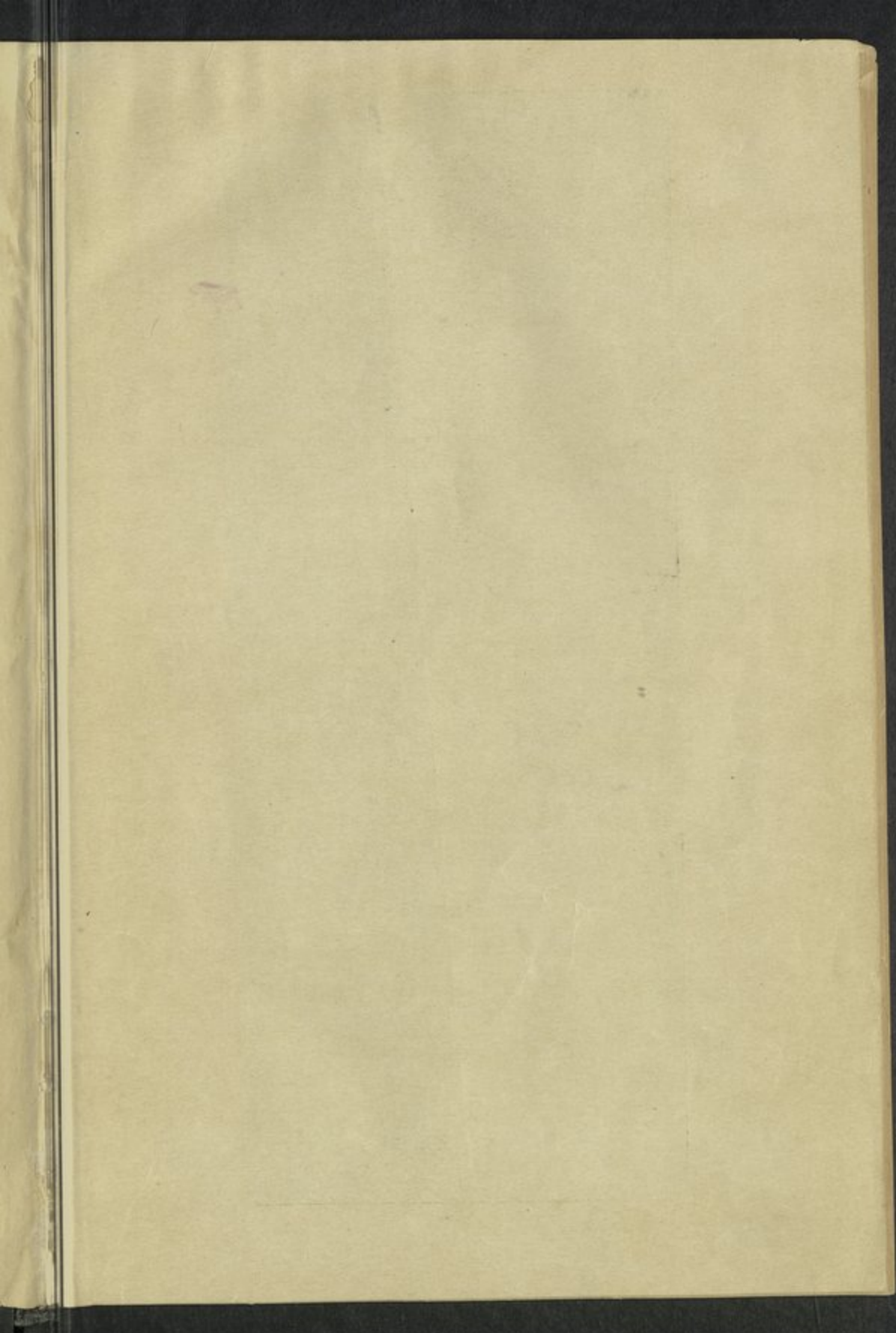
« ملاحظة : صادق البرنس على هذه المادة ولكنه ذكر انه
يفضل الإشارة الى « معاهدة اكس لا شابل » التى تقضى بأن يشترك
فى المذاكرة الحكومات صاحبات المصالح فى المسألة المعروضة
ولكن من رأى اللورد بوفيل أن الأوفق عدم السماح بذلك لأنه لا بد
أن تكون هناك دولة من الدول العظمى لها مصالح فى كل مسألة معروضة
فهل يسمح لها بأن تكون حكما فى قضية تخصها . هذه مسألة معضلة
وهناك معضلة أخرى وهى كيف يوفق بين فكرة دعوة حكومات أوروبا
للانضمام الى هذه المعاهدة وفى الوقت نفسه لا يسمح لها بالاشتراك فيما
يقرره المؤتمر بشأن مصالحها الخاصة ومع ذلك فالشروع يكون عديم
الفائدة من غير اعطاء هذا الحق للحكومات »

لم يقبل اللورد بالمرستون وزير خارجية إنجلترا وقتئذ المداولة
بشأن هذا المشروع لأن الأزمة السياسية التي هددت السلم العام في
أوروبا كانت قد زالت بسقوط حكومة تيير في فرنسا في أكتوبر

سنة ١٨٤٠



القلمة من ناحية جبل القطم



ملحق ب

مصادر الكتاب

﴿ مصادر أصلية ﴾

- ١ - سجلات وزارة الخارجية بلندره
- ٢ - مكتبة المتحف البريطاني (المخطوطات)
- ٣ - الاوراق البرلمانية
- ٤ - « عجائب الآثار » في أربعة اجزاء تأليف الشيخ عبد الرحمن الجبرتي
- ٥ - « سوريا ومصر » تأليف حنا باركر معتمد انجلترا في مصر سنة ١٨٢٦ -
(انجليزى) ١٨٣٢
- ٦ - « نظرة عامة في احوال مصر » في جزئين لكلوت بك (فرنسى)
- ٧ - « تاريخ محمد على » تأليف مورييه في ٤ اجزاء (فرنسى)
- ٨ - « مصر ومحمد على » تأليف « سنت جون » في جزئين (انجليزى)
- ٩ - « مذكرات نابليون » تأليف « الكونت لاكاس » (فرنسى)
- ١٠ - « مصر في سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٣٨ » تأليف « توماس واجهورن »
(انجليزى)
- ١١ - « مذكرات جيزو » تأليف « جيزو » وزير فرنسا (فرنسى)
- ١٢ - « تاريخ حياة مترنخ » بنفسه (انجليزى)
- ١٣ - « الحرب في الشام » تأليف « شارلس نابيير » في جزئين (انجليزى)
- ١٤ - « تاريخ حياة بالمرستون » تأليف « هنرى بلور » في ثلاثة اجزاء
(انجليزى)
- ١٥ - « مجموعة هانسارد » للخطابات البرلمانية (انجليزى)
- ١٦ - « مذكرات جرفل » تأليف « هنرى جرفل » (انجليزى)
- ١٧ - « خطابات الملكة فكتوريا » سنة ١٨٣٧ - ١٨٦١ (انجليزى)

١٨ - « الثورة الفرنسية » تأليف « تيير » (فرنسى)

✽ مصادر ثانوية ✽

- ١٩ - « نابليون بونابرت فى مصر » تأليف « لاكروا » (فرنسى)
 ٢٠ - « تاريخ أوربا السياسى » تأليف « ديدور » جزئين (فرنسى)
 ٢١ - « المسألة الشرقية » تأليف « دريولت » (فرنسى)
 ٢٢ - « مسألة مصر » تأليف « ده فرسنيه » (فرنسى)
 ٢٣ - « البسفور والدردنيل » تأليف « غريانونف » (فرنسى)
 ٢٤ - « حقائق الاخبار عن دول البحار » تأليف « اسماعيل باشا سهرنك »
 ٢٥ - « الكافى » تأليف « شاروويم بك »
 ٢٦ - « الممالك » للسير وليم ميور
 ٢٧ - « تاريخ أوربا منذ سنة ١٨١٥ » تأليف هازن (انجليزى)
 ٢٨ - « انجلترا وأسرة الاورليان » تأليف « هول » (انجليزى)
 ٢٩ - « التاريخ العام » تأليف « لافيس » (فرنسى)
 ٣٠ - « جورج كانتيج » تأليف « تميرلى » (انجليزى)
 ٣١ - « مذكرات عن محمد على » تأليف « السير شارلس مرسى » (انجليزى)
 ٣٢ - « مجموعة القوانين » تأليف « جلاد » (فرنسى)
 ٣٣ - « تاريخ حياة اللورد كلارندون » تأليف « السير هربرت مكسويل »
 انجليزى
 ٣٤ - « أوربا فى القرن التاسع عشر » تأليف « أليسن فيلبس »
 ٣٥ - « تقدم دول أوربا »
 » » »

ملاحظة : هذه أهم ما ذكره من مراجع الكتاب . أما الكتب المدرسية فهى معروفة

ملحق (ج)

أسماء أمم الاعلام الاوربية الواردة في الكتاب

* الفرنسيون *

بليار	Belliard	« بليار » أحد قواد الحملة الفرنسية بمصر
بوالكمث	Bois-le-Comte	مندوب فرنسي بالقاهرة سنة ١٨٣٢
بروي	Brueys	قائد أسطول الحملة الفرنسية
كلوت بك	Clot Bey	دكتور في خدمة محمد علي ومنشئ مدرسة الطب
كشلية	Cochlet	معمد فرنسا بالقاهرة
سريزي	Cerisy	من منشئ الاسطول المصري في عهد محمد علي
ديزيه	Desaix	أحد قواد الحملة
جيزو	Guizot	سفير فرنسا بلندره (مارس سنة ١٨٤٠) ثم وزير خارجية فرنسا اكتوبر سنة ١٨٤٠
كليبر	Klèber	القائد العام للحملة بعد عودة نابليون
لاند	Lalande	قائد أسطول البحر الابيض المتوسط سنة ١٨٣٩
لينتز	Liebnitz	أحد رجال لويس الرابع عشر
لوى فيليب	Louis philippe	ملك فرنسا سنة ١٨٣٠ — ١٨٤٨
مجالون	Magallon	ممثل الحكومة الفرنسية باسكندرية قبل الحملة
ميزون	Maison	قائد الحملة الفرنسية بالموره سنة ١٨٢٨
مينو	Menou	القائد العام للحملة بعد قتل كليبر
منج	Monge	رئيس البعثة الفرنسية
ريني	Rigny	أمير البحر في واقعة نوارين
روسين	Roussin	سفير فرنسا بالقسطنطينية
سبستيانى	Sebastiani	سفير فرنسا بلندره لغاية فبراير سنة ١٨٤٠
سليمان باشا	Sèves	قائد بالجيش المصري ومنشئ الجيش المصري في عهد محمد علي

محمد علي

Soult	رئيس وزراء فرنسا لغاية فبراير سنة ١٨٤٠	سولت
Talleyrand	أحد أعضاء حكومة الادارة بفرنسا	تاليرند
Thiers	رئيس الوزارة من فبراير سنة ١٨٤٠ الى اكتوبر سنة ١٨٤٠	تيير
Varennes	معتمد بالقسطنطينية	فارن

البريطانيون *

Beauvaley	سفير بفينا	بوفيل
Bowring	عضو في البرلمان ومندوب لمصر سنة ١٨٣٧	بورنج
Bulwer	سكرتير السفارة بالقسطنطينية ثم في باريس	بلور
Canning	وزير الخارجية ورئيس الوزارة سنة ١٨٢٧	كاننج
Campbell	معتمد بالقاهرة	كامبل
Codrington	أمير البحر في موقعة نوارين	كدرنجتن
Fansahw	مندوب ليفاوض محمد علي سنة ١٨٤٠	فانشو
Fraser	قائد الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٦	فريزر
Granville	سفير بباريس	جراڤيل
Holland	أحد أعضاء الوزارة	هولند
Hodges	معتد انجلترا بالقاهرة بعد كامبل	هدجس
Keith	قائد أسطول البحر الابيض المتوسط سنة ١٨٠١	كيث
Mandeville	معتمد بالقسطنطينية	مندفيل
Melbourne	رئيس الوزارة	ملبورن
Napier	ضابط في الاسطول	نايبيير
Palmerston	وزير الخارجية	بالمرستون
Ponsonby	سفير بالقسطنطينية من سنة ١٨٣٣	بنسبني
Stopford	القائد العام لحملة الحلفاء سنة ١٨٤٠	استبفورد
Sidney Smith	قائد بحري امام عكا سنة ١٧٩٩	سدني سميث
Waghorn	مندوب شركة الهند الشرقية الانجليزية	واجهورن

Walker	ضابط بالاسطول العثماني	واكر
Wood	موظف بريطاني	وود

✽ الروسيون ✽

Boutenieff	سفير بالقسطنطينية	بوتنف
Brunnow	مفوض بلندره سنة ١٨٤٠	برنوف
Diebitch	القائد في الحرب الروسية التركية سنة ١٨٢٩	ديبيتش
Heyden	أمير البحر في واقعة نوارين	هيدن
Medem	ممثل الحكومة بالقاهرة	مدم
Muravieff	مندوب خاص تركيا ومصر سنة ١٨٣٢	مورايف
Nesselrede	رئيس الحكومة	نسلرود
Orloff	مفوض بالقسطنطينية سنة ١٨٣٣	ارلوف

✽ النمسيون ✽

Laurin	ممثل الحكومة النمسية بمصر	لورين
Neumann	مفوض بلندره سنة ١٨٤٠	نيومن
Metternich	رئيس الحكومة	مترنخ
Prokesch	مندوب بمصر سنة ١٨٣٣	بروكش
Stürmer	سفير بالقسطنطينية	استورمر

✽ البروسيون ✽

Bülov	مفوض بلندره سنة ١٨٤٠	بيلوف
Koenigsmark	سفير بالقسطنطينية	كورنيزمرك
Moltke	قائد بالجيش العثماني	ملتكه

* اليونانيون *

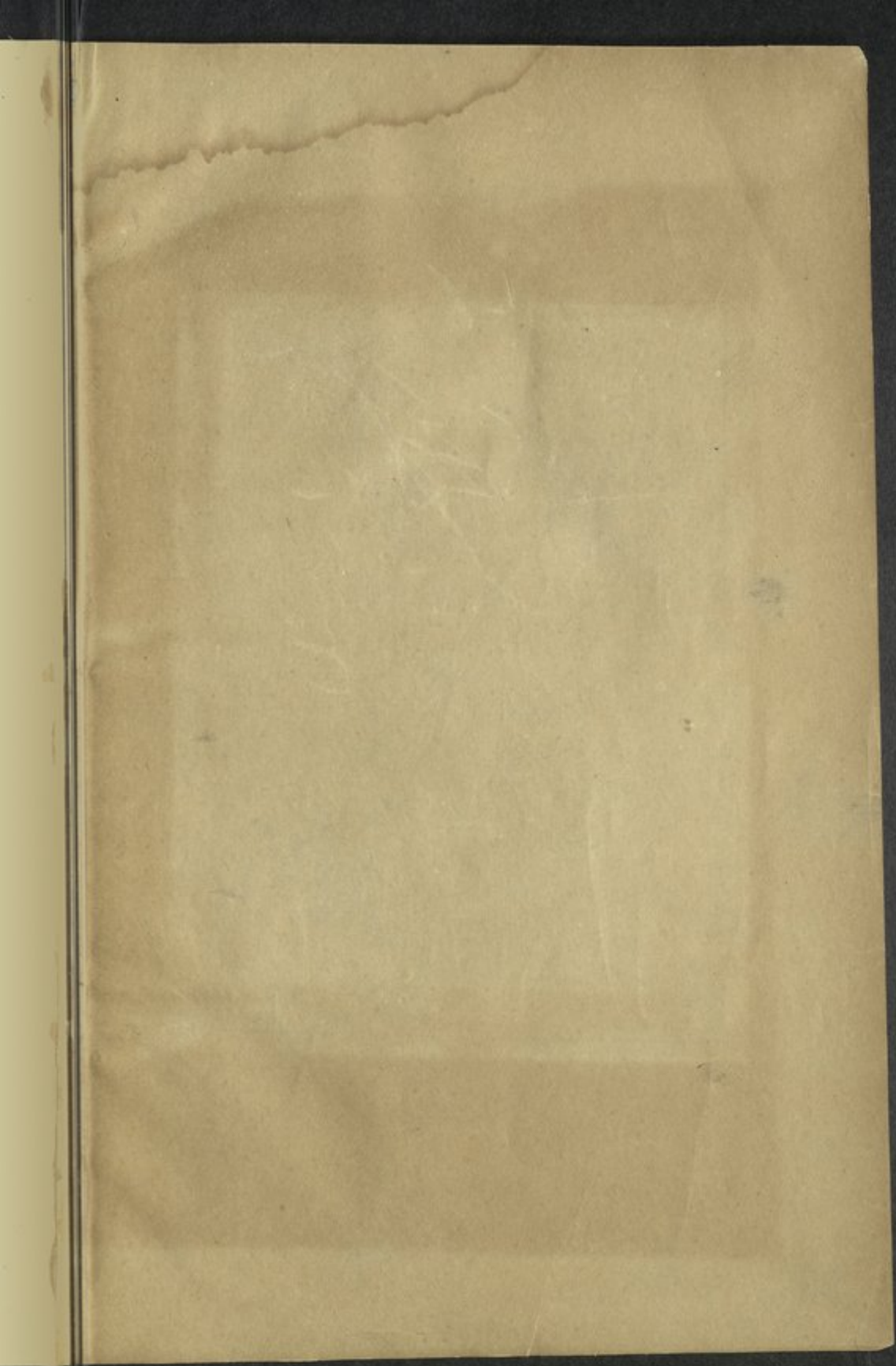
Capo d'Istrias وزير خارجية قيصر روسيا ورئيس حكومة

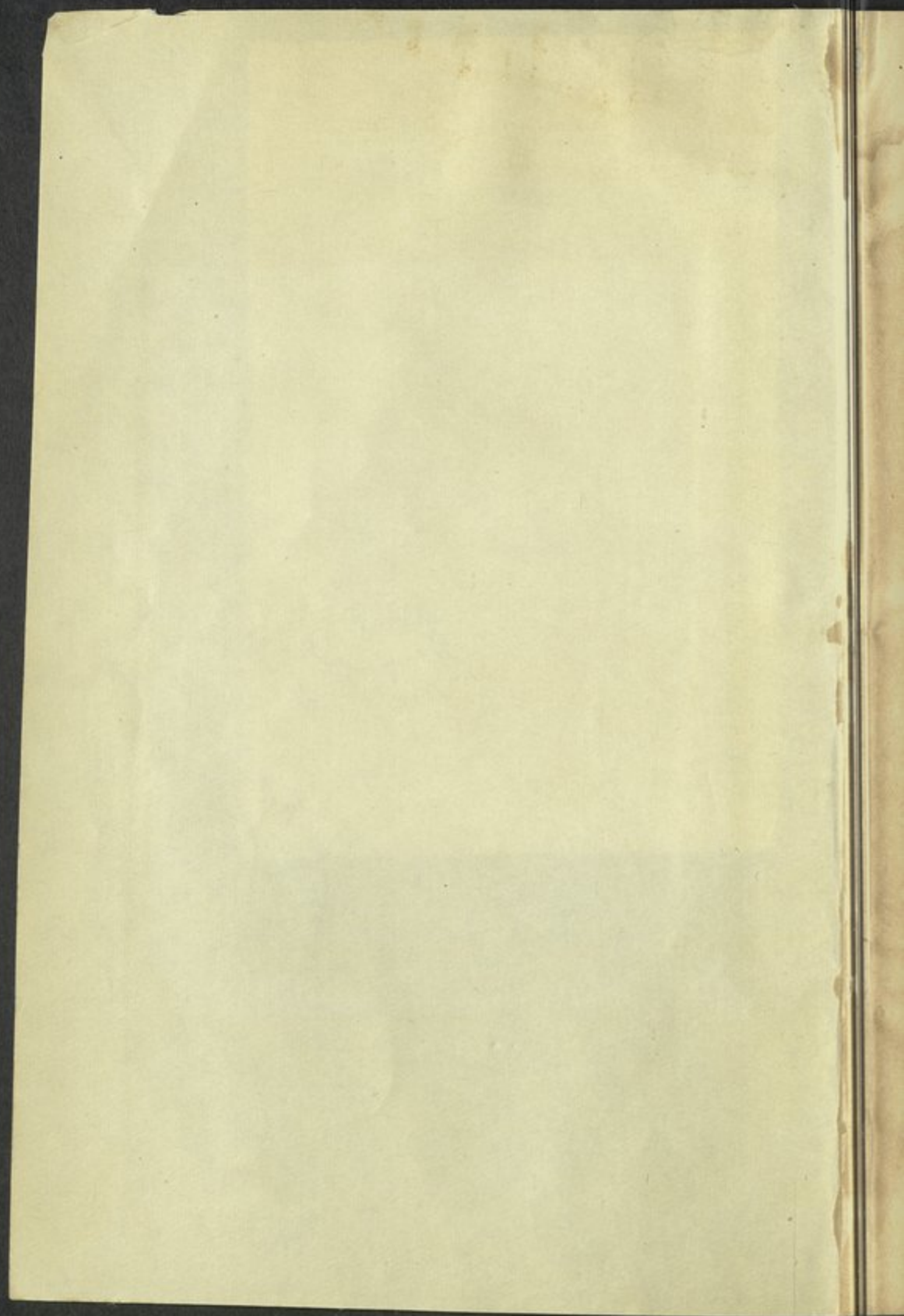
اليونان سنة ١٨٣٠

زعماء الثورة { Ipsilanti
Maurocordatos
Colcotronis

قواد في البحر { Miaoulis
Canaris
Klephtes عصابات الجبلين







DATE DUE



962
A 98679
12500
12500
12500
12500

962
B 75774
12500
12500
12500
12500

962.03:R56A:c.1

رفعت، محمد

تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحدي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01058952



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

962.03
R56A
v.1